رواية

فريق متميزون
E-BOOK

سيرجيو بيزيو

ترجمة: حسين عمر

الغضب

Sérgio Bizzio

Rage

Rabia

مكتبة فريق (متميزون)

لتحويل الكتب النادرة الى صيغة نصية

قام بالتحويل لهذا الكتاب:

كلمه مهمة: هذا العمل هو بمثابة خدمة حصرية للمكفوفين، من منطلق حرص الجميع على تقديم ما أمكن من دعم للإنسان الكفيف، الذي يحتاج أكثر من غيره للدعم الاجتماعي والعلمي والتقني بحيث تعينه خدماتنا هذه على ممارسة حياته باستقلالية وراحة، وتعزز لديه الثقة بالنفس والاندماج بالمجتمع بشكل طبيعي.

وبسبب شح الخدمات المتوفرة للمكفوفين حرصنا على توفير خدمات نوعية تساعد الكفيف في المجالات التعليمية العلمية والثقافية وذلك بتسخير ما يتوفر من تقنيات خاصة لتحويل الكتب الي نصوص تكون بين أيديهم بشكل مجاني، ويمكن لبرامج القراءة الخاصة بالمكفوفين قراءتها.

مع تحيات: فريق (متميزون) انضم الى الجروب

انضم الى القناة

الغضب

رواية مترجمة..

سيرچيو بيزيو
ترجمة: حسين عمر

عن الرواية

يضطرُّ جوسيه ماريا للهرب إلى فيلا فخمة حيث تعمل صديقته روزا الخادمة. يختبئ في إحدى غرف العلّية ويعيش مثل شبح. تمضي سنوات عمره وهو يراقب هذه الأسرة، ويتعرّف جوانبَها المظلمة ويتحمّل تجاهلَ صديقته بصمت. تدورُ أحداثُ رواية "الغضب" في بوينس آيرس، حيث تكشف عن حياة الطبقات الدنيا بتواتر مكثف، وتعاطف وجدانيٍّ ونفسيّ ممزوج بجَرعة من الكوميديا السوداء. صدرت الرواية عام 2004 وتُرجمت إلى 19 لغة. (الناشر)– سرد ساحر وشخصيّاتٌ مؤثّرة. (مجلة ببليشر ويكلي)

– رواية سيكولوجية مثيرة، سريعةُ الخُطى، وأخّاذة. (مجلّة بوكليست)

– لوحة محفورة بالأسيد عن مجتمع بوينس آيرس الذي تُهدّدُه الأزماتُ الاقتصادية والسياسية، دونما أحكام سابقة، وببعض السخرية الخفيفة. (صحيفة لو تون السويسرية)

– أفضل رواية قرأتها في السنوات الماضية. (الروائيّ الأرجنتيني سيزار آيرا)

– واحدة من أكثر الروايات أصالة. (الروائيّ والقاصّ الأرجنتيني رودولفو فوغويل)

(قلتُ له: «أنت تُوليه - لا شكَّ- كثيرًا من الأهمّية إن تركته يتحكّمُ في حياتك بهذه الطريقة».

فأجاب: «هل تودّ أن تعرفَ إن كنتُ أريدُ سماعَ ما تقوله؟».

- أهذا ما قاله؟

- كلّا. لقد جعلني أفهم أن هذا ما قصدَه).

- واين ولتر داير ولوا سينكو

- حوارات

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

1

- حينما ولدتِ، كنتُ أنا أُضاجع...

قالت روزا وهي تضحك:

- لا أصدّقك، إذ لا يمكنك أن تتذكّر شيئًا كهذا...

يبلغ فارق السنّ بينهما خمسة عشر عامًا. روزا في الخامسة والعشرين من عمرها، بينما يبلغ خوسيه ماريا أربعين عامًا. أولع بها كثيرًا حتّى إنّه ظنّ ذاته قادرةً على فعل كلّ شيء، بما في ذلك تذكّر ما فعله لحظة ولادتها: هل حقًّا ضاجع؟ في ذلك الوقت، كان عشيق فتاة فارعة الطول وشديدة النحول، تقف منتصبة كلّما وضع يده على خصرها، الأمر الذي يُظهرها أطول قامة وأكثر نحافةً مما كانت عليه بالفعل. تعلوه الفتاة طولًا، وتلثغ في الأحرف اللثوية، وترتدي ثيابًا مطاطية وتصفّف شعرها أملس؛ وفوق كلّ شيء يمارسان الجنس. خوسيه ماريا عشيق هذه الفتاة طيلة سنة كاملة: هناك فرصة بنسبة واحد إلى ثمانية وعشرين بأنه قد مارس بالفعل في اليوم الذي وُلِدَت فيه روزا (فبراير/ شباط). يفكّر في ذلك بحساب الأيام، لا الثواني: لم يجهل بأنّه «لو أنّ الانتصاب يستغرق ثلاثَ دقائق، لما آمن أحدٌ بالربّ»، مثلما يقول الدكتور داير؛ فتصوّر المرء لوحدات الزمن القصيرة جدًّا انطلاقًا من الذاكرة قد يوازي وضع حياته على المحكّ. على أيّ حال، هذه مجرّد مزحة. مجرّد لُعبة.

وقد سُرّت روزا بذلك، أقلّه من حيث النيّة، فعانقته وقبّلته.

استسلمت له ليُمطِرَ وجهها بوابلٍ من القُبلات. حينما مرّت أذن روزا بالقرب من فمه، استغلّ ذلك ليهمس لها: - هل تعطيني مؤخّرتكِ؟

- أوه..

- ماذا؟

- عرفتُ أنّك في اللّحظة الأخيرة سوف...

- ألا تريدين ذلك؟

- هذا لأنّه...

كانت متحمّسة، ولكنّها في غالب الأحيان، لا تنهي جملها. إن تركها للكلام من دون نهايات هو أسلوبها المعتاد في الحديث، أسلوبها الذي لا علاقة له مع الإثارة: تفكر بسرعة الضوء، وتتدافع أفكارها وتنقطع.

- سيعجبكِ هذا...

- لا أدري...

- أضمن لكِ ذلك.

نظر إليها خوسيه ماريا للحظة في صمت، ولأنّ روزا لم تقل شيئًا، وهو مستلقٍ فوقها، تمدّد بجانب جسدها، ومرّر إحدى ذراعيه حول خصرها ليُديرها. لكنّ روزا تصلّبت وابتعدت عنه سريعًا، كما لو أنّها، بلمسة يد خوسيه ماريا، قد تلقّت شَحنة كهربائية.

- ما الذي دهاكِ؟

أفرجت عن حركة سلبية برأسها تنمّ عن عدم الرضا.

- هيّا، يا روزا، أنا أعرف ما أقوله لكِ...

استندت روزا على مِرفقَيها في السرير، ونظرت إليه، وسألته: - هل تحبّني؟

- أنتِ تعلمين أنّني أحبّكِ...

- إذن، لماذا تريد أن أفعل...؟

- حبيبتي، ما العَلاقة بين الأمرين؟ مضي على علاقتنا أكثر من شهرين تقريبًا ونحن معًا... هل تحبّينني فعلًا؟

- أنا أعشقُك.

- حسنًا، وأنا أيضًا!

- عرفتُ أنّك ذات يوم سوف تطلب مني...

- تعرفين لأنّكِ أيضًا تريدين ذلك. ولهذا السبب تعرفين.

- المسألة، هي أنني قطّ لم...

- وأنا أيضًا، لم أفعل ذلك!

- هل هذا صحيح؟

- لماذا سأكذب عليكِ؟

- أَلم تمارس الجنس قطّ من... مع امرأة؟

ضمّ خوسيه ماريا أصابعه على هيئة صليبٍ وقبّلها. كانا عاريَين مثل دودتَين في غرفةٍ في فندقٍ صغير في منطقة باجو، فندقٍ وصلا إليه يوم السبت؛ فلم يرتدِ

أيّ منهما سوى ساعة يده. في الأسبوع الماضي، اشترى خوسيه ماريا ساعتين مقلّدتين من ماركة روليكس وأهدى واحدة منهما إلى روزا.

استطاع خوسيه ماريا أن يرى مؤشّر الوقت على ساعة روزا: أشارت الساعة إلى الثانيةَ عشرةَ إلّا عشرين دقيقة ظهرًا، من ثَم عليهما أن يُغادرا الغرفة في منتصف الظهيرة تمامًا.

- ألا تكذب؟

- ماذا تريدين، أن أقسم لكِ على ذلك؟ أقسم لكِ على ذلك بالكتاب المقدّس. أقسم لكِ على ذلك بالربّ.

- أصدّقك. يا لَغبائي! لو قلت لك «أصدّقُك» فستظنّ أنّني أَضعفُ...

- فلنكفّ عن الكلام، يا حبيبتي. بقيت لنا عشرون دقيقة...

- وفي عشرين دقيقة، تُريد أن تُمارس معي...؟ عشرون دقيقة، هذا الوقت لا يساوي شيئًا من أجل أمرٍ كهذا!

- روزا، أحبّكِ...

- نعم، أعرف ذلك...

- ما قيمة الوقت إن كان هناك حبٌّ؟

- الأمر، هو أنّ هذا الشيء...

- فلنجرّب. أنا أجرّب، وأنت تجرّبين. فلنحاول معاً.

- وماذا لو تألمتُ؟

- كيف ستتألّمين؟ إذا ما آلمك ذلك، فسأتوقّف.

- هل ستحبّني كثيرًا بعد ذلك؟

ابتسم خوسيه ماريا.

قال لها:

- تعالي، وأَعْطيني قُبلة...

قبّلته روزا، ولكنّها توقّفت لحظة قبل ذلك: فهي تعرفُ أنّ القُبلة تعني «الموافقة».

في أعماقها، تموتُ رغبةً في ذلك. ستهبه كلّ شيء. لو تمتلك مؤخّرتين، لوهبتهما له. فهي تحبّه. لم تخشَ من أن تتألّم، ولا حتى من أن يكفّ عن

احترامها. في الحقيقة، لم تخف من أيّ شيء. تتجاوزها رغبتها، مثل أفكارها التي تتعدّى أقوالها؛ لا شيء أكثر من ذلك. كلّا، هناك أكثر من ذلك: لم تتخيّل أنّ يطلب خوسيه ماريا منها أن يمارس الجنس معها من الخلف.

تعارفا في طابور الانتظار على صندوق المحاسبة في متجر ديسكو. خوسيه ماريا عاملًا في البناء. وروزا خادمة في منزل آل بليندر. خرج ماريا من موقع البناء الذي يعمل فيه (الذي لا يزال هيكلًا مبنيًّا يقع على بعد مجموعتي بيوت من منزل آل بليندر)، وذلك بقصد شراء بعض اللحم والخبز لإعداد وجبة غداء فترة الظهيرة. وقف في المكان الخطأ من طابور الانتظار، مباشرةً خلف روزا التي اشترت كمًّا هائلًا من الأشياء: فعربتُها طافحةٌ بالمشتريات. قال خوسيه ماريا في نفسه إنّ الفتاة ستحتاج على الأقلّ إلى نصف ساعة لتُنهيَ دفعَ حسابها إلى الصندوق. ألقى نظرة على صناديق المحاسبة المجاورة، لكنّ طوابيرَ الانتظار أمامها طويلةٌ جدًّا، فأطلق تنهيدة امتعاضٍ وتأفّف. سمعته روزا؛ فنظرت إلى السلّة الحمراء التي يمسكها خوسيه ماريا بيده (تحوي ربطة خبز وكيس لحمٍ)، وسألته: - هل تريد أن تمرّ في الحال؟

أوقعه الاقتراح في حَيرةٍ من أمره، فرفع حاجبَيه وهزّ رأسَه قليلًا في إشارة إلى القَبول والرفض في آنٍ واحدٍ.

- كلّا، لا بأس، لا مشكلة...

بدت كلّ حفاوة غريبة له. بينما بدأت روزا بإخراج بضائعها من العربة، أدرك أنّ مقترحها في الحقيقة ردًّا على تنهيدة التأفّف التي أطلقها هو بنفسه قبل دقيقة خلت، وهو يرى الكمية الكبيرة من الأشياء التي اشترتها، ويحسب الوقت الذي سوف يلزمها لتمرّر كلّ هذه الموادّ على صندوق المحاسبة.

قال:

- لم أشأ أن أقول...

استدارت روزا نحوه، ونظرت، صامتةً، إليه بهيئة جدّية.

كرّر خوسيه ماريا:

- لم أشأ أن...

عانى في بعض الأحيان كثيرًا في سبيل جعل الآخر يفهمه.

انحنت روزا من جديد فوق عربتها وواصلت إخراج الموادّ منها.

تابع خوسيه ماريا:

- ومع ذلك، شكرًا لكِ.

- على الرحب والسعة.

ابتسمت موظّفة الصندوق، وخفضت عينيها نحو عَبوة الحليب التي تمسكُها بيدها وأدخلت رمزها وهي تعتقد بأنّ شيئًا ما قد حدث، أو ربّما سيحدث بين هذا الرجل وهذه الفتاة. ولم تكن مخطئة في ذلك.

حينما أنهت روزا ما عليها أن تفعلَه (تركت كلّ شيء لخدمة التوصيل إلى المنزل)، خرجت من المتجر، ولكنّها لم تنصرف في الحال: عبرت الشارع وظلّت ضمن حقل رؤية خوسيه ماريا، متظاهرةً بأنّها تنظرُ إلى واجهة محلٍّ تجاريّ. خرج خوسيه ماريا بعد دقيقة، وقد تدلّى كيسه معلّقًا بإصبعٍ من يده. عبر الشارع وتوجّه مباشرةً نحوها.

سألها:

- هل أزعجتكِ؟

رأته روزا يتقدّم نحوها، انطلاقًا من انعكاس صورته في زجاج الواجهة، ولكنّها تظاهرت بأنّها قد فوجئت، بل جفلت على نحوٍ خفيف وهي تضعُ يدها على قلبها. وقالت: - آه، لقد خفتُ كثيرًا!

- عفوًا.

- لا بأس...

- أنتِ من هنا؟

أجابت روزا وهي تشير بإصبعها إلى المنزل الواقع في زاوية الشارع: - مِن هناك.

أردف خوسيه ماريا:

- أيّ منزلٍ، إذن؟ أنا أعمل في الزاوية الأخرى هناك، في زاوية...

- آه، حقًّا؟

- نعم. أنا آتي كلّ يوم وأشتري ما أحتاج إليه من هنا.

- في أيّ قطاع؟

- قطّاع البناء.

- آه، هذا جيّد...

- نعم، هناك حركة لا بأس بها في هذا القطاع الآن.

- ماذا؟

- البناء. في السنة الماضية، لم يكن هناك أيّ شيء. الآن، هناك حركة أكثر بقليل. وأنتِ؟

- خادمة. عملٌ هادئ.

ابتسم خوسيه ماريا كما لو أنّه تذكّر فجأةً شيئًا ما ومدّ يده لها، وقال: - خوسيه ماريا.

قالت وهي بدورها تمدّ له يدها:

- روزا.

- سعيدٌ بمقابلتكِ.

- وأنا أيضًا.

- إذن يا روزا...

- نعم..

- وأنتِ –أيضًا- تأتين كلّ يوم للتبضّع من هنا؟

- إنّه المتجر الوحيد...

- فيه كلّ شيء! حتّى ألبومات الغناء. مؤخّرًا، رأيت فيه ألبوم شاكيرا وعليه تخفيض في السعر... هل تحبّين شاكيرا؟

- نعم. إنّها تمتلك صوتًا...

- ماذا تحبّين من الموسيقى؟

- حسنًا... كريستيان كاسترو... إغليسياس...

- إغليسياس الأب أم الابن؟

- الابن، والحمد لله! سيّدة البيت تستمع إلى الأب حينما تكون وحدها. أمّا حينما يكون هناك آخرون معها، فكلا. حينما يكون هناك أناسٌ معها، تضع هذه الموسيقى الكلاسيكية التي...

ثم أضافت وهي تضحك: يقول لها الناس «أوقفي هذه الموسيقى، يا ريتا!»، ولكنّها لا تُبالي بهم... لا أدري لماذا تضع هذه الموسيقى إذا كانت لا تحبّها أصلًا!

- هي لا تحبّها ومع ذلك تضعها؟ غريبٌ أمر الناس... إذن إنريكيه إغليسياس. اسمه إنريكيه، أليس كذلك؟

- بلى، إنريكيه. ولكنّني أفضّل كريستيان كاسترو، أجدُه أكثر...

- ومن موسيقى الكومبيا، ألا تحبين أيّ شيء منها؟

- في السابق. الآن، مللتُ منها بعض الشيء.

- أنا أيضًا. خاصّة وأنني كبرتُ معها. تقول والدتي إنّها، حينما كنتُ في بطنها، وضعت المذياع على سرّتها وهو يبثّ موسيقى الكومبيا، أتصدقين ذلك؟ ولكنّكِ محقّة: على المدى الطويل، يصبح هذا مملًّا.

- لستُ متّفقة معك تمامًا. فما يتعلّق بي فإنّ موسيقى الكومبيا لا تعجبني؛ لأنّها حقيقةً لم تعجبني قطُّ. ولكنني أعرف أناسًا تعجبهم هذه الموسيقى وستظلُّ تعجبُهم...

- ولكنّكِ أخبرتِني قبل قليل أنّها تعجبكِ في السابق...!

- كلا، في الحقيقة، لم تُعجبني قطُّ. ما حصل هو أنني لم أشأ أن أجرحَ مشاعرَك؛ إذ بدا لي أنّك...

- نعم، أنتِ محقّة، لديّ حساسية تجاه موسيقى الكومبيا، لماذا سأكذب عليكِ؟

- أمرٌ لا يُصدّق، أليس كذلك؟ إذ سرعان ما تعارفنا وبدأ يَكذِب بعضُنا على بعض...

قال خوسيه ماريا لكي يهوّن من الأمر:

- أوه، هذا ليس كذبًا أبدًا. هذا موضوعُ نقاشٍ مثل غيرِه من المواضيع. نحن نتناقش بحَذَرٍ ليكتشف بعضنا، باحترامٍ، ميولَ بعض...

- بحَذَرٍ. هذا أمرٌ جيّد.

- هذا ممتاز.

- يجب أن يكون الأمر كذلك. ما يتعلّق بي، يبدو لي الحذر... ما يتعلق بي، حينما يقول لك أحدهم الحقيقة دفعةً واحدة...

- ولكنّكِ أنتِ، تَبْدُوِينَ صادقةً...

- شكرًا.

- لا، لا، أنا أحدّثك جِدّيًا. أنظرُ إليك وأكتشف أنّكِ صادقة. قلت لي ما اسمُك؟

- روزا.

- روزا. اسمٌ جميل.

- شكرًا. حسنًا...

- هل ستذهبين؟

استمرّ حديثُهما على هذا المنوال بضع دقائق إضافية؛ لأنّ بعضهما انجذب إلى بعض ولم يرغب أيٌّ منهما في المغادرة. لم يتحرّكا من مكانهما قِيد أنملة، وبدا كأنّهما قد تسمّرا بالمكان؛ حتّى وإن تقدّما وتراجعا من دون توقّف، يفعلان ذلك انطلاقًا من النقطة نفسها أو يتوجّهان إلى النقطة نفسها، ويستمدّان دعمَهما انطلاقًا من تحريك الخصر، كما لو أنّ صدمةَ الحبّ من النظرة الأولى أفقدتهما توازنهما.

ينظر حارس العمارة المجاورة إليهما بطرف عينه، ويتمحّصهما. رأى هذه الفتاة مليون مرّة، وحدها دائمًا، أمّا الفتى، فهذه هي المرّة الأولى التي يراه فيها، ولم تَرُق له الطريقة التي يتكلّم بها معها. واقفًا أمام باب مدخل العمارة، يبذل ما بوسعه ليُصغيَ إلى حديثهما؛ يسمع نتفًا من الكلام وجملًا منفصلةً من قبيل «لَمنْ ستصوّت؟»، «آه كلا، التصويتُ سرّيّ»، وأحسّ بموجةٍ من الغضب تصعدُ في حَلقِه: إذ من الواضح أنّ الفتى المجهول يُغوي «عن قصد» خادمة آل بليندر. لم يكن للحيّ قانونٌ وقواعدُ سلوكٍ، ولكنّ كلّ شيء يوحي بعكس ذلك. لا قانون هناك، وعلى ذلك، فكلُّ شيء يسيرُ كما لو أنّه موجود. قانونٌ غريزيٌّ، بالإضافة إلى ما هو واضح (نوعية الثياب، ولون البشرة والشعر، وطريقة الكلام، وطريقة المشي)، يشمل، بلا شكٍّ، العاملين في الخدمة المنزلية. على نحوٍ إجمالي، ما كان يُمارَس، هو «ملاحظة» الأجسام الغريبة، وبصورةٍ رئيسة انطلاقًا من العين المجرّدة، بحيث يُنقل إليها الإحساس بأنّها تحت المراقبة: وهذه وقاحةٌ فعّالة جدًّا، معتَمَدة ويمارسُها كلّ الحيّ، إضافةً إلى عدد كبير من الشاذّين. في الواقع، سرعان ما كفّ الحارس عن مراقبتهما بطرف عينه، لكي ينظر إليهما علنًا ومباشرةً، بل خطا بضعَ خطواتٍ نحوهما ليسمع على نحوٍ أوضح ما يقولانه. لم يسمع كلامًا مهمًّا: فقد افترق خوسيه ماريا وروزا. ما التقطته أذنه هو وعدهما بأن يلتقيا مجدّدًا. أسرعت روزا الخُطى. نظر إليها خوسيه ماريا برهةً، ثم استدار إلى الوراء وتوجّه نحو الورشة.

مرّ من أمام الحارس وهو يصفّر ويُهزهِزُ كيسَه. أصبح هذا الأخير استفزازيًّا أكثر من أيّ وقتٍ مضى، وخطا خطوةً إلى الأمام متظاهرًا بالتسلّي كما لو أنّه يريدُ أن يرى شيئًا ما على قارعة الرصيف وتوقّف أمام خوسيه ماريا. كلُّ شيء سريعٌ بقدر ما هو متعمّدٌ: أراد أن يُجبر خوسيه ماريا على المرور من خلفه ليستطيع الاستدارة إلى الوراء وأن يراقبه: إنّها إهانة. ما فات حسابات الحارس (وهو رجلٌ مفرِط السمنة، خائرُ القُوى، متهدّلُ الكتفَين، سيِّئُ الأداء في المراقبة)، هو أنّ الفتى الغريبَ سوف يشعر بالفعل أنّه قد أُهِينَ.

سأله خوسيه ماريا من دون أن يتوقّف:

- إلامَ تنظرُ أيّها الأحمق؟

ظلّ الحارس صامتًا عاجزًا عن الكلام، مشلولًا عاجزًا عن الحركة. وبينا نجح أخيرًا في التحرّك، وصل خوسيه ماريا إلى زاوية الشارع. قال في نفسه: «يا إلهي، يا لَه من فتًى رشيق! أراهنُ بحياتي على أنّ هذا الرجل قادرٌ على أن يقفز من رصيفٍ إلى آخرَ من دون أن تمسّ قدماه الأرض».

بعد مرور بضع ساعات، في فترة ما بعد الظهيرة، رآه مرّة أخرى. وعلى نحوٍ دقيق، أشارت الساعة إلى السادسة والنصف مساءً. اغتسل الحارس وبدّل ثيابه، ووقف من جديد أمام عمارته، وهو يبذل عادةً ما بوسعه ليبدوَ متعبًا. أنهى خوسيه ماريا عمله؛ واغتسل، هو الآخر، وبدّل ثيابه وتوجّه نحو منزل آل بليندر.

هذه المرّة الأولى التي يمرّ فيها من هذا المكان في فترة ما بعد الظهيرة؛ عامّة، ينزل من شارع ورشة البناء إلى منطقة باجو حيث تقلّه من هناك الحافلة إلى بيته، في مدينة كابيلا ديل سنيور. يكفيه أن يقول في نفسه بأنّ أمامه مسافةَ ساعتين كاملتين في الطريق ليستغرق في النوم. مرّ من أمام الحارس وهو يهزّ رأسه.

صرخ فيه الحارس:

- هيه، أنت!

توقّف خوسيه ماريا، ونظر إليه. لم ينظر إليه من رأسه حتى أخمص قدميه، وإنّما حدّق مباشرةً في عينيه، وسأله: - ما بك؟

- هل فعلتُ لكَ شيئًا؟

- قل لي!

- هذا الصباح، نعتتني بالأحمق...

- أنا آسف. أثرثر هنا فقط مع آنسةٍ وأنت تتجسّس علينا و... كيف لي أن أعرف، أنت ترى كيف تسير الأمور. هل يعرف بعضنا بعضًا؟

- لا أعتقد ذلك.

- ولذلك قلتُ لك إنّه من غير المناسب أن تنظر إلى الناس بهذه الطريقة. إضافة إلى ذلك، تظاهرت بأنّك غير منتبهٍ وقطعتَ عليّ الطريق. ولهذا السبب نعتُّك بالأحمق.

- لم يعجبني ذلك.

- حسنًا، ماذا تريد أن أفعل.

- أن تقدّم لي على الأقل الاعتذار...

خوسيه ماريا متعبٌ؛ لذا لم يرغب في مشاجرة، فضحك هازئًا برهةً قبل أن يستأنفَ السير في طريقه. توقّف الحارس في وسط الرصيف تمامًا، وهو يراه يبتعد، فكّر ألف مرّة أن يطلب منه العودة، بل جرّب مختلف نبرات الصوت في ذهنه، ولكن من دون أن يستطيع تكرار عبارة «هيه أنت!». عاد، محبطًا وغاضبًا، إلى بيته وصفق باب الغرفة بشدّة بحيث جفلت زوجته وسقطت المملحة من يدها في قِدر الطعام.

قال وهو يُدخل رقم هاتفٍ:

- اللعنة على هذه الأمّ العاهرة التي أنجبت هؤلاء الزنوج الأقذار!

سمعه الشخصُ الذي على الطرف الآخر من الخطّ الهاتفي يقول: - مرحبًا، إسرائيل؟ هذا أنا، غوستاف. هل أنت مشغول؟

رفع إسرائيل عينيه نحو السماء، وأجاب:

- اتّصلتَ في الوقت غير المناسب، يا غوستاف. كنتُ على وشك أن أتناول وجبتي...

- إذن، سأعاودُ الاتصال بك في وقتٍ آخرَ...

- كلا، أخبرني، ماذا هناك...

في هذه الأثناء، توقّف خوسيه ماريا في زاوية جادة آلفير ورودريغيز بينا لينظر إلى منزل آل بليندر. النوافذ معتمة، باستثناء نوافذ المطبخ في الطابق الأرضي، ونافذة في الطابق الأوّل. المنزل مهيبٌ: ضاربٌ إلى اللون الرماديّ، مغطّى بالطحالب وكما لو أنّه مكلّلٌ بهالةٍ من الدخان، ولكن لم تكن هناك حاجة إلى الكثير من البراعة لملاحظة فخامته وأبّهته؛ فمن دون الذهاب بعيدًا، يفضي درجُ المدخل الرئيس الرخاميُّ الأبيضُ إلى الحديقة بكثيرٍ من الرشاقة بحيث يبدو كأنه كعكة زفاف مدرَّجة.

قال في نفسه: «يا لَه من منزلٍ جميل!». حكّ تحتَ أحدِ إبطَيه وقال بصوتٍ منخفضٍ جدًّا: «روزا... روزا...» وهو بالكاد يفتح شفتَيه. كان نداءً... لم يفعل قطّ شيئًا كهذا من قبل. لا شكَّ أنه وقع في غرامها. لكنّ قلبه ينبض مثل العادة، بالإيقاع نفسه وبالشدّة نفسها. هبّت حينئذٍ واحدة من تلك العواصف التي تُصيب الأشياء شيئًا تلو آخر: رفعتِ الرياحُ من الأرض ورقة من صحيفة

لتأخذها وترميها على بعد عدّة أمتار، وحرّكت قمّة شجرةٍ، وهزّت لوحةً إعلانية لتختفيَ بعيدًا. يسرع الناس خطاهم. رفع خوسيه ماريا عينيه نحو السماء؛ فرأى أنّ هناك فسحاتٍ شاسعةً زرقاءَ داكنةً ومليئةً بالنجوم، ولكنّ العاصفة لا تزال حاضرة، مندسّة بين العشرات من الغيوم، المهيّأة جميعًا للانفجار برقًا ورعدًا.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

2

في صباح اليوم التالي، لم تسقط قطرة واحدة من المطر. السماء مشرقة وتضيء مثل مرآةٍ، وقد سخر العمال من خوسيه ماريا حينما قدم إلى ورشة البناء ومعه معطف الوقاية من المطر. «تكمن المشكلة في أنّني أستيقظ في الساعة الخامسة صباحًا، بينما أنتَ فقد استيقظت قبل عشر دقائقٍ فقط». قال ذلك لرئيس العمّال، وهو رجلٌ متين البنية وقويّ، يحمل شاربَينِ شبيهَين بشاربَي سلفادور دالي ويقوم بتنظيم الشحنات وتوزيع المهام بين العمّال. في تلك الساعة، (الساعة السابعة صباحًا)، لم تكن لأحدٍ قريحة في إظهار روح الدعابة، لذلك يطلق العمّال بعض الترّهات، وبعض الطرائف والنكات الهزلية، والشتائم السوقية. امتعض رئيس العمال من تعليق خوسيه ماريا، ولكنّه تغاضى عنه وتجاهله، لأنّه لم يكن بحاجة إلى أن يتشاجر معه طالما بوسعه أن يطرده من العمل بكلّ سهولةٍ من دون مشاجرة. اكتفى بأن أمسك بإحدى ذراعَي خوسيه ماريا وأبعده قليلًا عن الآخرين، بما يكفي لأن يتحدّث معه من دون أن يراهما أحد.

قال له:

- اسمعني أيّها الغبي، كنتُ أمزح فقط، لا تأخذ الأمور على هذا المحمل الجدّي، لأنني، أنا أيضًا، لديّ مزاجي.

- أنت، آه لم أعرف!

- لم تعرف ماذا؟

- لا شيء، دعك من ذلك. إذا كان لديك مزاجك، فمن الأفضل أن تحتفظ به لنفسك.

- هل تستفزّني؟ ألا تعرف أنني أستطيع أن أطردك من العمل إذا أردتُ ذلك؟

أقرّ خوسيه ماريا في صمت بإشارة خفيفة من رأسه من دون أن يزيح عينيه عنه ثانية واحدة. من جهته، حدّق فيه رئيس العمال من دون أن يفلت ذراعه. إضافة إلى ذلك، اشتدّ ضغط يده على ذراع خوسيه ماريا بينما ينظران بعضهما إلى بعض، متزامنًا مع اقتراب استجابة جسدية من قبل هذا الأخير.

رئيس العمّال على يقينٍ أنّ الشاب سوف يعتدي عليه بين لحظة وأخرى؛ فتخيّله يتشبّث بالعارضةً التي يقفان تحتها ويخنقه بساقيه. رآه يفعل ذلك بالضبط قبل أسبوعين وهو يمازح أحد زملائه في العمل، ودهش آنذاك لرشاقته. لكنّ خوسيه ماريا بصق جانبًا، وقال: - دعنا نعود إلى العمل، نحن نُهدر الوقت...

حينئذٍ أفلت رئيس العمّال ذراعه.

ذهب خوسيه ماريا ليبدّل ثيابه. ظلّ الجوّ مشحونًا، الأمر الذي بدا ملحوظًا في تصرّفات الذين تابعوا المشهد عن قرب، بل حتى عند الذين وصلوا من فورهم إلى الورشة؛ فقد دخلوا إليها وعلموا في الحال بأنّ شيئًا ما على غير ما يُرام. لم يتكلّم أحدٌ؛ وأخذ العمّال أماكنهم في العمل ببطء وهم ينظرون إلى الأرض بشيءٍ من الوجوم.

قال أحدهم بصوتٍ خفيض:

- انظر ما يمكنه أن يفعل معطفٌ واقٍ من المطر.

ردّ الآخر:

- الحكاية ليست حكاية واقٍ مطريّ، إنّه المزاح. عليك أن تعرف على مَنْ تُلقي باللوم. ماريا هذا خطيرٌ حتى من دون واقٍ مطري.

يناديه الجميع بهذا الاسم، ماريا، هكذا فقط، وبدا أنّ ذلك لا يغيظه. في الحقيقة، لم يبالِ بذلك. حتى روزا بدأت مناداته باسم ماريا. لم تسمع من قبل أحدًا ينادي شخصًا بهذه الطريقة، وفجأةً نادته باسم ماريا.

كان هناك في نحول جسده وطول رموشه شيءٌ ما يُلغي، بطريقة تلقائية تقريبًا، احتمال أن يُنادى باسم خوسيه. ولأنّه يكفي المرءُ النظرَ إليه ليعرف أنّ رشاقته رشاقةُ رجل موهوبٍ، وأنّ خطورته، في الحقيقة، تجعل الناس ينادونه «ماريا» بحذر، ويخفضون صوتهم، وبذلك، حتى لو رضي بأن يُنادى بهذه الطريقة، يخشَونَ مع ذلك إهانته.

أحسَّ رئيس العمال، وهو رجلٌ دموي، أنّ دمه قد تجمّد في عروقه حينما حدّق ماريا في عينيه، ولكنّه الآن، وقد انتهى كلّ شيء، يغلي دمه. منعته هذه التغيّرات المفاجئة من ملاحظة خطورة ماريا، مثله مثل حارس العمارة. لو أنّهما أكثر انتباهًا بقليل، أو أكثر بُعد نظرٍ بقليل، لما تشاجرا معه. لم يفعل ماريا لهما أيّ شيء؛ بل هما من سعيا إلى ذلك. لا شك أن إشارة تحذير تتبع نوعًا من القانونٍ الطبيعي تم تفعيلها، مما دفع العنكبوت، التي لم تشعر بالجوع بعدُ، إلي اصطياد ذباب صغير، ولكنّه لن يكون من الصواب عدّ روزا من بينها.

إنّ ما مرّ من دون أن تراه عيون رئيس العمال والحارس، قد أبهر، على العكس منهما، عيني روزا؛ إذ هي فتاة مطيعة، لا تنفعل ولا تغضب بسهولة، ومليئة بالأحلام غير المحقّقة. خطورة ماريا، التي تفسرها روزا على أنّها «شخصيّته» (تقول في نفسها بأنّه «صعب المراس»، «عنيد»)؛ جعلته المكمّل المثالي، القطعة التي تنِقصُ نظامَ حياتها. فهي تعشق البقاء معه، تشعر بأنّها

محميّة معه، وتشعر بأنّهما يستطيعان معًا أن يلتهما العالم. إذ تفقدُ كلّ إحساس بالواقع ما دامت في معيَّته.

يمرُّ ماريا لرؤيتها كلَّ يوم في الساعة السادسة والنصف مساءً بعد أن ينهيَ دوامَه في العمل. يلتقيان في مدخل الخدمة لمنزل آل بليندر، ويخطّطان، بين قُبلتَين، لمشاريعَ صبيانيةٍ مدهشة، ولكنّها جوهريةٌ لهما، مثل اللقاء في اليوم التالي في الديسكو أو قضاء ليلة السبت معًا في الفندق الصغير في منطقة باجو.

يمارس ماريا وروزا الجنس كلَّ يوم سبتٍ وأحيانًا يوم الأحد. ولو كان الأمر بيدَيهما، لمارسا الجنس كلّ يوم؛ لأنّ روزا تحظى بحرية الخروج متى أرادت، ولكن لم تكن لهما في الحقيقة الإمكانات المادية الكافية. إذ يقبضان الراتب نفسه: 700 بيزو في الشهر. كان قضاء ساعتين في الفندق يكلّف 25 بيزو، الأمر الذي يعني أنّهما ينفقان 100 بيزو شهريًّا ليمارسا الجنس فقط في أيام السبت، و200 بيزو إذا ما فعلا ذلك أيام الأحد أيضًا. يدفعان النفقات مناصفة (هو مرّة، وهي مرّة)، ولكنّ النفقات الشهرية لروزا كانت أقلَّ بكثير من النفقات الشهرية لماريا لأنّه مضطرٌّ للذهاب يوميًّا إلى مدينة كابيلا ديل سنيور، ذهابًا وإيابًا، الأمر الذي يكلّفه شهريًا مبلغًا يعادل 260 بيزو. يصرف قرابة 310 بيزو على ممارسة الجنس وأجور التنقّل. لو لم تكن عليه التزاماتٌ أخرى، لاستطاع أن يعيش على نحوٍ مريح بمبلغ 390 بيزو، ولكنّه - أيضًا- كائنٌ بشريٌّ عليه أن يأكل ويدخّن، وكذلك (أثناء مناسبات نادرة، إضافة إلى أنّه كائنٌ بشريٌّ، فقد حاول أن يتصرّف مثل فارسٍ شهم) أن يدفع قيمة الجعّة أو القهوة حينما يذهبان إلى المركز، ولذلك لم يكن أمامهما، من الناحية العملية، من خيارٍ آخر سوى ممارسة الجنس في أيام السبت فقط.

تحزن روزا لذلك، ولكنّها في الحقيقة لم تعش في الضائقة نفسها التي يعيشها ماريا، بل تستطيع أن توفّر بعض المال من راتبها. الطعام والمأوى مؤمّنٌ لها، ولم تكن مضطرّة لأن تسافر إلى أيّ مكان. بل ولم تشتر لنفسها ألبسةً (في الحقيقة، ولا ماريا). وبالتأكيد لم تشتر مجلّات؛ فقد كان معلّمها السيّد بليندر مشتركًا في مجلة Selecciones del Reader’s Digest التي تصل في الوقت المحدّد عبر البريد، والتي تفتحها بل وتقرؤها قبله.

بالنسبة لماريا، فإن حصوله على راتب يماثل ما تقبضه روزا بالضبط يُضايقُه؛ إذ يعتقدُ أنّه يبذلُ جهودًا تفوق كثيرًا ما تبذلُه روزا. وهذا صحيح من الناحية الجسدية، ولكن ليس من ناحية الوقت؛ إذ إنّها تعمل مدّةً تعادلُ ضعف مدّةِ عملِ ماريا. ولكن لم يكن للوقت أهمّيةٌ في الذهنية الجسدية المحضة لماريا، الذي لم يكن لديه ما يكفي من المال حتّى لحلاقة شعره. فشعرُه حول أذنيه

في منتهى القِصَر وأكثر طولًا نسبيًا في منطقة الرقبة، ليس لأنّ حلاقته آخر صيحات الموضة، وإنّما لأنّه يحلق شعره بنفسه أمام المرآة.

إلى جانب العلاقة العاطفية المتنامية مع روزا، إلا أن «سلوكه» أكسبه سلسلة طويلة من الأعداء في الحيّ، بعضهم عارضون وعابرون، وآخرون دائمون. بَدءًا من حارس العمارة الذي انضمّ إلى إسرائيل، ابن رئيس الرابطة المُلّاك. إسرائيل من هواة كرة الركبي، وهو في السابعة والعشرين من عمره، مكتنز، بعينين وفم ضفدع، ورأسُه غائصٌ بين كتفيه. لم يلعب قطّ كرة الركبي، بل لم يعرف قوانين اللعبة، ولكنّه يرتدي على الدوام قمصانَ جميع فرق الركبي في العالم؛ وإضافة إلى ذلك، يعرق كثيرًا، وتفوح منه رائحة كريهة جدًّا، ولذا يتعطّر بعطور باهظة الثمن، تعطي رائحة غريبة إذ تمتزج مع رائحة جسده، يمكن تحمّلُها بشق الأنفس إذ تُضيّق المجاري التنفسية لمعظم الناس.

يرتدي على الدوام سراويل جينز وينتعل حذاءً من جلد الغزال بلا كعب، نازيٌّ، وهذا توضيحٌ جدير بالإشارة إليه. هاتفه الحارس ليتحدّث إليه عن لقائه العاصف مع ماريا إذ يعرف أنّ إسرائيل يكره الغرباء، خاصّة الفقراء منهم، فما بالكم إذا تحاذقوا في الحيّ؛ وكان هو بنفسه قد قال له أكثر من مرّة: «دعني أُمسك بواحدٍ منهم وسترى ما أفعلُ به!» تلك هي عبارته المفضّلة، وما كان أحبَّ لنفسه أن يختم كلّ النقاشات بهذا التهديد. حسنًا، لديه الآن الفرصةُ ليضع كلماته في حيز التنفيذ. ينتظرُ مرور ماريا، واقفًا أمام باب العمارة مع الحارس. يطقطق إسرائيل مفاصل أصابعه ورسغَيه وكعبَيه ورقبته، بينما يدخّن الحارس سيجارة تلو الأخرى.

مرّ ماريا في تمام الساعة السادسة والنصف، كدَيدَنه كلّ يوم. رآه الحارس قادمًا فضرب بمِرفقِه إسرائيل وهو يُشيرُ إليه بذقنِه.

- هذا هو.

أمره إسرائيل بصوتٍ خفيض:

- تراجع إلى الوراء.

خطا الحارس خطوةً إلى الوراء.

مرة أخرى، بدا المناخ يُنذر بالسوء. يمشي ماريا، غير آبهٍ بخطر التبلّل، يُقبل وهو يصفّر بلحنٍ غير مفهوم، شبيهٍ بموسيقى الطيور؛ حاملًا حقيبته ذات الحمّالة التي تحوي ثيابه الخاصّة بالعمل. في اللحظة التي مرّ من أمام الرجلين، قطع عليه إسرائيل الطريق بوقاحة، وانتصب أمامه. سأله: - إلى أين أنت ذاهب؟

- ماذا؟

- كيف ماذا؟ أنا منْ أسألك، أيّها الزنجيُّ اليهوديُّ ابنُ العاهرة.

نظر ماريا إلى الحارس الذي ينكش أسنانه بمفتاحٍ، وعرف من يقف وراء المشكلة. عندها فعل شيئًا غير متوقّع: نزع حقيبته عن كتفِه وأخذ يجري نحو زاوية الشارع، برشاقة كبيرة وسرعة فائقة بحيث لم يلتفت إسرائيل إلا وقد اختفى تمامًا.

سأل إسرائيل الحارس:

- أَرأيتَ؟

- لقد أخبرتُكَ بأنّه سريعٌ...

- يا لَه من جبان، زنجيٌّ يهودي، ابن عاهرة! هؤلاء البوليفيّون كلّهم يتشابهون...

- لا أظنّ أنّه بوليفي، فهو طويل القامة.

- تشيلي.

- ربّما بيروفي...

- البيروفيون أيضًا زنوجٌ يهود، أبناء عاهرة أقزام. أمّا هو، فهو تشيلي. إن لم يكن بوليفيًّا، فهو من تشيلي. حسنًا، سوف أمسك به. سوف أدسّ جزر الفوكلاند في فم هذا الزنجيّ اليهوديّ التشيلي، ابن العاهرة! ورسم الصليبَ وهو يقبّل إبهامه بصخب. وهنا، بدأ يقضم أظافره.

- لم يستطع أن يُصدّق ذلك. ولا الحارس أيضًا. كلاهما مصدومٌ، فلم يسبق لهما أن شاهدا شيئًا كهذا. بطلُ العالم في الجُبن. بين رشاقة ماريا وجبنه، لم يعرف إسرائيل والحارس أيّهما فاجأهما أكثر.

في تلك اللحظة، ظهر ماريا من جديد. رآه إسرائيل أوّلًا، يلفّ زاوية الشارع ويتوجّه نحوهما مصطحبًا روزا.

سأل إسرائيل:

- أهذا هو، أم أنّني أُخطئ الرؤية؟

صرخ الحارس:

- يا لَه من ابن عاهرة، يا لَه من جبان! يا لَها من وقاحة أن يعود... وإضافةً إلى ذلك، مع الفتاة!

- تراجع.

- من الأفضل أن نؤجّل إلى يوم غد، يا إسرائيل... ستشرع الفتاة في الصُّراخ، ستثيرُ فضيحةً، وأنا سأُطرَدُ من العمل...

- أنت، لن يطردَك أحدٌ من العمل. والدي رئيس الرابطة. تراجع، أنا سأتكفّل بأمرِه...

- هل سيغيظُك إن عدتُ إلى الداخل؟

لم يُجب إسرائيل؛ عيناه شاخصتَان على ماريا الذي يبعُد عنه عشرين مترٍ. انتظر الحارس برهةً (يريد أن يبقى، ويرى كيف سيحطّمه)، ولكنّه انتهى إلى اختيار عملِه ودخل إلى العمارة.

وقف إسرائيل في منتصف الرصيف.

أدركت روزا أنّ شيئًا ما حدث واستبدّ بها القلق. لم تقل شيئًا. ولكنّ ماريا أحسّ بأنّها تضغط على ذراعه.

قال لها:

- لا تقلقي. هذا غبيٌّ ليس بوسعِه أن يفعلَ أيَّ شيء. واصلي السيرَ كما لو أنّ شيئًا لم يكن.

قطع إسرائيل الطريقَ عليهما.

غمغمت روزا وهي مدهوشةٌ أكثر من كونها مذعورة: - آه...

توجّه إسرائيل إليها في البداية، وسألها:

- هل أنتِ خادمة آل بليندر؟

هزّت روزا رأسَها موافقةً.

أدار إسرائيل عينيه نحو ماريا ليقول له شيئًا، حينما أحسّ فجأةً بقبضة تدفن أنفه بين عينيه. تراجع ورفع إحدى يديه إلى وجهه، فامتلأت بالدم. قفز ماريا إلى الأمام ونطحه على جبينه وسدّد لكمةً أخرى إلى بطنه. أطلق إسرائيل أنينًا، وخارت ساقاه، وترنّح يمينًا ويسارًا، واستطاع في النهاية أن يمدّ ذراعًا ويستندَ إلى الجدار. واصل ماريا وروزا السير في طريقهما.

- لنغادرْ، يا حبيبي.

سقط إسرائيل على ردفَيه أمام باب العمارة، وبقي أثرُ الدماء مرسومًا بيده على الجدار.

خرج الحارس، الذي رأى كلّ ما جرى، من العمارة، وقد توسّعت عيناه مثل صحنَين، وشرع يصرخ: - شرطة... شرطة!

لكنّ إسرائيل أمسك به من إحدى ساقيه بقليل طاقةٍ تسري في جسده، وقال له محافظًا على ما تبقّى من عزّة نفسٍ: - لا تطلبِ النجدةَ، يا غبيّ، ألا ترى ما أنا فيه؟ ساعدني في الدخول...

أمسك به الحارس من ذراعه، وساعده إلى أن استطاع النهوض والوقوف على قدمَيه، وأدخله إلى العمارة وأغلق الباب خلفهما.

في الأيام التالية، كلّما ذهبت روزا إلى متجر ديسكو، سلكتِ الرصيفَ المقابل، متجنّبةً المرور من أمام العمارة، خشية أن تجدَ نفسَها وجهًا لوجه مع حارس العمارة وإسرائيل. لم ترَ مرّة أخرى هذا الأخير، ولكنّها صادفت مرّاتٍ عديدةً حارس العمارة وهو يلاحقها بعينيه، ويظهر عليه كما لو أنّه يقول لها «سأمسك بكِ». تحدّثت عن ذلك مع ماريا، فقال لها: - لا تبالي بالأمر، إنّه يقول ذلك لي وليس لكِ أنتِ.

كلّما ذهبت إلى المتجر أو عادت منه، مرَّت في زيارة قصيرة إلى الورشة لتقابل برهةً ماريا؛ فكان حينذاك يتباطأ إيقاع صخب الآلات وضربات الهراوة، واحتكاك مسجّات الطين على السطول، كما لو أنّ شريطًا سينمائيًّا لأحداث الواقع يدورُ في مكانه. لم تكن روزا جميلة، ولكنّها تشعُّ ألقًا، وذلك نورُ فيضِ نيّاتها الحسنة، نورٌ يُبرز صفاتها الجسدية. حبُّها ماريا جليٌّ الوضوح إلى درجة أنّ الآلات والهراوات والمسجّات، حينما تغادر الورشة، تستعيد إيقاعها الطبيعي، بل وتبالغ في سرعتِها، إلى حدّ الثوران. يغدو الصخب في لحظةٍ يصمُّ الآذان.

نحو نهاية فصل الشتاء، ذهب السيّد والسيّدة بليندر في عطلةٍ إلى كوستاريكا. ظلّت روزا وحدها في المنزل. دلّت مغادرة الزوجين بليندر على النهاية (المؤقّتة) لتأثير العجز المالي على الجنس، إذ ما إن غادرا، حتى أدخلت روزا ماريا إلى المطبخ لممارسة الجنس. باتا الآن يمارسان الجنس كلَّ يوم، وليس فقط في أيام السبت. بل يمارسان الجنس مرّتين في اليوم، صباحًا ومساءً. كما أنّ روزا تحضّر له وجبةً يأتي ماريا لأخذها باكرًا، وجبةَ شرائحِ لحمٍ عجلٍ وبطاطا مقلية، مع صلصة الكريمة أو محمّصة في الفرن، ويتناولان كثيرًا منها. في المساء، تنتظره روزا مع الوجبة المعتادة وقارورةٍ من النبيذ. يتناولان الطعام معًا، ويغادر ماريا المنزل بعد هبوط الليل. وعلى تأكيد الزوجين، أكثر من مرّة، لروزا - وهي تعلم ذلك- ألّا يدخل البيتَ غريبٌ، إلّا أنّها مغرمة بماريا كثيرًا حتّى إنّها تعدُّ السماحَ له بالدخول إلى المطبخ انتهاكًا ليس بذي بال. على أيّ حال، اتَّخذتِ الاحتياطات اللازمة: لقد نظّمت عملية تمويه حقيقية

عن الجيران؛ يحدث لها أن تثرثر وقتًا طويلًا مع ماريا من خلف شبك باب الخدمة قبل أن تمرّره إلى الداخل عندما تتأكّد من أنّ لا أحد قد رآهما؛ وأحيانًا، تذهب لتجلبَه وفي يده مِجرفةٌ كما لو أنّ ماريا بستانيٌّ...

ما إن يصبحا في الداخل، حتّى يتناولا الطعام، ويمارسا الجنس (دائمًا في المطبخ) ويُشاهدا التلفاز على جهازٍ صغير، تُنزله روزا من غرفتها وتضعه على طاولة التحضير في المطبخ.

حينما دخل ماريا أوّل مرّة إلى المنزل، فوجئ بأبعاده ومساحاته الشاسعة. سأل روزا: - كلّ هذا مطبخ فقط؟ إنّه أكبر من بيتي!

في المرّة الثانية التي دخل فيها إلى المنزل، أراد أن يدسّ أنّفَه أكثرَ في أقسام البيت، لكنّ روزا منعته من ذلك بتوسّل شديد «لا تجعلني أتعرّض للمخاطر» وهو لم يصرّ من جهته. صبر ثلاثة أيامٍ أو أربعة، وبعد ذلك، وافقت روزا على أن تصحبَه إلى غرفة نومها.

سار في إثرها عبر ممرٍّ غارقٍ في الظلام يصلُ إلى غرفة نومٍ صغيرةٍ، سيّئةِ التهوية، فيها سريرٌ غيرُ مرتّبٍ، مع مصباح عارٍ على طاولة السرير. ذُهِل ماريا. لم يستطع أن يصدّق أنّ في هذا المنزل مكانًا على هذه الدرجة من الضيق والعتمة. بينما يمارسان الجنس، شرحت له روزا، وهي تحاول الانتقال إلى موضوعٍ آخرَ بأسرع ما يمكن، بأنّ هذا هو جناحُ الخدمة، حتّى إنّها لم تكن قد رأته كاملًا؛ وما تبقّى من المنزل كان مختلفًا أشدَّ الاختلاف. ثمّ طلبت منه أن ينتظرها قليلًا، وذهبت إلى المراحيض. عادت بعد دقيقة، ولكنّ ماريا لم يكن في الغرفة. خرجت روزا إلى الممرّ ونادته بصوتٍ خفيض، كما لو أنّها خشيت أن يسمعها السيّد والسيّدة بليندر.

ذهبت إلى نهاية الممرّ، ثمّ عادت على أعقابها، وهرولت نحو المطبخ. لم تعثر على ماريا فيه أيضًا. أخذت روزا تشعر بالخوف؛ فقد كانت مضطربة وغاضبة، كما لو أن ما حدث سيستمرّ إلى الأبد. بدا وكأنّها تركض من طرفٍ إلى آخرَ بحثًا عنه بيأسٍ، حتّى وصلت إلى الممرّ المؤدّي إلى غرفة الضيوف - قاعة فسيحة، كلّ نوافذها مغلقة- وسمعت أخيرًا ماريا يُناديها. أجل، هو منْ يُناديها.

- روزا...

- أجل، هذه أنا. أين أنت؟

سأل ماريا وهو يُغمغم في مكانٍ ما:

- روزا؟

- أنا هنا، يا ماريا! اخرج، من فضلك، كفَّ عن اللعب...!

- أين أنتِ، يا روزا؟

- هنا، وأنت؟

سمعت روزا الضجيجَ المنبعثَ من شيءٍ سقطَ وتكسَّرَ.

- أين أنت يا ماريا؟

- لا أعرف يا روزا، أنا ضائع... أنا أسمعُكِ ولكنّني لا أراكِ...

وجدَتْه في المكتبة. أشعلَت روزا الضوءَ. وجدت ماريا ساكنًا بلا حراكٍ بجانب المكتبة، وقد وضع إحدى يدَيه على مسند مقعدِ السيّد بليندر المفضّل. اصطدم وسط العتمة بحاملة مصباح، التي سقطت فتحطّمَ المصباح وغطاؤه على الأرض. امتلأ السجّادُ بشظايا الزجاج، كما لو أنّ المصباحَ قد تكاثرَ عددًا عند تهشّمه. حدّقت فيه روزا بحدّة. ثمّ، ولأنّها لم تشأ أن تتركَه مرّة أخرى وحده، أثناء ذهابها لتجلبَ من المطبخ مِجرفةً ومِكنسة، أخذت من فوق المكتبة دليلَ أحد المعارض الفنّية واستخدمَته في تكنيس شظايا الزجاج وجمعها.

قال لها ماريا:

- ذهبتُ لإلقاء نظرةٍ فتعقّدَت كلُّ الأمور... نزلتُ الدرجَ، ومررتُ من هنا... هذا المنزل متاهة.

- قلتُ لك أن تبقى في الغرفة.

قال ماريا، وهو يرفع المصباحُ عن الأرض:

- لا تغضبي...

- لستُ غاضبةً. ولكن لو أنّ أحدًا قد رآك...

- مَنْ سيراني طالما لا يوجدُ أحدٌ هنا؟

لم تضف روزا شيئًا. نهضَت، وسارت نحو المطبخ لترميَ هناك شظايا الزجاج في حاوية النفايات، ومشي ماريا في إثرها عن قرب. يا لَلخسارة! لقد تأخّر بهما الوقت - إذ أهدرا وقتهما- وأصبحت روزا في مزاجٍ سيِّئ! ستوبّخها السيّدة بليندر على تكسير غطاء المصباح، بل ربّما ستخصمُ قيمتَه من راتبها. انهمك ماريا في تقديم سلسلةٍ من الاعتذارات، ومدَّ في كلّ مرّةٍ يدَه نحو خدّ روزا، ولكنّها ردّت عنها يده دائمًا كما لو أنّها ذبَّت عن وجهها ذبابةً. خلُص ماريا إلى أن يأخذ قطعة من غطاء المصباح المكسور من الحاوية، وهو يقول لها بأنّه سيشتري في صباح اليوم التالي القطعة نفسها. فرقعت روزا بلسانها وفتحت باب المطبخ لترافقه إلى الرصيف. أوقف ماريا الباب بإحدى قدمَيه،

وتركَته روزا يقبّلها. ثمّ ذهبت حتّى الباب المؤدّي إلى الشارع، فنظرت حولها من كلّ الجهات، وحينما تأكّدت من أنّ لا أحد في تلك الأنحاء، أشارت لماريا بأن يخرج. قبّلها من جديد على الباب المؤدّي إلى الشارع.

قال لها:

- سأمرّ عليكِ غدًا... ومرّة أخرى، أعتذر منكِ. تشاو، حبيبتي.

في اليوم التالي حيَّاها أول ما وقعت عينه عليها قائلًا «طاب نهارُكِ، يا حبيبتي». الطقس اليوم شديد البرودة؛ فحينما احتضنته روزا، أحسّ بحرارة يدَيها الدافئتين عبر كنزته الصوفية. لم يكن معه غطاء المصباح.

قالت روزا:

- لقد سمعت من فوريّ في المذياع أنّ إعصارًا قويًّا قد ضرب كوستاريكا، ولكنّني لم أعرف تمامًا إن تحدّثوا عن كوستاريكا أم بورتوريكو...

- هناك الكثير من الأعاصير في الولايات المتّحدة الأمريكيّة...

- لم يتحدّثوا عن الولايات المتّحدة الأمريكيّة، تحدّثوا عن كوستاريكا أو بورتوريكو، لم أعد أعرف. بدا أنّ أسقفَ المنازلِ تتطايرُ في الهواء، قالوا إنّ القوارب والمراكب تتطاير في كلّ الجهات مثل البطّ...

- ماذا لو سقط واحد من تلك القوارب على رأسكِ؟

- لا أجرؤ على تصوّر ذلك... يا لَه من بردٍ قارس!

- رهيبٌ. أمّا أنا، فلا أحسّ به حتّى مجرّد إحساس.

قالت روزا وهي تقدّم له الطبق اليوميّ:

- أعددتُ لكَ هذا. فخذا دجاجٍ وبطاطا بالكريمة...

- شكرًا، حبيبتي. حسنًا، سأنصرف، لقد تجاوزت الساعة الثامنة...

- هل وصلت بسلام، البارحة مساءً؟

- نعم، وأنتِ؟

- أنا نمتُ في الحال.

- أَلَم تشاهدي التلفاز؟

- بلى، ولكن لم يكن هناك أيُّ شيء يستحقّ المشاهدة، فأطفأته، وما كدتُ أن أضعَ رأسي على المخدّة، حتى غططتُ في النوم. لقد أضفتُ القليل من التوابلِ إلى البطاطا...

- لقد أحسنتِ إعدادَها بطريقة ممتازة...

- حسنًا، انصرف الآنَ، لكيلا تصلَ متأخّرًا.

- أراكِ لاحقًا.

قبّلها ماريا، وغمزها، ومن ثمّ توجّه نحو ورشة البناء حيث يبدأ عمله.

إلى تلك اللحظة، مضى النهار بصورة طبيعية. بدأت المشكلات ما إن وصل ماريا إلى الورشة. صادف هناك إسرائيل والحارسَ اللذين جاءا للتحدّث مع رئيس العمال. مرّا من أمامه من دون النظر إليه، وغادرا المكان مسرعَين الخُطَى.

ناداه رئيس العمال:

- ماريا، تعال إلى هنا، أودّ أن أحدّثَك في أمرٍ!

ابتعد رئيس العمال عن الآخرين، ليتحدّث مع ماريا وحده. اتّكأ على قَدَم، وأسند أحد ردفَيه على حافّة إحدى السقّالات. وقف ماريا بجانبه، لكنّ رئيس العمال أخذ وقته لكي يُخرج علبة سجائره من جيب قميصه، فأخرج منها سيجارةً ووضعها بين شفتَيه، ومن ثمّ نبش في جيوب سرواله وسترته بحثًا عن ولّاعة، وانتهى إلى القول: - هل لديك ولّاعة؟

- أنا لا أدخّن.

فصرخ رئيس العمال:

- ريتشياردي!

جاء ريتشياردي وهو يحمل على ظهرِه كيسًا من الإسمنت.

- أعطِني ولّاعة.

اقترب ريتشياردي منه، وكيس الإسمنت لا يزال على ظهره، وأفهمه بالإشارة بأنّ ولّاعته موجودة في جيب سرواله الجانبي؛ فالكيسُ الذي يحمله على ظهره ثقيلًا جدًّا حتّى إنّه لم يستطع أن يفتح فمه.

نبش رئيس العمال جيبَه بشيءٍ من الضيق ولكنّه لم يعثر على ما كان يبحث عنه، ولذلك استدار ريتشياردي لكي يقدّم له جيب الطرف الآخر. أعاد رئيس العمال العملية نفسها من دون أن يعثر على ولّاعة.

قال بامتعاضٍ:

- هل تحبّ أن يضع الناس أيديهم في جيوبك، إذن؟

أفرج ريتشياردي، وهو يكزّ على فكّيه، عن ابتسامةٍ، ووقف أمام رئيس العمال وجهًا لوجه ليجرّبَ حظّه في جيوبه الأمامية. وانتهى به المطاف بالعثور على علبة صغيرة.

قال:

- آه، إنّها هنا!

ولكن قبل أن يضع يده في جيب ريتشياردي، نظر إليه. نظر كلاهما بعضهما إلى بعض في صمت لأكثرَ من نصف ثانية كاملة، لأنّ الأمر يتعلّق بمنطقة حسّاسة من جسم ريتشياردي. ومن ثمّ، انتهى رئيس العمال بأن دسّ بعناية أطراف أصابعه وأخرج بها علبة صغيرة للواقيات الذكرية والتي دفعها في الحال إلى داخل الجيب.

- تبًّا لك أيّها اللّعين. هل معك ولّاعة أم لا؟

قام ريتشياردي بإيماءة غريبة، إيماءة كانت لتعني هزّ الكتفَين، لولا كيس الإسمنت الذي يثقل كاهله. أمره رئيس العمال بالانصراف، الأمر الذي فعله مباشرةً، سالكًا دربه وهو يزداد انحناءً تحت ثقل كيس الإسمنت. وجد رئيس العمال نفسَه من جديد وحيدًا مع ماريا.

قال له:

- جاء رجلان لمقابلتي هنا، وقالا إنّك تثيرُ الفوضى في الحيّ...

نظر ماريا إليه من دون أن يقول شيئًا.

أضاف رئيس العمال:

- قالا إنّك قد نعتَّ أحدَهما بالغبيّ، وأنّك لكمتَ الآخرَ في وجهه. هل كلّ هذا صحيحٌ، يا ماريا؟

فأجاب ماريا بهدوء:

- نعم، هذا صحيح.

- وتُخبرني بذلك بهذه الطريقة؟

- وكيف تُريدني أن أخبرَك بذلك؟

- لا أدري، عليك أنتَ أن تجدَ طريقةً مناسبة.

- نعم. أقول لك نعم، إنّ هذا صحيح. أحدهما أحمقُ، والآخر، لكمتُه في وجهه.

- ولماذا تحرّشت بهما؟

- أنا؟ أنا لم أتحرّش بأحدٍ. وإنّما هما من جاءا بحثًا عنّي.

ردّ رئيس العمال، بسخريةٍ وتهكّم:

- وهل عثرا عليك؟

- نعم.

نظر إليه رئيس العمال وهو يعضّ على عقب سيجارته المطفأة.

- كفّ عن إزعاجي، يا ماريا. هل ستقول إنني أنا أيضًا جئتُ أبحث عنك؟ لأنني لم أبحث عنك، ويومذاك، كدتُ مع ذلك أن أتعارك... معك أنت، يا قطعة من القذارة. لذا لا تتحدّث بهذا الهراء لي أنا...

- بماذا ناديتني؟

- ماذا تقصد، بماذا ناديتني؟

- ماذا قلتَ الآنَ؟

- متى؟

- الآن.

- ماذا قلتُ لك؟

- أنا منْ أسألك ذلك. لماذا لا تردّد لي ذلك؟

- وماذا قلتُ لك، إذن؟

- قلها.

- لا ترفع الكلفة معي، أخبرني بما قلتُه لك، ولكن لا ترفع الكلفة. اتّفقنا؟

- هل قلت لي «قطعةً من القذارة»؟

- لا أتذكّر. ربّما قلتُ ذلك. لا أتذكّر ذلك، ولكن أيضًا من الممكن أنّني قلتُ ذلك. من تظنّ نفسَك، بحقّ الجحيم، حتى تهينَ الناس! من تظنّ نفسَك؟ كيف تظنّ أنّني سأتصرّف، أنا رئيس العمّال هنا، حينما يأتيني الجيرانُ ليخبروني بأنّك تثيرُ الفوضى وتسبّب المشكلات في الحيّ؟ وهل تريد أن أقول لك المزيد؟ نعم، لقد نعتك بـ «قطعة من القذارة». لماذا، هل لديك مشكلة مع ذلك؟

- كلّا...

- آه، إذن، ليست هناك مشكلة؟

- كلّا.

- آه، هل أنت شاذّ جنسيًّا؟

- نعم.

- انظر لنفسك!

- لماذا، هل تريد أن تمارس الجنس معي؟

- قلتُ لك لا ترفع الكلفة معي. فضلًا عن ذلك، أنت وصلت إلى الورشة متأخّرًا، فالساعة تشيرُ إلى الثامنة وعشر دقائق. أنت مطرودٌ من العمل. لأنّك تثير الفوضى والمشكلات في الحيّ، ولأنك وصلتَ متأخّرًا، ولأنّك ترفع الكلفة في الحديث معي، ولأنّك لوطيّ. لملِم أغراضَك وانصرف في الحال.

التقط ماريا أغراضَه وانصرف.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

3

في ذلك اليوم، وصل متأخّرًا نصف ساعة عمّا هو معتاد. مرّرته روزا إلى المطبخ وقد أعدَّت شرائح لحم العجل المعتادة ووضعها على الطاولة بعد ما أخرجتها للتوّ من الفرن. هناك طبقٌ من الشرائح وجبلٌ من البطاطا المقلية على منديلٍ ورقيّ وقارورة من النبيذ الأبيض. علّق ماريا حقيبتَه على مسند الكرسي وجلس إلى المائدة.

قالت روزا، وهي تضعُ شريحةً في صحنه: - لقد أعددتُها في الفرن. هذه أوّل مرّة أعدّها بهذه الطريقة لي؛ لأنّ سيّدة المنزل تطلب منّي على الدوام أن أعدّها لها في الفرن. لم أعدّها قطّ بهذه الطريقة لنفسي. أخبرني كيف وجدتها! كيف مضى نهارك؟

أجاب ماريا:

- بصورة جيّدة.

قطع قطعة من اللحم ورفعها إلى فمه.

قال وهو يمضغها:

- إنّها لذيذة... ألا تشغّلين التلفاز؟

- آه، نعم، أوه، لقد نسيتُ! كم الساعة؟ في الساعة السابعة، في برنامج شيش غيلبلونغ، سيشارك هذا القزم البالغ ثلاثين سنتيمترًا. هل تعرف من أعنيه؟

- كلا.

شغّلت روزا التلفاز وبحثت عن القناة التاسعة بوساطة جهاز التحكّم.

- لقد شاهدته قبل أيام في برنامج صباح الخير سوزانا وبدا أنّهم سيستضيفونه اليوم. لا أريد أن أفوّته. يبلغ طولُه ثلاثين سنتيمترًا، هذا يعني... ها هو! حسنًا، حسنًا، هذا، هذا شيش... لنرَ إن كان سيقول شيئًا.

جلست روزا قُبالة ماريا وأكلت نصف شريحتِها من دون أن تتفوّهَ بكلمة واحدة، ومن دون أن ترفعَ عينيها عن الشاشة. فرك شيش غيلبلونغ يدَيه وطلب من مشاهديه بألّا يتحرّكوا من أماكنهم، لأنّهم سيشاهدون قريبًا أقصرَ رجلٍ في العالم. ومن ثمّ تمّ بثُّ فاصلٍ إعلانيّ. سكبت روزا بطاطا مقلية في صحن ماريا، ومن ثمّ سكبت في صحنها.

قالت:

- المسكين... لا بدّ أنّك قد رأيته... لم يكن يصل حتّى إلى ركبتَي سوزانا... ما بك؟

- لا شيء. لماذا؟

- أنت صامت...

- وصلتُ حالًا.

- أجل، أعرف أنّك وصلتَ من فورك، ولكن يمكنك أن تقول شيئًا، أليس كذلك؟

- كلّ شيء على ما يُرام.

سكب ماريا لنفسه كأسًا من النبيذ وشربه دفعةً واحدة، ثمّ ملأ كأسَه من جديد، وكذلك ملأ كأس روزا. شعر بعطشٍ شديد. بينما شرب كأسه الثانية وهمّ بسكب الثالثة، لاحظ بأنّه منذ أكثر من يومين لم يشرب قطرةَ سائلٍ واحدة.

سأل:

- هل لديكِ صودا؟

ردّت روزا بالإيجاب، ونهضت من مكانها، وذهبت نحو الثلّاجة، وأخرجت منها قارورة صودا ووضعتها على الطاولة. شرب ماريا منها كأسَين مليئتَين حدّ الطفح، كانت الأولى ممزوجة بآثار النبيذ.

قالت له روزا:

- لقد بلغ بك العطش مبلغه!

- أرأيتِ؟ لا بدّ أنّ هذا أثرُ الغبار الذي ابتلعته طيلة النهار في الورشة... وإضافة إلى ذلك، اكتشفتُ من فوري بأنّني لم أشرب شيئًا منذ قرابة يومين.

- لم تشرب أيّ شيء؟

- هذا يحدث لي أيضًا إذ كنتُ طفلًا؛ أستطيع أن أقضيَ يومين، أو ثلاثة أيام، وحتّى أربعة أيام من دون أن أشربَ أيَّ شيء، وفجأةً، لا أدري كيف، أستدرك الأمر. فأشرب حتّى عصير البرتقال حيث أضغط بيدي برتقالة... أليّنها... أفتح ثقبًا فيها وأشرب عصيرها... على أنّ كثيرًا من الصبيان في قريتي يفعلون الشيء نفسه... لم يكن هناك سوى حانوتٍ واحد، غير قريبٍ، وإضافةً إلى ذلك، لم يكن أحدٌ من القرية يملك فلسًا واحدًا. كنّا نعدّ لأنفسنا عصير الليمون! حسنٌ، ها قد قلتُ شيئًا، أترين؟

- في أيّ قريةٍ ولدتَ؟

- في قرية غوبيرنادور كاسترو.

- لا أعرفها...

- كيف ستعرفينها، إنّها قريةٌ قذرةٌ! إلى جوار رامالو. رامالو، هل سمعتِ بهذا الاسم من قبلُ؟

- كلا...

- رامالو أيضًا قريةٌ قذرةٌ. لا أعرفُ كيف أحدّد لكِ موقعَها... على بعد مئة كيلومترٍ من روزاريو. حسنًا، إنّها أقربُ إلى سان بيدرو. سان بيدرو، لا بدّ أنّكِ تعرفينها...

- هل نمرّ بقرية روزاريو؟

- كلّا، قبلها. من هذا الجانب. قبل الوصول إلى رامالو، قبل حوالي خمسين كيلومترًا. على طريق روزاريو، على بعد مئة وخمسين كيلومترًا من هنا. قرية غوبيرنادور كاسترو تقع على بعد مئة وسبعين كيلومترًا.

غمغمت روزا وهي تحاولُ فكَّ طلاسم المعلومة: - آه...

أكّد ماريا:

- نعم.

- كنتُ أظنّ أنّكَ قد ولدتَ في كابيلا...

- كلّا، لقد أقمتُ هناك في فترة صباي، ولكن كلّا، لم أُولَد فيها. ولدتُ في كاسترو. اللعنة، كم تؤلمني هذه اليد...

- ما الذي جرى لك، هل اصطدمتَ بشيءٍ ما؟

- نعم، لقد لويتُها.

- هل اصطدمتَ أم لويتَها؟

- لقد اصطدمتُ.

- وكيف لويتَها؟

- لا أدري، لا بدّ أنّها اصطدمت بمكانٍ ما وأنا أرفع شيئًا عن الأرض. في هذه اللحظة، لا أعرف شيئًا عن ذلك، ولكن الآن، حتّى شعري يؤلمني.

- خذ قطعة أخرى من الشرائح. هل تُريد أن أقطّعها لك؟

- لا، دعكِ عن ذلك، أستطيع أن أقطّعها بنفسي.

- يُخجلني أن أقول لكَ ذلك، ولكن... هذه الليلة، حلمتُ بكَ. كنتَ على حصانٍ أبيضَ، وفي يدِكَ سيفٌ...

- أنتِ حلمتِ بالمحرّر سان مارتين...

- كلا، أتحدّث جدّيًا. كنتَ عاريًا.

- عاريًا تمامًا.

- نعم، كنتَ عاريًا تمامًا.

- عاريًا تمامًا، أقصد، كنتُ راكبًا عاريًا تمامًا.

قالت وقد احمرّت خجلًا:

- آه نعم! اعذرني! انظر ما الذي جعلتني أقوله... كنتَ عاريًا على ظهر الحصان، وفي يدكَ سيف. والسيف وأنت... حسنٌ، نعم... وكان... عضوك، ورقبة الحصان، كلّ شيء كان مليئًا بالأعصاب، بالأوردة... أقسم لك إنني استيقظتُ من النوم.

- هل تحلمين دائمًا أحلامًا جنسية؟

- لا. في الليلة السابقة، حلمتُ أنّني كنتُ أتملّى بالنظر إلى واجهات المحلّات. كنتُ أتملّى بها مثل مجنونةٍ. كنتُ أدخل إلى متجرٍ، وأشتري أكداسًا من الثياب، وبعد ذلك، كنتُ أذهب إلى مزيّن الشعر وأصبغ خُصلاتٍ من شعري.

خيّم صمتٌ. نظرت إليه روزا.

- جِدّيًا، ألا يوجد أيُّ شيء؟

أفرج ماريا عن حركة سلبية برأسه، فلم تلحّ روزا عليه. ثرثرا وهما ينظران بطرف عينيهما إلى برنامج شيش غيلبلونغ، ليريا إن كان القزم قد ظهر. لكنّ مقدّم البرنامج ابتهج مع مسوخٍ آخرين من دون أن يظهر أبدًا الرجل القزم، مع أنّه أعلن عن قدومه قبل كلّ فاصلٍ إعلاني.

قبل الفاصل الإعلاني الأخير، بدأ غيلبلونغ بتقديم الاعتذار للمشاهدين لأنّ الوقت قد لعب دورًا سيّئًا معه، ووعد بأن يُقدّم، في اليوم التالي، برنامجًا خاصًّا، مكرّسًا وقته كلّه لأقصر الرجال قامةً في العالم. لكنّ روزا أطفأت التلفاز، غاضبةً وحانقة، قبل أن يُنهي غيلبلونغ كلامه، وذهبت وجلست على ركبتَي ماريا. ومرّرت ذراعيها حول رقبته.

قالت له:

- هل تعرف ما أكثر شيء أحبّه فيك؟

أفرج ماريا عن حركة سلبية برأسه.

- هو أنّك غامض. صموتٌ جدًّا... تبدو دائمًا أنّك تحتفظ بشيءٍ ما لنفسكَ وحدك...

وقرّبت شفتَيها من شفتَيه، ولكنّها توقّفت على بعدِ سنتيمترٍ واحدٍ قبل أن تقبّله وتجمّدت في مكانها، كما لو أنّها شُلّت، مفتوحة العينين، وقد استدارت حدقتاها نحو الشارع.

سألها ماريا:

- ماذا حدث؟

أسكتته روزا بفرقعةٍ سريعة من لسانها.

قفزت من على ركبتيه، وأسرعت نحو النافذة.

- يا إلهي!

- ماذا هناك؟

- صاحبا المنزل، وصل صاحبا المنزل! إنّهما يفتحان الباب! يا لَلهول! ماذا أفعل؟ إذا ما رأياك هنا، سيقتلانني!

راح ماريا ينظر من النافذة. كانت روزا على صواب: هناك رجلٌ ينحني على القفل، محاولًا إدخال المفتاح فيه. وإلى جانبه، أخذت امرأة ترنّ الجرس.

- اسمعيني، اهدئي، أنا أعرف ما ينبغي فعلُه. روزا، اسمعيني، واهدئي قليلًا... تنفّسي بعمق... أنا سأختبئُ هنا، خلف طاولة التحضير في المطبخ، وأنتِ سوف تفتحين لهما الباب، سآخذ المفاتيح، وأخرج من هنا، ومن ثمّ، سأرميها لكِ من فوق السور. هذا أمرٌ سهلٌ جدًّا. تنفّسي بعمق، عليكِ أن تمثّلي المسرحية الهزلية بإتقان. إذا ما رأياكِ مرتبكة، سيعصرانكِ مثل حبّة ليمون، بل وسيجعلانكِ تعترفين حتّى بالحُلم الذي رويتِه لي قبل قليل. تنفّسي. نعم هكذا... ممتاز... الآن، أنا سأختبئ، وأنتِ ستفتحين الباب...

صرخت روزا:

- الصحون!

- أنا سأتكفّل بها، أمّا أنتِ، اذهبي وافتحي لهما الباب. هل هما من النوع الذي يذهب إلى المطبخ، حينما يعودان إلى البيت؟

- لا يدخلان أبدًا من هنا، لا أدري ما الذي حدث!

- لا بدّ أنّهما قد أضاعا مفاتيح باب المدخل الرئيس.

- ربّما... يا إلهي، من المفترض أن يعودا في الأسبوع المقبل...!

- أرأيتِ؟ الإعصار الذي تحدّثتِ عنه، حدث هنا...

تردَّد رنينُ الجرس بطريقة أكثرَ إلحاحًا. دفع ماريا روزا نحو الباب. ثمّ أخذ صحنَه ووضعَه في حوض المجلى، واختبأ خلف طاولة التحضير. عادت روزا مع السيّد والسيّدة بليندر، وهي تحمل حقائبهما. سألتها السيّدة بليندر عن سبب تأخّرها في الاستجابة لرنين الجرس والمجيء لفتح الباب. أجابتها روزا بأنّها كانت في غرفتها ترتّبُها. دفع السيّد بليندر باب المطبخ واختفى في المنزل، صامتًا ومنزعجًا.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

4

أحد أوائل الأشياء الذي لفت انتباهه صوتُ ضجيج الشارع الذي يدخل بصفاءٍ ووضوح إلى المنزل؛ ففي بعض ساعات الليل، يستطيع أن يسمع حتّى صوت خربشة براثن أحدِ الكلاب وهو يحكُّ الرصيف. وكلّما اكتشف داخل المنزل أكثر، تفاجأ وازداد دهشةً لأنّه أصغر مساحةً ممّا ظن حينما رآه من الخارج. وذلك ليس لأنّه عامرٌ بالأثاث، وإنّما، لأنّه يستطيع، وهو يراه من الخارج، أن يشملَه بنظرةٍ واحدة، الأمر الذي لم يستطعه من الداخل.

لجأ إلى الطابق الأعلى واختبأ، في العلية، حيث شعر فيه بأنّه خفي. في الليلة الأولى، لم ينم. في الليلة الثانية، خشيةً من أن يدخل أحدٌ ما إلى الغرفة، نام تحت السرير. المفتاح في القفل، ولكنه احتاج إلى أكثر من يومٍ ليقرّر بأنّه يستطيع إغلاق الباب ونزع المفتاح من القفل: لو أنّ أحدًا، لهذا السبب أو ذاك، صعد إلى الغرفة واكتشف أنّ الباب مقفلٌ، لاعتقد بكلّ تأكيد أنّ شخصًا من المنزل قد أقفله؛ وحينئذٍ سيتمّ البحث عن المفتاح، ولن يتمّ العثور عليه، فيتمّ استدعاء صانع أقفال، ولكن من الممكن –أيضًا- أن يتمَّ التخلّي عن فكرة الدخول إليها. فما الذي يمكن البحث عنه في هذه الغرفة؟ ليس فيها أيّ شيء سوى سريرٍ وحشيّة وخزانة ثيابٍ فارغة.

أثناء لياليه الأولى في المنزل، اتّخذ، فوق كلّ شيء، إجراءاتٍ أقلَّ احتراسًا ممّا اتّخذته روزا حينما بدأت العمل فيه. فعلى أنّ روزا تلقّت انطلاقًا من كرّاس التعليمات المتعلّقة بالواجبات والممنوعات، التي سهّلت، بطريقة ما، خدمتَها واستخدامَها وقتَ الفارغ، إلّا أنّها أحسّت آنذاك بأنّها ضائعة، وصغيرة جدًّا ومرعوبة. ولكنّها بعد أن عرفت مكانَ ملمّع الأرضيّات أو طاولة مكواة الثياب، وفي أيّ درجٍ من الخزانة توجد ملابس السيّد الداخلية وقمصان السيّدة، أحسّت بأنّها أكثر راحةً وتأقلمًا مع سير العمل في المنزل. مرّت سنتان على عملها في المنزل، وأثناء كلّ هذه المدّة، لم تفعل أيَّ شيءٍ يستحقّ الاستهجان. بعد بضعة أيامٍ من العودة غير المتوقّعة للزوجين بليندر، بدأ طبعُها يتغيّرُ في الحال: أصبحت مقلّةً في الكلام، شاردةً وساهيةً، تلمعُ عيناها على الدوام، وعلى وشْك أن تذرفَ الدموع، وتفركَ يدَيها. لم تعد تتلقّى أيَّ أخبارٍ عن ماريا.

بدءًا من يوم الثلاثاء، مرّت ثلاثة أيام من دون أن تعرفَ عنه أيّ شيء. في يوم الأربعاء، انتظرته، ومعها شطيرة محشوَّة بشرائح لحم العجل، ومغلّفة بالورق: عَزَمَت أن تُعطيَه الشطيرةَ على الرصيف ليأكلَها في الحافلة؛ الآنَ وقد عاد الزوجان بليندر، فلن تقابلَه إلّا على الباب المطلّ على الشارع. ولكنَّ ماريا لم يظهر. خمّنت روزا أنَّ أعصابَه ربّما لا تزالُ متوتّرةً بعضَ الشيء

بسبب عودة الزوجين بليندر اللّذين كادا أن يباغتاه ويضبطاه في المنزل، ولذلكقرّر أن يتركَ بضعة أيام تمرُّ قبل أن يأتيَ لرؤيتها. لم يظهر في الخميس أيضًا. بدأت روزا تشعرُ بالقلق بشأنه. لم يعد تفسيرُها، بأنّه ربّما قد قرّر التغيّب بضعة أيامقبل أن يأتيَ لرؤيتها، يُقنعُها.

في يوم الجمعة، لدى عودتها من متجر ديسكو، مرّت على الورشة. أخبرها أحدهم بأنّه ليس موجودًا، وبأنّه لم يأتِ إلى الورشة منذ بضعة أيام. لاحظت أنّ الأجواء كئيبةٌ، ولكن من دون أن تعرف سبب ذلك.

غادرتِ المكان حينما جاء عاملُ بناء يحملُ في يده سطلًا مليئًا بالرمل، وأخبرها بأنّ ماريا قد طُرِد من العمل.

- متى؟ وكيف؟

- يوم الثلاثاء.

- لم أكن أعلم...! كيف حدث ذلك؟ قلتَ بأنّه قد طُرِد من العمل؟

- أجل، هذا صحيح، لقد طُرِد من العمل.

- لم يُخبرني بذلك...

غمغم عامل البناء وهو يبتعد بسطله:

- اعذريني. أجاب العامل وتابع طريقه إذ لمح رئيس العمّال الجديد خارجًا من حمّام خشبيٍّ ليدخّنَ سيجارةً، وهو ينظر إليه بحدّة عبر الدخان مثل حيوانٍ مفترس.

جاءت الشرطة لمقابلتها في فترةٍ ما بعد الظهيرة. جاء شرطيان أحدُهما طويلُ القامة، بشارب أسودَ وكتٍّ مثل فرشاة صغيرة، والآخر شابٌّ، شعرُه طويلٌ. يرتديانِ الزيَّ المدنيَّ. استقبلتهما على باب المنزل الرئيس. طرح عليها الشرطيانِ مليونَ سؤالٍ حول ماريا. أرادا أن يعرفا أين يسكن، وما رقم هاتفه، وإن جاء للقائها في يوم الثلاثاء... إلخ. لم تعرف روزا عنوانَه. أخبرتهما بأنّه يقيمُ في كابيلا ديل سنيور ولا هاتف لدَيه. نعم، لقد قابلته يوم الثلاثاء. تُرى هل حدث له مكروه؟

قال لها الشرطيُّ ذو الشاربِ الكثّ:

- يبدو أنّ الأرض قد انشقّت وابتلعته.

شعرت روزا بالحزن. كانت سعيدةً بأنّ مالكي البيت لم يكونا في المنزل، فعلى أنّهما يقدّران رجال الشرطة، إلّا أنّهما يكرهان رؤيتهم في أطراف المنزل. قبل بضع سنواتٍ خلت، قتلت الشرطة لصًّا أمام المنزل، ثمّ أحاطت

الرصيف بشريطٍ حاجزٍ، وظلّت في المكان ساعة أو أكثر، إلى أن قرّرت أن تسحب الجثّة؛ وبين الحين والآخر، يرن أحد رجال الشرطة جرس المنزل ليطلب قارورة ماء... وجدتِ السيّدة بليندر هذا الطلب مخزيًا؛ لأنّ هناك وسط مجموعة البيوت العشراتِ من الأماكن الأكثر ملائمة، والأكثر سهولة في الوصول إليها لإشباع حاجة أساسية مثل العطش. حتى بعد مرور عدّة سنوات على تلك الحادثة، ظلّت السيّدة بليندر تلمّح من وقت إلى آخر إلى حكاية قارورة الماء هذه. بالتأكيد لم تكن السيّدة ستغفر لها جلب الشرطة إلى المنزل للسؤال عن عشيقها. ولكن لماذا يبحث الشرطيان عنه؟ ما الذي جرى لماريا؟ أين هو؟

كان أسوأ ما في الأمر هو أنّه ليس لديها أحدٌ تتكلّم معه، شخصٌ تثق به لتبثّ له قلقها. لا بأس، لقد طُرِد من العمل ولم تكن له الجرأة على ما يبدو ليخبرها بذلك، ولكنّ هذا ليس سببًا ليختفيَ بهذه الطريقة. تُرى أمريضٌ هو؟ على الأرجح أنّه بالفعل مريض. إن لم يكن مريضًا، فلماذا قد اختفى؟ لو أنّه قد اختفى لأنّه يخجل من طرده من عمله، ألم يكن من البديهي الاعتقاد بأنّها ستذهب في وقتٍ من الأوقات إلى الورشة لترى ما حدث له وتعرف هناك كلّ شيء؟ كان مريضًا.

ولقد كانت محقّةً: إذ عانى ماريا من الحمّى، على حشية الغرفة التي استولى عليها، ارتعش بردًا. لم يعد منذ ساعاتٍ يتحرّك قطّ. علق على إصبعا السبّابة والوسطى من يده اليسرى شباك عنكبوت، وقد استند لا إراديًّا عليها في الصباح وهو ينهضُ ليذهب إلى المراحيض. انتابه الضعف، واحتاج إلى بذل جهدٍ كبير ليستلقيَ على جنبه فوق السرير؛ إضافةً إلى ذلك، حتى وإن كانت الحشية ذات نوعية جيّدة، وهي حشيّة قديمة لها نوابضُ، فإنّ خشبَ السرير يصدرُ صريرًا، وهو يخشى أن يسمعَه أحدٌ، ولذلك ظلّ أثناء ساعات طويلة جامدًا تمامًا بلا حراك.

من جهة ثانية، لم يتناول أيَّ شيء منذ أكثر من يومين. ستائر الغرفة منسدلة، وبغياب الضجيج، لم يكن في استطاعته أن يعلم أكان الوقتُ نهارًا أم ليلًا.

ما إن أحسّ بأنّه قد أصبح أحسنَ حالًا بعض الشيء، حتّى عاد إلى المراحيض التي اكتشفها أمس أثناء جولة متهوّرة وفي غاية الجرأة. إذ خرج ليستطلع المكان، فجال في قسمٍ كبيرٍ من الطابق المُلحَق؛ وبدت المراحيض أيضًا مهجورةً مثل الغرفة التي يقيم فيها. نظيفةً (لا بدّ أن روزا تنظّفها من حينٍ إلى آخر)، ولكنّها، بكلّ وضوح، خارجُ الاستخدام. أثناءَ هذه النزهة في الطابق المُلحَق، حاول أن يفتح كثيرًا من الأبواب التي صادفها في طريقه، لكنّ معظمها مغلقةً بالمفتاح، وأخرى تطلّ على غرف فارغة، وأحدها يُفتحُ على ما

يشبه مستودعًا أو غرفة مهملات تتكدّس فيها كلّ أنواع الأشياء، وكذلك ثيابٌ قديمة مطويّة في أغلفة بلاستيكية وبعض ألعاب الأطفال.

الذهاب إلى المراحيض للتغوّط والتبوّل مغامرة حقيقية. ترك الباب مفتوحًا، كما وجده، ومن ثَمَّ، إذا ما حدث واقتحمه أحدٌ ما، على نحوٍ مباغت، فلن يُلاحظ أيَّ تغيير، على افتراض أنّ ذلك ممكن، ولكن - أيضًا- ليسمعَ ويحظى بالوقت الكافي للخروج والاختباء. تفرض المشكلة نفسَها في لحظةِ ضخّ الماء لتنظيف حوض المرحاض، وهي عمليةٌ تأخذُ الكثير من وقته؛ فالمراحيض قديمة، وخزّان الماء منفصلٌ عن مقعد المرحاض (الخزّان مثبّت في زاوية الجدار والسقف)، مع سلسلة معدنية تنتهي بمقبضٍ خشبيّ، يسحبه مليمترًا بعد مليمتر لكيلا يثيرَ صخبًا، حتى تبدأ بالسيلان أولى قطرات الماء بتدفق يعادلُ تسرّبًا خفيفًا، ثم ينظّف ماريا بها كلّ أثرٍ ببالغ الصبر والتأنّي حتّى لم يُسمَع أيُّ صوتٍ لها.

أحيانًا، وهذا أمرٌ لا يُصدّق، تنفصلُ قطرةٌ من الماء عن الخزّان المعلّق وتنسكب على حرف كرسيّ المرحاض، أو عليه هو نفسه، أو حينما يتبوّل، يبلّل حرف الكرسيّ، ولذلك ينبغي له أن ينظّفَ كلّ شيء بدقّة (باستخدام ورقة، أو كمّ قميصه) قبل أن يغادر المراحيض.

قبل ليلة الخميس، إذ قرّر أن يقوم بغارةٍ على المطبخ، ظلّ طيلة الوقت في الغرفة عدا وقت الذهاب إلى المرحاض، وأثناء جولة التفتيش الأولى هذه في المطبخ. لم يعدّل أيّ شيءٍ في المكان، ولم يترك أيّ أثرٍ يدلّ على وجوده: كلا، لا يزال كلّ شيءٍ في مكانه.

أنهكته الحمّى، ولذلك قضى الأيام الأولى نائمًا؛ وضع قميصَه الخاصَّ بالعمل فوق قميصه العاديّ وتغطّى بسرواله، بل بحقيبته، ومع ذلك لا يزال يرتعش بشدّة. ولم يشعر، في أيّ لحظة، بأنّه مستعدٌ للاستسلام. على العكس تمامًا، عليه أن يستعيدَ قواه وأن يتغذّى جيّدًا.

نزل إلى المطبخ في ليلة الخميس. المنزل مؤلّفٌ من أربعة طوابق، ولم يعرف في أيّ طابقٍ وجوده، ولكنّه وصل إلى المطبخ أسرع بكثير ممّا ظن. وصل حافيَ القدمَين؛ إذ ترك حذاءه في الحقيبة التي تركها تحت السرير. لم يُر أيّ شيء في بعض أقسام المنزل؛ وفي أقسامٍ أخرى، تنسلّ أضواء الليل عبر الفتحات أو أضواء مصابيح الحديقة التي تُشعَل متى يبدأ الليل بالهبوط حتّى تسمح له برؤية جزءٍ من المسار، ولكنّه لم يشعر قطّ بأنّه أكثر اطمئنانًا. فبعد كل الذي فعل، ما الذي رآه؟ لوحات فنّية، مرايا، سجّاد.

أشارت ساعة الحائط المعلّقة فوق باب المطبخ إلى الساعة الثالثة صباحًا. فتح الثلّاجة، فأزعج ضوؤها عينَيه وجعلته يرمش بهما، فأعاد إغلاقَها. ما الذي

يمكن أن يأكله من دون أن تلاحظ روزا في اليوم التالي أنّ شيئًا ما قد نقص من الثلّاجة؟ رأى على الأرض، إلى جانب كرسيّ، كيسًا بلاستيكيًّا صغيرًا امتلأ بالهواء قبل قليلٍ من الوقت، وكان لا يزال يفرغ من الهواء تدريجيًا وينكمش مثل زهرة تذبل. أخذه وبدأ يفتحه: أصدر كيس متجر ديسكو ضجيجًا لا يُستهان به. استغلّ ماريا مرور سيارة ليفتحَه دفعةً واحدة. ثمّ دسّ فيه قطعة من الخبز كان قد أخذها من على طاولة التحضير في المطبخ، وفتح الثلّاجة وأخذ القليل من كلّ شيءٍ فيها، من دون أن يعرف تمامًا ما يأخذه.

حينما استدار على كعبَيه ليغادر المطبخ، نظر من جديد إلى الساعة: لم تشر إلى الثالثة صباحًا وإنّما إلى الثانيةَ عشرةَ والنصف بعد منتصف الليل. وهذا يعني أنّه ظلّ خمس عشرة دقيقة في المطبخ؛ إذ لا بدّ أنّ الساعة أشارت إلى الثانيةَ عشرةَ والربع حينما دخل إليه، وليست الثالثة. شعر بالخوف: الوقت باكر جدًّا، ويمكن وجودُ أحدٍ ما لم يزل مستيقظًا. انتابه التوتّرُ عندما خرج من المطبخ، أكثر حذرًا من أيّ وقتٍ مضى، ثم صعد سُلّم الخدمة وهو يقفز كلّ أربع درجات دفعة واحدة.

توقّف في الطابق الأوّل ليلتقط أنفاسه. أحسّ بنبضات قلبه حتّى في يديه. يجب عليه أن يسلك الممرّ بطوله حتّى يصل إلى السلّم التالي، الذي سيصعد انطلاقا منه طابقين آخرين قبل أن يصل إلى الطابق المُلحَق. استأنف سيره، ولكنّه، في منتصف الطريق، سمع صوتَ نحيبٍ خفيف، ومتقطّع وسط الظلام. توقّفَ، وهو يخشى قبلَ كلّ شيء أن يصادفَ وجهًا لوجه الشخص الذي بكى، بل تراجع إلى الخلف بضع خطوات، ولكنّه لاحظ فجأةً أنّ صوت النحيب يأتي من غرفة تقع مقابل الغرفة التي توقّف أمامها بعد أن تراجع إلى الوراء، فألصق أذنه بحذر وهدوء بالباب. فإذا هي روزا. بكت وهي تدسّ وجهها في الوسادة: بكت في نحيبٍ خافت، نحيبٍ يمزّق القلوب ولكنّه خافت، انقطع فجأةً حالما رفع ماريا أذنه عن الباب.

بعد مرور ثانيتَين، مدّت روزا رأسَها إلى الممرّ. قطع ضوءُ مصباح السرير صورتها مثل ظلٍّ. ما هناك من أحدٍ. تمخّطت روزا وعادت إلى سريرها.

في تلك اللحظة تمامًا، انسلّ ماريا عبر السلّم نحو الطابق الأعلى، وجبينُه ساخنٌ مثل النار، وقدماه باردتان مثل الثلج. لمّا وصل إلى غرفته، فكّر بنوعٍ من المنطق، وهو يتناول طعامه، أنّ روزا دسّت رأسها في الوسادة؛ لأنّها علمت بأنّه من الممكن أن يُسمَعَ صوتها. فضلًا عن ذلك، قد راحت تبكي في غرفةٍ أخرى غير غرفتها الخاصّة. أو ربّما تكون قد قامت بفعلٍ مشينٍ في تلك الغرفة، فشرعت فجأةً في البكاء؟ سؤالٌ أكثر أهمّية يطرح نفسه: تُرى هل غرفة روزا قريبة جدًّا من غرفة الزوجين بليندر لتُضطرّ أن تدسّ رأسها في الوسادة؟ كلا. تنام روزا في الجناح الشرقيّ من المنزل، بينما ينام الزوجان

بليندر في الجناح الشمالي في الطابق الأرضي من المنزل. بيد أنّ ماريا لم يعرف ذلك إلّا بعد بضعة أيام. في الوقت الحالي - بما في ذلك يوم غد- سيعلم من فم السيّدة بليندر أنّ الشرطة قد جاءت تطرح أسئلةً بشأنه.

عندما استيقظ ذلك الصباح، أحسّ بأنّه أحسن حالًا. تناول رغيفًا كاملًا من الخبز، وخمس حبّاتٍ من الزيتون، وشريحة من الخنزير النيّئ، ونصف حبّة من البصل (النيّئ أيضًا) وتفاحةً. استيقظ بسبب ضجيج الشارع الذي امتزج مع صمت المنزل.

منذ متى وهو موجودٌ هنا؟ حسَب الوقتَ: ثلاثة أنهُرٍ وليلتان. ربّما أربعة أنهرٍ وثلاث ليال. متقوقعًا على نفسه مثل جنينٍ في سريره، قال في نفسه إنَّ الوقت قد حان لينصرف. فيما بعد، حينما نهض، ارتأى أن يمكث بعض الوقت، ربّما ليومٍ إضافي. إلى أين في استطاعته أن يذهب؟ لا مكانَ لديه يختبئ فيه...

لم يعد يعاني الحمّى، لكنّ عظامه ومفاصله لا تزال تؤلمه بعض الشيء. لاحظ أنّ باب الغرفة لا يُصدر أيّ ضجيجٍ، حتى وإن تمّ فتحُه دفعةً واحدة كما حدث عند عودته إلى مخبئه، بعكس ما ظنه إلى تلك اللحظة.

خطى تحت بقعة مغمورة بخطورة بضوء شديد، ولكنّه حظي أول مرّة برؤية بانوارمية للمكان الذي وُجد فيه. جال في الطابق ببطء، وهو يعاين تقسيم الغرف، والممرّات، وكلّ شيء، ربّما صادفها حينما خرج في السابق أو عبر من أمامها لاحقًا.

نزل طابقًا. إذا كان الطابق الأعلى غير مسكونٍ، فإنّ الطابق الثالث أعطاه الانطباع بأنّه مكانٌ للعبور؛ ربّما استقبل الزوجان بليندر في هذا الطابق ضيوفهما، على فرض أنّهما استقبلا ضيوفًا. كلّ النوافذ مغلقة، ولكن لم ينقصه شيء، وفيه كل وسائل الراحة: سجّاد، مدفأة، عربة مليئة بقوارير مشروبات من ألوان مختلفة، مكتبة كتب، جهاز هاتف، شاشة تلفاز... لم تكن الأسرّة مفروشة بشراشف، بل مغطّاة بغطاءٍ، وهواء الغرف جافٌّ وباردٌ، كما لو أنّه تمّت تهويتها كلّ يوم. تتناثر في أماكن عدّة، على جدران الصالون، لوحات زيتية لوجوه رجال ونساء، جميعهم في هيئات جدّية، في إطارات ذهبية اللون.

مرَّ السلّم الرئيس على مسافةٍ قريبةٍ جدًّا من المدفأة. سلك ماريا الاتجاه المعاكس، سار في ممرٍّ قاده إلى جناح الخدمة حيث مرّ أمام العديد من الغرف الفارغة، الضيّقة جدًّا؛ تلك غرف طاقم العاملين في المنزل، الذي لا بدّ وأنّه، قبل سنواتٍ خلت، كان عامرًا، مع مدبّرة منزل ورئيس الخدم. لماذا إذن تنام روزا في الطابق الأرضي وليس هنا؟

وبينما يواصل النزول، قال في نفسه: لا بدّ أنّ المسكن قد أعيد هيكلته كلّها وفقًا لتقلّص عدد شاغليه. لا بدّ أنّ الغرفة التي تشغلها روزا الآن شغلتها سلفًا مدبّرة المنزل أو رئيس الخدم. الطابق الثاني أيضًا مريحٌ مثل الطابق الثالث، لكنّ الديكور أكثر زخرفةً، ويكاد يكون باروكيًا. في غرفة الجلوس، هناك الكثير من الطاولات، والمناضد الصغيرة، والمقاعد الخشبية الطويلة، والكراسي، والمقاعد ذات المساند.

اقترب من طاولة مليئة بصور مؤطّرة وانحنى لينظر إليها عن قرب: ظهرت في كلّ الصور امرأة شقراءُ، في الأربعينيات من عمرها، امرأة لها دائمًا الابتسامة نفسها، ولكنّ تسريحة شعرها تختلف في كلّ صورة عن الأخرى؛ فهي وحيدة تارةً، وإلى جانبها رجلٌ في عمرها نفسه تارة أخرى: على الأرجح فالرجل زوجها أو شقيقها. وفي الصور رجلان آخران تتراوح أعمارهما بين خمسة وثلاثين وأربعين عامًا وعددٌ من الصبيان الشُّقْر، المبتسمين أو الجدّيين، يرتدون سترات وربطات عنق أو ملابس السباحة، كانوا جميعهم من الفئة العمرية نفسها، وفي أماكن مختلفة، يذهبون من الكنيسة إلى الشاطئ. أحد الرجلين لم يظهر إلّا في صورةٍ واحدة، ويبدو مبتعدًا بعض الشيء عن الآخرين على الطاولة. اجتمع الجميع في الصورة الأخيرة التي نظر إليها (باستثناء الرجل الذي ظهر في صورة وحيدة)، يقف بعضهم إلى جانبِ بعض في صفٍّ واحدٍ خلف رجلٍ وسيّدة يجلسان على كرسيين من القصب، ويرتديان ثيابًا أنيقة... سمع حينذاك صوتًا يُطقطق في الطابق الأوّل. اقترب من السُّلّم.

علمت السيّدة بليندر من فورها بمجيء الشرطة إلى المنزل. أوقفها إسرائيل في الشارع قبل قليل وأعرب لها بخبث عن قلقه «من عشيق روزا». اضطربت السيّدة بليندر، فرفعت إحدى يديها إلى فمها.

- روزا، يا إلهي، يبدو أنّ خطيبكَ قد قتل شخصًا!

ارتخت ركبتا روزا وأخذ رأسها يدور.

- يُقال إنّه قد قتل رئيس العمّال في ورشة البناء التي عمل فيها! منذ متى لم تقابليه؟ لماذا لم تخبريني بأنّ الشرطة جاءت إلى هنا؟ روزا، هل تسمعيني؟

- هذا مستحيل...

بدأت روزا تبكي.

- ماذا سنفعل الآن. كلّ الحيّ يتحدّث عن ذلك! منذ متى لم تقابليه؟

أجابت روزا:

- منذ ثلاثة أيام أو أربعة...

- لماذا لم تخبريني أنّ الشرطة قد جاءت إلى هنا؟

- بسبب الخوف، يا سيّدتي...

- جاءت الشرطة إلى بيتي أنا لكي تقابلكِ أنتِ، وأنتِ لا تخبريني بشيء؟

- لقد تملّكني الخوف، يا سيّدتي...

- غريبٌ أمركِ. ماذا كنتُ سأفعل بكِ؟

- من فضلكِ، سامحيني، يا سيّدتي. لم أعرف شيئًا.

- لم تعرفي شيئًا عن ماذا؟

- عن لا شيء، يا سيّدتي.

صرخت وهي ترسم إشارة الصليب:

- يا لَلهول، خطيبةُ قاتل! يأتي لرؤيتكِ، وتفتحين له الباب! أنا رأيته مرّتين أو ثلاث ولم يُعجبني. إنّه يثير عندي شعورًا غريبًا! والآن؟

- لا أدري، يا سيّدتي. أعتقد أنّه من المستحيل أن يكون قاتلًا، لا بدّ أن هناك خطأً في الأمر...

- وتقولين لي بأنّكِ لم تعودي تقابليه؟

أقسمت روزا اليمين وهي تُقبّل أصابعها المضمومة على شكل صليب. ثم بدأت تبكي.

- ولماذا لم تعودي تقابليه؟ هل أخبركِ شيئًا عمّا فعله؟

- كلا، يا سيّدتي.

- وأنتِ، ألم تعرفي شيئًا عن ذلك؟

- لم أعرف أيّ شيء، يا سيّدتي.

- أكيد؟

- نعم، يا سيّدتي، ولكن هذا مستحيل: إنّه لن يلحق الأذى بذبابة، إنّه رجلٌ طيّبٌ للغاية...

ظلّت بليندر لحظة صامتة، ورأسها مليءٌ بالأفكار المتناقضة. انتهت إلى طرد كلّ تلك الأفكار على ما يبدو، وتنهّدت، وخرجت من غرفة الجلوس مسرعةً

الخُطى. جلست روزا على مسند مقعدٍ وأمسكت رأسها بين يديها. ابتعد ماريا، وراح يصعد السلّم، مطرقًا في التفكير.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

5

في نهاية الأسبوع الثاني، ميّز أصوات الضجيج في البيت كما لو أنّه سكنه منذ سنوات طويلة. حدث شيء مماثل مع فضاء ومكان الأشياء الضرورية لنجاته. وبشأن الضجيج الذي أثاره هو نفسه، ظلّ خوفه الأوّلي يلازمه بعض الشيء، على أنّه لم يعد مُسوَّغًا بعد الآن، ولكنّه لاقى صعوبة في التخلّص منه؛ فعلى سبيل المثال، ليفتح بعض الأبواب، يستغرق وقتًا أكثر ممّا ينبغي: فتحها مليمترا بعد مليمتر، حتى وإن علم بأنّ الباب وإن أصدر صريرًا فلن يسمع أحدٌ صوته. حينما ينام، يُبدي الحذر حتى حينما يتقلّب في السرير أو يغيّر وضعيّته. جعله حذرُه الشديدُ، إضافةً إلى رشاقته الطبيعية، يتنقّل وسط العتمة بخفّة شبح ومهارته. في الواقع، أكثر من مجردِ شبحٍ، كان يشبه صورةً سينمائية صامتة معروضة خارج الشاشة، صورة متأقلمةً مع المسافات، مزوّدة برادار غير عاديّ.، في لحظات السهو، حينما يجازف بالاصطدام بمزهرية أو يتعثّر بحرف السجّادة، يحذّره، بل حتّى يُخفيه أو يُذيبه.

علم بأنّه لا يستطيع أن يتساهل ويسمح لنفسه بأيّ إهمال أو أيّ تغييرٍ في نظام الأشياء وطبيعتها في المنزل ولو تغييرًا طفيفًا. علم علم اليقين بأنّ أحدًا لن يُلاحظ بأنّ المقصّ أو المِنشفة ليسا في المكان نفسه أو في الوضعية نفسها كما كان الحال في الأسبوع الماضي، ولكنّه حريصٌ أشدّ الحرص على أن يترك دائمًا كلّ شيء كما وجده حين قدومه.

ذات مرّة، استيقظ جفلًا في منتصف الليل وخرج جريًا من الغرفة ليذهب ويُغلق باب المرحاض الذي تركه مفتوحًا، ولكن، بصورةٍ عامّة، لم يرتكب أخطاءً: قام بالجرد الدقيق والشامل لمكان ووضعية كلّ غرض وراعى ذلك بلا تردّد، حتى لا شعوريًا تقريبًا. كما أنّ هذا الجرد روجِع دوريًا من الألف إلى الياء: من حينٍ إلى آخر، في الطابق الأعلى، ومرّة واحدة في الأسبوع في الطابقين الثاني والثالث، ويوميًّا في الطابق الأوّل وفي المطبخ، حسب المهام المنزلية الموكولة إلى روزا. لا يزال الطابق الأرضي أرضًا مجهولة فيما يخصُّه. يتجنّبه؛ في كلّ ليلة، فينزل إلى المطبخ عبر جناح الخدمة. تيقّن أنّه لم يكن معرّضًا لأيّ خطرٍ في أن يجد نفسه وجهًا لوجه في ذلك المكان مع السيّد أو السيّدة بليندر؛ مستعدٌّ لأن يُراهن بقطع رأسه على أنّ الزوجين بليندر لم يضعا قدمَيهما على الإطلاق في هذا القسم من المنزل. وفي كلّ ليلة، يتوقّف برهةً أمام باب غرفة روزا وهو ينزل. بصورة عامّه، لم يسمع أيّ شيء؛ لأنّه يذهب إلى المطبخ في وقتٍ متأخّرٍ جدًا من الليل، ولكن، في بعض الأحيان، يسمعها تسعل أو تذرع الغرفة جيئة وذهابًا، في حالةِ أرقٍ، وهي ترتّب غرفتها أو تشاهد التلفاز. ذات مرّة، سمعها وهي تُمارس العادة السرّية.

حنّ إليها. فكّر أكثر من مرّة أن يكشف لها بأنّه موجودٌ في المنزل، ولكنّه لم يعتقد بأنّ حبّ روزا له يبلغ هكذا حدًّا ليكشف لها سرّه الخطير. تصوّر أنّ الخوف سوف يتملّك روزا، وستظنّ بأنّه قد جُنّ. ستكون هناك درجة من التعقيد، من الصعب للغاية القبول بها أو تحمّل مسؤوليتها، لا سيما إذا عرفنا بأنّه كان المشتبه به الرئيس في جريمة.

بدأ باختراع حوارات متخيّلة مع روزا. في البداية، حوارات قصيرة من نوع «سؤال/جواب»، وهي تشير عامّة إلى مواقفَ أو وقائعَ عن الحياة اليومية الأكثر خصوصية. ثمّ، وحينما أقرّ في النهاية بأنّ روزا لم تكن بأيّ وجهٍ من الوجوه مسؤولةً عن عجزه في الاعتراف لها بأنّه مختبئٌ هنا في المنزل، وبأنّه فقد الأمل في جعلها شريكة متواطئة معه، أصبحت الحوارات أكثر طولًا وأكثر ودّية. يتحدّث معها غالبًا عندما يأكل، ويقرأ، وأيضًا حينما جثم قريبًا من النافذة، من أجل الهواء والضوء، ليحصل وجهه على بعض الدفئ.

هناك في مكتبة الطابق الثاني المئات من الكتب، تبدأ من روايات المغامرات حتّى الدراسات والأبحاث الطبّية. أغلق ماريا باب غرفته بالمفتاح، وسدّ الشقّ الموجود في أسفل الباب بقميصه، وأضاء مصباح السرير وقرأ حتّى نام. في بعض الأحيان اضطرّ لأن يعود إلى الوراء ويستأنف القراءة، لأنّه أمضى وقته في التحدّث مع روزا بينما تتابع عيناه تلقائيًا سطور الكتاب. لاحظ أنّ روزا لم تقرأ قطّ أيّ شيء في حين هناك الكثير من الكتب في المنزل. أثناء أوقات فراغها، لم تفعل شيئًا سوى مشاهدة التلفاز.

تقول له:

- هذا لأنّ القراءة تتطلّب جهدًا أكبر من مشاهدة التلفاز.

- لماذا؟ ليقرأ المرء، يكفي أن يجلسَ أو يتمدَّدَ، مثلما تفعلين حينما تشاهدين التلفاز.

- ولكن ينبغي له أن يُجهِدَ ذهنه.

- هذا خطأ! يمكن للمرء أن يقرأ تمامًا من دون أن يُفكّر.

تمارس روزا العادة السريّة كثيرًا. لم تفعل ذلك أثناء الأسابيع الأولى من اختفائه التي حزنت فيها أيّما حزنٍ، وإنّما بدءًا من اللحظة التي اقتنعت فيها بأنّ ماريا لن يعود مرّة أخرى. في أحد حواراته المتخيّلة معها، «عَلِم» ماريا أنّ روزا مستمرّة في حبّها له، حتى وإن لم يعد لديها أيّ أملٍ في رؤيته مرّة أخرى. قالت له روزا إنّها لا تُصدّق بأنّه قادرٌ على قتل أحدٍ، فأخذها بين ذراعيه بصمت، ومن ثمّ روى لها، من دون أن يفلتها، بأنّه في اليوم الذي عاد فيه الزوجان بليندر فعل ما قال أنّه سيفعله: انتظر بأن يدخل الزوجان بليندر إلى

المنزل، وخرج من مخبئه في المطبخ، وفتح الباب المقوّى بقضبان حديدية والمطلّ على الشارع، وأدرك فجأةً أنّ ليس هناك مكانٌ يمكنه الذهاب إليه، ولذلك أغلق الباب من جديد، وترك المفتاح في الداخل، كما لو أنّه قد رماه من الخارج، وعاد إلى داخل المنزل.

سألته روزا:

- لماذا تقول إنّه لا مكانَ تذهب إليه؟ وماذا عن بيتك؟

- بيتي... يا روزا، لقد حصل سوء تفاهم بيني وبين رئيس العمال هذا، ولا أحد سيُصدِّق بأنّني لم أقتله... ستأتي الشرطة للبحث عنّي في بيتي، وكنتُ الآن سأكون في السجن، ومن يعرف إلى متى؟ ففضّلت البقاء هنا على الرحيل.

ساد الصمت.

قالت له روزا:

- أحبّكَ.

وتوارت عن الأنظار.

تُمارس العادة السريّة وهي تُفكّر فيه. أمّا هو، فقد اعتاد على أن يسترق السمع إليها. تمارس روزا العادة السريّة في غرفتها أو في الحمّام تقريبًا كلّ يوم بين الساعة العاشرة مساءً والواحدة صباحًا. (باغتها ماريا مرّة واحدة فقط وهي تمارس العادة السرية في وقت العشاء، بعد أن قدّمت طبقًا من الحساء إلى الزوجَين بليندر، وتمامًا قبل أن يطلباها لتقدّم لهما الطبق الرئيس).

تشغل ممارسة العادة السريّة جزءًا لا بأس به من أوقات فراغ روزا، تقريبًا بقدر ما تشغلها مشاهدة التلفاز. تستطيع أن تقضيَ ساعة أو ساعتين في مداعبة جسدها؛ بل ويحدث لها أن تبدأ بممارسة العادة السريّة في الحمّام، تحت رشّاش الماء، وتُنهيها في غرفتها. يمارس ماريا، وهو ينحني على ثقب قفل الباب ويتلصّص عليها، العادة السريّة معها. إنه دهشٌ ومنبهرٌ بتنوّع التقنيات والأدوات التي تستخدمها روزا في ممارسة العادة السريّة. في بعض الأحيان، تُرغي جسدها بالصابون، وتداعب نفسَها إلى أن تتكثّف الرغوة وتتحوّل إلى ما يشبه الكريمة؛ فتأخذ حينئذٍ عبوة مزيل العرق ذات طرفٍ مدوّر، وتجثو في حوض الاستحمام، وتفتح صنبور رشّاش الماء (لم يستطع ماريا أن يرى المشهد، ولكنّ ذلك لم يكن ضروريًّا) وتدخل طرف عبوة المزيل بين ساقيها في حين تتساقط المياه على ظهرها، وتشطفها وتنظّفها من الرغوة. وفي بعض الأحيان، تكتفي بالجلوس على رشّاش الماء في كرسي

الحمّام، مرتدية ثيابها، منزلةً سروالها الداخلي الصغير حتّى كعبَيها، ورافعة بالكاد تنُّورتها القصيرة، كما لو فاتها الوقت.

فكّر ماريا في أغلب الأحيان بوقاحة ولا حشمة روزا. في المرة الأولى التي مارسا فيها الجنس في الفندق الصغير في منطقة باجو، تصرّفت روزا بطريقة أذهلته، تصرّفت بحرية غريبةٍ لا تُصدّق. ضاجع ماريا في حياته فيلقًا من العاهرات (وقد جرّب، إذا جاز التعبير، حتّى ممارسة الجنس مع فتاة عذراء)، ولكن لم تقدّم له أيُّ امرأة هذا المزيج من الحماسة والبراءة الذي قدّمتها له روزا. كلُّ شيء مسموحٌ، بَدءًا من الرقّة والحنان حتّى الشبق والشهوانية والذلّ والمهانة.

تغرق روزا في البهجة حتّى إنّها قد تسبّب له ذعرًا مفاجئًا في بعض اللحظات. تُطلق غالبًا نكاتًا ومزاحًا كما لو أنّ ممارسة الجنس ليست سوى لعبة؛ كانت تحكّ خصيّتَيه بإصبعها، وتمسك بقضيبه وتهزّه إلى الأمام وإلى الخلف كما لو أنّه مغيّر السرعة في سيّارة، بل وتُصدر ضجيجَ محرّكٍ بفمها. كانت تضحك مثل بلهاء (رائعة) حينما يشلّ ماريا يدها ويحدّق في عينيها.

لم يُدهش لممارسة روزا العادة السريّة غالبًا. بالمقابل، ما يدهشه أنّهما يصلان أحيانًا إلى رعشة الجماع في اللحظة نفسها، وكلّ منهما على جانبٍ من الباب. عند هذه النقطة كان ماريا يغادر على عَجَلٍ، ممسكًا بيد واحدة... وبعد برهةٍ، تخرج روزا من الحمّام، وتدخل إلى غرفتها، وتشاهد التلفاز. يُنظّف ماريا يده تحت اللحاف ويفكّر فيها طويلًا. إمَّا أن يبقى على هذه الحالة أو يذهب إلى السجن، ولم يكن هناك في الحقيقة ما ينبغي له التفكير فيه.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

6

أنشأ لنفسه روتينًا رياضيًا، مثل التمارين العضلية، وتمارين المرونة، وتمارين عضلات المعدة، في برنامجٍ حقيقي. بات بطنُه، المشدودُ أصلًا، يشبه الآن لوح مغسلة. وتضاعفت قوّة ذراعيه. فالعمل في ورشة البناء كان الجهد البدنيّ الوحيد الذي يبذله قبل أن يحبس نفسه في المنزل؛ الآن، أصبح من الضروريّ له الحفاظ على روتينه لأنّ جسده أصبح الآن الأداة الوحيدة التي صار يعمل عليها، لقد اعتنى بكلّ عضلة من عضلات جسده كما لو كانت زهرة ماغنوليا.

ربّما يبدو القول بأنّه يقرأ، ويُمارس العادة السريّة، ويمارس الرياضة البدنية أثناء «أوقات فراغه» قولًا غريبًا ومبالغًا فيه، ومع ذلك، كان التعبير أمرًا معقولًا ومنطقيًّا: بالفعل لديه الكثيرُ من العمل؛ فتناوُلُ الغذاء وإشباع حاجاته البيولوجية الأساسية نشاطان يستهلك فيهما جزءًا مهمًّا من أوقات نهاره. مغامرة النزول من الطابق الأعلى إلى المطبخ في سبيل سرقة القليل من الطعام تعرّضُ، أقلّ ما يُقال، الحريّة، حريّته هو، إلى الخطر. ولهذا السبب، عليه أن يسيطر على نفسه، أكثر من سيطرته على المنزل.

يمارس التمارين التنفسيّة قبل الشروع في نزول الدرج؛ ليصل إلى حالة معيّنة من الاسترخاء؛ ولم ينجح في ذلك إلّا لبضع دقائق؛ لأنّه في كلّ خطوة يخطوها يجد نفسه في حالة حذر وانتباه شديدَين. الغارات التي يشنّها على المرحاض وعلى مكتبة الطابق الثالث هي الأخرى محفوفة بالمخاطر، وكذلك حال رحلاته بغرض التسلية والترويح عن النفس. في لحظاتٍ كهذه، يستند بمِرفقَيه عادةً على درابزين درج الطابق الأوّل ليُصغي إلى هذا الحديث أو ذاك في الطابق الأرضي، وهو ينكش أسنانه بقشّة من المكنسة، أو يأخذ قسطًا من أشعّة الشمس المنسلّة عبر النافذة. ولكن، في أعماقه، لم يقلقه استهلاك وقته أو يُضايقه: كان خارج نظام الإنتاج، يودّ ألّا يفعلَ أيّ شيء. لم تكن لديه التزامات تجاه أيّ شخص، ولم تكن لديه أوامر ينبغي تنفيذها، ولم يهتمّ بأيّ شيءٍ سوى ألّا يتمّ اكتشافه.

في الواقع، تتيحُ له حالات ارتفاع الأدرينالين في حالات الخطر متعةً ما، بل تحوّل، ممّا منحه الإحساس بأن الضرورات حتّى أصبحت مغامرة. الاغتسال، على سبيل المثال. مرّ ما يقارب عشرين يومًا على وجوده في المنزل، ولم يستحمّ قطّ. يستحمُّ في ورشة البناء، أو في بيته، كلّ يوم؛ هنا، لم يكن بوسعه أن يحلم بالوقوف تحت رشّاش الحمّام. ولكن بطريقة أو أخرى، عليه أن يغتسل: فكلُّ جسمِه يحكُّه، وفي بعض الأحيان، لم يكن بوسعه أن ينام بطريقة طبيعية.

لم تعمل أجهزة التدفئة إلّا في الطابقَين الأرضي والأوّل. ولكن، إذا كان الطابق الثاني دافئًا نسبيًّا بفضل صعود الهواء الساخن إليه، فقد كان الطابق الثالث باردًا، والجوّ في الطابق الأعلى زمهريرًا. قرّر أن يغتسل في أحد حمّامات الطوابق السفلية. في تلك الليلة، مثل كلّ الليالي، راح يبحث عن وجبة العشاء في المطبخ، فوضعها في غرفته وعاد ينزل إلى الحمّام في الجناح الشمالي (المغطّى بالرخام الأسود المطعّم بقشورٍ وعروقٍ من الفولاذ المضادّ للتأكسد والصدأ). نزع ثيابه، ودخل إلى مغطس الحمّام غمس الإسفنجة في الماء واغتسل بالكامل. الماء باردٌ جدًّا، ولم يعثر على الصابون في أيّ مكان، ولكن ما إن فرغ من الاغتسال، أحسّ بأنّه قد أصبح أحسن حالًا: نظيفًا مثل فلسٍ جديد، ولكن كان يرتعش. نشّف مغطس الحمّام باستخدام الإسفنجة التي تركها في المكان نفسه الذي وجدها فيه، وارتدى ثيابه، وصعد من جديد إلى غرفته. بعد مرور برهةً، وبينما هو يتناول طعامه، اكتشف بأنّه لم تكن لديه أيّ فكرة عن التواريخ. لم يحصِ الأيام. ولذلك أحسّ بأنّه ضائعٌ بعضَ الشيء، فتعهّد بأن يفعلَ ذلك من الآنَ وصاعدًا. قتل رئيس العمّال في أحد أيام الثلاثاء، في السادس والعشرين أو السابع والعشرين من شهر سبتمبر/ أيلول. فحسب أنّه موجودٌ في المنزل منذ عشرين يومًا، ومن ثَمَّ، كان التاريخ هو من دون شكّ السادس عشر أو السابع عشر من شهر أكتوبر/ تشرين الأوّل. في صبيحة اليوم التالي، سرق قلم رصاصٍ وورقة ليدوّن الأيام.

تناول فخذ دجاجةٍ، ورغيفًا من الخبز، وحبّة طماطم، ونام مستلقيًا على ظهره، وقد وضع يديه تحت أسفل رقبته. يفكّر دون انفعال بأنّه، بعد قتله لرئيس العمّال بثلاثة أيام، من المفترض أنّه سيقبض أجرة أسبوعين من عمله (وأنّه، إضافة إلى ذلك، قد ترك يومذاك ساعة يده من طراز روليكس معلّقةً بمسمارٍ صغير)، عندما سمِع فجأةً صوتًا في الغرفة. لم يشعر بالذعر. قال في نفسه إنّه لا بدّ أنّه قد حرّك إحدى ساقيه دون وعيٍ منه، وأنّ هذه الحركة قد أحدثت الصوت. ولكنّه لاحظ في الحال أنّ هذا الصوت يأتي من جهة الباب. أحسّ بالقلق، ولكن دائمًا من دون ذعر. ربّما هناك أحدٌ ما على الجانب الآخر من الباب. سمع مرّة أخرى الصوت. الصوت يشبه كثيرًا الخشخشة التي تصدرها أوراق كتابٍ أو دفتر يتمّ تصفّحهما. على الأرجح أنّ السيّد أو السيّدة بليندر صعدا إلى الطابق الأعلى يبحثان عن دفترٍ قديم في المستودع وتوقّفا مصادفة أمام الباب ليتصفّحاه. نهض حينئذٍ، فسمع الصوت على نحوٍ أكثر وضوحًا: كان ذلك عبارة عن صوتٍ صادرٍ عن شيءٍ ما داخل الغرفة.

لا بدّ أنّ الساعة تشير إلى الثانية أو الثالثة صباحًا. فتح بالكاد ستارة النافذة قليلًا، فاستطاع، على ضوء الشارع الذي انسلّ إلى الداخل، أن يرى جرذًا يجري ليختبئ تحت خزانة الثياب. ظلّ ماريا، مطرقًا في التفكير، يضع يده على الستارة، ولم يتحرّك من مكانه. كيف استطاع الجرذ أن يدخل إلى

الغرفة؟ ربّما لم يغلق باب الغرفة جيّدًا حينما ذهب إلى الحمّام ليغتسل، فتسلّل الجرذ إلى الغرفة. أسدل ستارة النافذة، وفتح الباب قليلًا، وجثا أمام الخزانة ونقرَ على نحوٍ خفيف على الأرض براحة يديه. لكنّ الجرذ لم يتحرّك، فلفّ ماريا معطفه الخاصّ بالعمل على هيئة سوطٍ، وضرب به ضربتين على أسفل الخزانة. فخرج حينئذٍ من مخبئه وهو يجري بأسرع ما يمكنه، ولكن ليس نحو الباب، بل لفّ على السرير، من خلف ماريا، واختبأ من جديد تحت خزانة الثياب. كان ضخمًا بحجم فردة حذاء، وكان فزعًا.

كرّر ماريا العملية مرّة ثانية. رآه يخرج. هذه المرّة، بدا له أقلّ ضخامة، ولكن أكثر سرعة. ظلّ ماريا برهةً جاثيًا أمام خزانة الثياب، وهو ينظر ويُصغي. لم يرَ ولم يسمع شيئًا. نهض في النهاية وأغلق الباب وعاد إلى السرير، تاركًا الجرذ يفعل ما يشاء.

في تلك الليلة، اكتشف ماريا، وهو نظيف وشبعان، أن لديه –أيضًا- وقتًا ليفكّر. وأوّل شيء فكّر فيه، هو أنه لم يفكّر قطّ. بعد مرور دقيقة، غطّ في نوم عميق.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

7

في صباح اليوم التالي، عاد من المرحاض مع إبريق ماء ليعدّ لنفسه مشروب المتّة عندما رأى أنّ باب غرفته مفتوحٌ على نحوٍ واسعٍ. تجمّد دمه في عروقه. تراجع إلى الوراء حتّى وصل إلى المستودع على بعد عشرة أو اثني عشر مترًا قُبالة الغرفة. من هناك، رأى روزا وهي تفتح النافذة. لم ترتدِ ثيابَها الخاصّة بعملها بوصفها خادمة، وإنّما سروالُ جينز وقميص، وتحمل فوطة إزالة الغبار على كتفها. بالقرب من الباب، هناك مِكنسةٌ كهربائية.

أحسّ بأنّه ضائع. ارتكب خطأً بالخروج من الغرفة من دون أن يأخذَ حقيبتَه معه مثلما يفعل دائمًا، باستثناء الليل. الحقيبة تحت السرير، وما إن تمرّر روزا شفّاط المكنسة تحت السرير حتّى تقع عليها. ولم يكن هذا كلّ ما في الأمر: فإضافةً إلى ذلك قد ترك كتابًا على الأرض. هذا عدا عن عَظِم فخذ الدجاجة!

عليه أن يمنع روزا من تمرير المكنسة الكهربائية تحت السرير. حتى تلك اللحظة، كانت تنظّف زجاج النوافذ. لم يتردّد ماريا لحظة واحدة في ذلك: خرج من المستودع، وسار مسرعًا على أطراف أصابع قدمَيه نحو المِكنسة الكهربائية، وفصل عنها محوّلَ الكهرباء وعاد إلى المستودع. لم يدخل بعد إلى المخزن إلّا وقد خرجت روزا من الغرفة. لو شكّت لحظة واحدة في أنّ ماريا يختبئ في المنزل، لرأته في تلك اللحظة. ولكنّها لم تشكّ في أيّ شيء على الإطلاق. ولذلك أخذت المِكنسة الكهربائية إلى الغرفة من دون أن يسجّل ذهنُها ما رأته أثناء جزء من ثانية: يدًا ممسكةً بمصراع باب المستودع وصورةَ وجهٍ إحدى عينيه مثبّتة عليها.

اهتاج ماريا ولهث جدًّا كما لو أنّه ركض مسافة طويلة. دقّ قلبُه بعنف في صدره. بينما حاول أن يستردّ أنفاسَه ويعود طبيعيًّا، رأى روزا تخرج من جديد من الغرفة وتبحث عن شيءٍ ما على الأرض... نجحت خطّتُه. جسّت روزا جيوب سروالها، وقامت بحركة، وبحثت عن المحوّل الكهربائي. عاد ماريا إلى غرفته. الكتاب الذي تركه بجانب السرير أصبح الآن على السرير، ولذلك فضّل ألّا يلمسه؛ من الواضح أن روزا قد التقطته من الأرض وألقت به بعفوية إلى هذا المكان. أخذ الحقيبة من تحت السرير، ولكنّه لم يرَ عَظم الدجاجة في أيّ مكان. انحنى وبحث عنه في كلّ مكان دون جدوى، معتقدًا أنّ روزا ركلتها بقدمِها من دون أن تشعرَ بذلك. لم يعثر عليها. ثم سمع صوت روزا التي قالت:

- في الطابق الأعلى، يا سيّدتي، أرتِّبُ الغرفة!

ساد الصمت.

قالت روزا بصوتٍ أقرب بكثير:

- نعم، يا سيّدتي، في الحال!

لم يكن أمام ماريا مزيدٌ من الوقت للبحث عن العظم. خرج من الغرفة وأسرعَ نحو المستودع. دخل إلى المكان وأغلق الباب من ورائه، وأسند ظهرَه إلى الجدار وترك نفسَه ينزلق إلى أن وجد نفسه قاعدًا على الأرض، وهو يشدّ الحقيبة إلى صدره. بعد برهةٍ من الوقت، غيّر وضعيَّته، أو بالأحرى حالتَه: وضع الحقيبة إلى جانبه، وانتقل من حالة التصرّف بدراميّة إلى حالة أحلام اليقظة، متخيّلًا أنّ روزا قد عثرت على العظم وأخبرت السيّدة بذلك، وأنّ رجلين أو ثلاثة رجال شرطة يصعدون إلى الطابق الأعلى ويقومون بتفتيشه إلى أن يعثروا عليه، فيضعون القيود في يديه في الحال ويُجرجرونه إلى الأسفل.

وتخيّل أنّ السيّد بليندر، الذي ينتظره على عتبة الطابق الأوّل، يقترب فجأةً منه ويصفعه من دون أن يفعل رجال الشرطة أيّ شيء لكي يمنعوه عن ذلك. في الطابق الأرضي، مرّ أمام السيّدة بليندر التي تراجعت وهي تحدّق فيه. انتظرت روزا على عتبة الباب المؤدّي إلى الشارع، وهي تُفرج في صمت عن إشارات سلبية، ووجها طافح بالدموع. فجأةً، أوقفهم السيد بليندر، وقال، وهو يشير إلى باب الخدمة:

- ليس من هنا! أخرجوه من هناك!

على روزا أن ترافقهم. تسير في المقدّمة، وطيلة المسافة، تلتفت إلى الوراء في كلّ خطوةٍ تخطوها، كما لو أنّها لم تصدّق عينيها.

تسأله:

- لماذا؟

يُجيبها:

- ما الذي يدريني، لقد حدثت أمورٌ كثيرة. كيف حالكِ؟

أعادت السؤال عليه:

- لماذا؟

هزّ كتفَيه. فتحَت الباب المقوّى بقضبان حديدية ودعَتهم يمرّون. وقبل لحظةٍ من إصعاده إلى داخل العربة، نجحت روزا في أن تسأله، مثل أمٍّ:

- ماذا أكلتَ؟

خرج من حالة أحلام اليقظة حينما نفد الماء من إبريقه.

استخدامه الوعاءَ لشرب المتّة هو من بين أفضل ما حصل عليه أثناء الأسابيع الأخيرة. في الحقيقة، كان عبارة عن فنجان قهوة؛ فقد اكتشف عدّة مصّاصات لشرب المتّة في أحد أدراج المطبخ، واعتقد أنّ لا أحد سيكتشف أنّ مصّاصة منها قد نقصت. تشرب روزا يوميًّا المتّة، ولذلك هناك على الدوام علبة منها في متناول اليد. في البداية، يشرب ماريا المتّة باردةً، ولكنّه بعد ذلك بدأ يتسخين الماء... خرج حينئذٍ من حالة أحلام اليقظة ولاحظ بأنّه لم يسمع قطّ هدير المِكنسة الكهربائية. انحنى ونظر إلى غرفته.

كان الباب مغلقًا. تُرى هل لا تزال روزا في الغرفة؟ بدا له احتمالًا ضعيفًا أن تكون روزا قد حبست نفسها في الغرفة لتنظيفها. لا شكَّ أنّها قد انتهت منها وغادرتها. والحالة هذه، انتظر قليلًا قبل أن يعود إلى الغرفة. انتظر وهو يتفحّص بعض الصناديق المكدّسة في المستودع، ووجد فيها قبّعات وأواني مطبخ من أطباقٍ وسواها. كثيرٌ من الأشياء الموجودة في المستودع يمكنها أن تفيده في هذه الحالة، وفي كثير من المناسبات. ألقى نظرة عليها لأكثرَ من مرّة واستخدمها، عثر على عدد من الشالات والبطانيات القديمة، وعلى علبة صدفية اللون تحتوي على أوراق لعبٍ (يلعب بها لعبة السوليتير الفردية)، وأخيرًا مُشعّل أقراص، وهو من ماركة سوني، ولا بدّ أنّه يخصّ أحد أطفال أو أحفاد الزوجين بليندر. لم يكن فيه بطّاريات، ولم يعثر على السمّاعات، فبحث عنها من دون جدوى. لم يمنعه ذلك من اتّخاذ القرار. وضعه في حقيبته، فأحسّ، برهةً، بأنّه في حطام سفينة، كما لو أنّه روبنسون كروزو وهو يلتقط من الحطام كلّ ما قد يكون مفيدًا له. حان الوقت ليغادر المستودع. أغلق حقيبته وعاد إلى جزيرته.

صار هواء الغرفة طازجًا ومنعشًا. لا يزال الكتاب على السرير. حينما كان ماريا موجودًا في المستودع، توقّع أن تعثر روزا، في لحظة أو أخرى، على عَظم الدجاجة، وأن تذهب، دهِشَة، لتُريَه السيّدة بليندر. من الواضح أنّها لم تعثر عليه. بخلاف ذلك - ولكونه «دليل إثبات طازج» فلن يصدقه أحد، سيذهبون إلى القول بأنّ الأمر يتعلّق بعَظمٍ قديمٍ جُلِبَ ونُسيَ هنا، لا أحد يعرف متى ولا ممَّنْ- من شأنه أن يحول حُلمه إلى حقيقة. ولذلك، أوّلُ شيءٍ فعله هو البحث عن العَظم جاثيًا على ركبتيه في كلّ الغرفة. ولكنّه هو –أيضًا- لم يعثر عليه.

قرّر أن يفتح النافذة. ينبغي له أن يستغلّ الفرصة؛ لأنّ روزا هنا قبل لحظة ويمكن على الدوام الاعتقاد بأنّ النافذة لم تُغلَق على نحو جيّد. فاض النور في الغرفة. نظر ماريا إلى الخارج. بدت السماء متردّدة: هل سوف تتلبّد بالغيوم أم تصبح صافية؟ كانت حركة تنقّلِ الناس مثل كلّ يوم في هذه الساعة من النهار؛ قال في نفسه إنّ الساعة تشير إلى الثانية من بعد الظهر.

في ورشة البناء، لا بدّ أنّ زملاءه انتهَوا من تناول وجبة الغداء. هل يشتاق إلى شيءٍ ما في الخارج؟ اللحم المشويّ. قبل ثلاثة أيام خلت، تناول لحمًا مطبوخًا في الفرن... السجائر. لم يكن قطّ مدخّنًا شرهًا، ولكنّه رأى، في الأسفل على مسافة عشرة أمتار، على الرصيف، رجلًا يمرّ وهو يدخّن وتملّكته رغبة كبيرة في أن يفعل مثله. فأدرك حينئذٍ أنّ أكثرَ ما يشتاق إليه هو الروائح. رائحة اللحم المشويّ، ورائحة السجائر. ورائحة روزا.

منذ أن اختبأ في المنزل، لم يشمّ سوى رائحة الرطوبة. تُرى هل يُدخَّن السيّد أو السيّدة بليندر؟ يتمّ الطبخُ في مطبخ المنزل في الظهيرة والمساء، ومع ذلك لم تصلِ الرائحةُ إلى الطابق العلويّ. ولكن لماذا يشمُّ رائحة التبغ؟ عقد العزمَ على أن يقوم، في الليلة اللاحقة، بغارةٍ على صالون الطابق الأرضيّ ليتحقّق إن كان السيّد أو السيّدة بليندر يدخّنان، وإذا كان هذا هو الحال، فسوف يسرقُ منهما سيجارة. في الغرفة أو في أيّ مكانٍ آخرَ من الطابق الأعلى، بوسعه أن يدخّن من دون أن يخشى انكشافَ أمره، بل بوسعه أن يفعل ذلك أمام النافذة المفتوحة جزئيًّا وهو ينظر إلى الخارج، مثلما هو الحال في هذه اللحظة.

أمضى وقته في فترة ما بعد الظهيرة بالمطالعة. حينما مالت شمس النهار نحو الغروب، مارس الرياضة البدنية. ثمّ ذهب إلى المرحاض، واغتسل، ثمّ أخذ قيلولةً. في الساعة الثانية صباحًا، نزل إلى المطبخ بحثًا عن وجبة للعشاء، ولأنّ روزا على ما يبدو لم تلاحظ أيّ تغيّرٍ في كميّة الأطعمة، أخذ -أيضًا- وجبة للفطور. ومن ثَمَّ، يتغذّى على نحوٍ أفضلَ، ويتعرّض لمخاطرَ أقلَّ.

بعد أن تناول العشاء، راح يجولُ في المنزل، وهو عارٍ تمامًا مثل دودةٍ. لقد قرّر أن يترك بعد الآن حقيبتَه في المستودع، حيث من الصعوبة بمكان أن يتمّ ملاحظتها بين الكثير من الأشياء الملقاة هناك، وأيضًا لكيلا يضطرّ إلى أن يأخذها معه كلّما خرج من الغرفة. تنقّل بدقّة وخِفّة شديدتين حتّى بدا كأنّه ساكنٌ لا يتحرّك، كما لو أنّ الأرضية تحمله وتطوف به. رجلٌ على بساط متحرّك. والأمر نفسه فيما يتعلّق بقفزاته. لم يقفز مثل راقصٍ، أي معلّقٍ في الهواء، بل على العكس تمامًا: خطا خطواتٍ واسعة، ولكنّ ثقَل جسمه أبقاه على سطح الأرضية. في استطاعته أن يقفز لأكثر من ثلاثة أمتارٍ من نقطة الارتكاز من دون أن يُقلِع عن الأرض. في النهاية، كانت إحدى قدميه تهبط قبل لحظةٍ من إعادة القفزة. تحوّل جسده آنذاك إلى سلسلة من المنحنيات المتتالية، قوّة محضة مندفعة إلى الأمام.

عاد بعد ساعةٍ إلى غرفته. لا تزال النافذة مفتوحة والسماء صافيّة، ومن حينٍ إلى آخرَ، تمرّ سيّارة، ولكن لم يكن هناك أيّ أثرٍ للمشاة في الشارع. ينيرُ القمرُ مثل حجرٍ مشعّ. استلقى على سريره. كان على وشْك أن يغطّ في

النوم حينما سمع صوت خشخشة خفيفة على سطح خزانة الثياب. لم يتحرّك. على ما يبدو كان غير مهتمٍّ بمعرفة إن خرج الجرذ أم إنّه لا يزال في الغرفة. بات يعرف الآن أين عَظمُ فخذ الدجاجة.

- طابت ليلتك.

سمع صوت نفسِه، وفوجِئ به. فهو لم يسمع صوته منذُ زمنٍ طويل.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

8

بعد ظهيرة أحد الأيام، سمع أصواتًا «جديدة» في المنزل. منحنيًا من فوق درابزين سلّم الطابق الثاني، استطاع لحظاتٍ أن يرى رجلًا يرتدي بزّةً داكنة اللون وامرأة لم تكن، من هناك حيث يراها، سوى شعرٍ مستعارٍ أصفر اللون يعلو فوق زوجٍ من الأحذية، طرفاهما يظهران ويختفيان بحركة هستيرية تحت حواشي ثوبٍ أبيضَ، مثل بيضة مسلوقةٍ تهتزّ وتتراقص في طبقٍ. كان ذلك يوم الثلاثين من شهر أكتوبر/ تشرين الأوّل، يوم عيد ميلاد السيّدة بليندر. لم يستطع ماريا أن يعرف ما العمر الذي تحتفل به السيّدة بليندر، ولكنّه علِمَ على الأقلّ بأنّ اسمها ريتا، وأنّ ضيوفَها المدعوّين من الأصدقاء المقرّبين، وربّما الوحيدين.

تذهب روزا وتأتي (تدخل في حقل رؤية ماريا، ثمّ تخرج منه)، وبين يدَيها صينيةٌ من المعجّنات. تجولُ في إيقاعٍ مزعجٍ ومستفزٍّ، كما لو أنّه قد طُلِب منها أن تقدّم في كلّ مرّة قطعة واحدة من المعجّنات، الأمر الذي لا بدّ وأنّه يُرهق المدعوّين، بل يُثير غضبَهم، مع أن أصواتهم الصاخّبة كانت توحي بالفرح الغامر.

في لحظةٍ محدّدة، اختفى الجميع؛ إذ ذهبت روزا إلى المطبخ، وتحلّق الزوجان بليندر وصديقاهما حول طاولة الصالون. ظلّ ماريا يسمع نُتفًا من الأحاديث الجارية بينهم، حتّى اللحظة التي سمع فيها أحدهم يتقيّأ خلف ظهره. تراجع إلى الوراء حتّى وصل إلى واحدة من النوافذ المطلّة على جادة ألفير وفتحها. رجلٌ شابّ، أو هو أقرب إلى الشباب، يتقيّأ أمام مدخل المنزل الرئيس.

أغلق النافذة ثانيةً، وكما لو أنّ الأمر يتعلّق بمصراع ([1]) آلة تصوير، رأى من جديد الصورة المحفورة في شبكية عينيه: ذاك الرجل هو، من دون أدنى شك، الرجل الذي ظهر في صورة وحيدة من الصور المؤطّرة والموضوعة على المنضدة. بدأ جرس الباب بالرنين.

نزل ماريا، بفضول، إلى الطابق الأوّل. والنبرة العامّة للاستقبال نبرةُ استياء وانزعاجٍ، نبرةُ حُسن استقبالٍ زائف.

قال الأب:

- ألفارو...!

سألت الأمّ:

- كيف جئت إلى هنا؟

الأب:

- اجلس...

الأمّ:

- هل تناولت طعامًا؟

ألفارو:

- ها أنتِ ترين بأنّني تذكّرت! عيد ميلاد سعيدّا! دكتور... سارا... كيف حالكما؟ صباح الخير، أبي العزيز! ماما، أقسمُ إنني سأجلب لكِ الهدية غدًا. إذن يا دكتور، ماذا عن البيرو، هل سنبيع لها أسلحة أم لا؟

الأمّ:

- ألفارو، من فضلك...

بعد ذلك، تحدّثوا أكثر من ساعة عن كرة القدم. لم يهتمّ ماريا بكرة القدم قطّ، لكنّ ذلك لم يمنعه من الوقوف ليُصغيَ إلى الحديث: إذ لم يكن واردًا أن يغادر الحفلة لأنّ موضوع الحديث لم يشغله؛ فهو لا يحظى غالبًا بفرصة سماع ثرثرة مزيّفة ولكنّها لطيفة.

من الواضح تدفُّق الكحول في عروقهم بغزارة. أصبحت الأصوات، ومواضيع النقاش، بل حالات الصمت مائعةً ومشوّشةً. وضع أحدهم أسطوانة موسيقى. منذ متى لم يُسمع القليل من الموسيقى في هذا المنزل؟ لم يسمع ماريا نغمة واحدة على الإطلاق، حتى من المنازل المجاورة. أحسّ أنّ هذه هي المرّة الأولى، منذ أجيال، التي يتمّ الاستماع إلى الموسيقى في هذا المنزل. سبق له أن كوّن فكرةً عن طبيعة الناس من أمثال الزوجَين بليندر، بحيث إنّ الموسيقى التي وضعوها لم تكن مناسبة (ألبوم لمغنّي البوب المكسيكيّ كريستيان كاسترو)، واستنتج منها بأنّ أهمية الموسيقى للزوجين بليندر مثل أهمّية الأدب للملاكم؛ ولم تخصهما الأسطوانة، وإنّما تخصّ روزا.

ومثلما ظلّ ماريا يُصغي إلى أحاديهم، ظلّ يستمع إلى أغاني الأسطوانة. وعلى أنّ كرة القدم لم تهمّه على الإطلاق، إلا أنّه يعشق أغاني كريستيان كاسترو. فضلًا عن ذلك: إذا لم يكن مخطئًا، فإنّه هو منْ أهدى هذه الأسطوانة إلى روزا. يعرف بأنّه قد أهدى إليها أسطوانة من أسطوانات كريستيان كاسترو، ولكن، لم يكن لديه الوقت الكافي لينسخ الأسطوانة قبل أن يقدّمها إليها - ومن ثَمّ، الإصغاء إليها وحده، لدى عودته من العمل- ولذلك لم يعرف أهذه هي الأسطوانة التي أهداها لها أم أسطوانة أخرى. فجأةً، خفّض من درجة التحسّب والحذر، فغفا.

كان هذا عندما حدث شيء غير عادي، (ليس ما جرى لاحقًا. ما جرى لاحقًا لم يكن سوى خيانة).

غافيًا كما هو بفعل الموسيقى، لم يُلاحظ ماريا أنّ السيّدة بليندر غادرت الطاولة أثناء تناول الوجبة، أو خرجت من الصالة، وأنّها التقت ضيفهم عند وسط السلّم.

من حيث المبدأ، لم يكن أيّ شيء في تصرّف أيّ منهما يدفع إلى الظنّ بأنّهما عاشقان؛ على العكس من ذلك: كان من الواضح بأنّهما، ولسنوات عديدة، صديقان مقرّبان جدًّا، حتّى إنّه لم يعد هناك ما يقولانه بعضهما لبعض، ولكنّهما - أيضًا- سئما من شوق بعضهما لبعض في السر. كانتا الرغبة وكبتها بينهما قويّان جدًّا، حتّى إنّه حينما التقيا في وسط السلّم (أحدهما يصعد، والآخر ينزل) كان الأمر كما لو كانا غرباء.

ابتعد ماريا حينما لاحظ بأنّهما لا يزالان قريبَين منه. ثم قرّر أن يقترب قليلًا. لم يستطع أن يراهما، ولكنّه بات يسمعهما بكلّ وضوح. تبدو قلقة ومتضايقة بعض الشيء. قالت ريتا بليندر:

- وفجأةً شعرتُ بفراغٍ كبيرٍ جدًّا، كبيرٍ جدًّا إلى درجة أنّه بدا لي أنّ هذا الفراغ يشملني كلَّ الشمول. لا أدري إن كان له صلة بالدين، ولكن هناك احتمالات قويّة لأن تكون كذلك على الأرجح. أشعر كما لو أنني أنضح أعراض الانسلاخ من الدين، كما لو أنني أتعرّقه. في البداية أشعر بأنني فارغة تمامًا، ومن ثمّ مشبَّعة، نعم مشبَّعة كليةً، ولكن مع توق للدخول في مرحلة النكوص. دائما يحضر في ذهني ما قاله ابيكتيتوس... أنت تعرف مَنْ هو ابيكتيتوس، أليس كذلك؟

ساد الصمت.

تخيّل ماريا أنّ الرجل يجيب سؤالها موافقًا بغموض.

أضافت السيّدة بليندر:

- كان ابيكتيتوس يقول إنّه حينما لا يعود الربّ قادرًا على أن يزوّدنا بالإيمان أو الحبّ أو أيّ شيء كان، فهذا لأنّه يعطينا إشارة بأن نتراجع. فقط يفتح الباب ويقول لك: «تعال»، فتردّ: «إلى أين؟»، فيُخبرك حينئذٍ: «ليس إلى مكانٍ محدّد؛ فقط ارجع من حيث أتيت، إلى الأشياء الحميمية والأماكن التي بينك وبينها ألفة وانجذاب، ارجع إلى العناصر».

ساد الصمت من جديد.

قال ماريا في نفسه إنّ السيّدة بليندر تنظر بثبات إلى الرجل وهي تنتظر تعليقًا. وتخيّله وهو يبحث يائسًا عن شيءٍ ليقوله. سمعه وهو يتنحنح.

انتهى إلى القول:

- في بعض الأحيان، أظنّ بأنّني أعرف كلّ شيء وفي أحيانٍ أخرى، أظنّ أنّني لا أعرف أيَّ شيء. عزيزتي، في هذه اللحظة، لا أعرف أيّ شيء. صدّقيني، لا أعرف ماذا أقول لكِ.

توقّفا عن الحديث برهةً، فساد الصمتُ. ثمّ، وبعد ذلك في الحال، تنفّست السيّدة بليندر وهي تملأ رئتَيها بالهواء كما لو أنّها قد أخرجت من فورها رأسها من تحت الماء، وبدأت تنزل السلّم. أمّا الرجل فقد تبعها مع أنّها صادفته وهو يصعد السلّم.

سمِعَ ماريا حينئذٍ صوت زجاجٍ يتكسّر. نظر إلى يمينه، نحو سلّم جناح الخدمة، المكان الذي صدر منه الصوت ووصل إليه كما لو أنّه قد نُقِل عبر قناةٍ. ذهب إلى هناك. سمع وهو ينزل صوت إصفاق بابٍ، وسمع صوت شخصٍ يُقاوم، ومن ثمّ سمِع من جديد صوت إصفاق الباب. ثمَّ ساد الصمت المكان. مدّ ماريا نصف وجهه على الدرجة الأولى من السلّم، في نهاية الممرّ، فنجح في رؤية ألفارو.

باب غرفة روزا مفتوحٌ. وألفار، مديرًا ظهره لماريا، يسند أحد كتفَيه على الجدار. كان يحاول أن يبعد كتفه عن الجدار، لكنّ ساقَيه المرتعشتَين لم تكونا تساعدانه. نجح في ذلك أخيرًا، فذهب مترنّحًا حتى وصل إلى المطبخ، حيث تملّكه الهياج والإثارة من جديد.

سمع ماريا صوت روزا وهي تقول:

- هذا يكفي يا ألفارو، كلا!

- تعالي دقيقة واحدة... دقيقة واحدة فقط...

- دعني وشأني!

- لا تكوني شريرة...

لم يجرؤ ماريا على الاقتراب أكثر ليتجسّس على ما يحدث في داخل المطبخ، ولكنّه لم يكن بحاجة إلى ذلك قطّ: فمن الواضح أنّ ألفارو يحاول أن يغتصب روزا. شدّ على قبضته. بل وشدّ على أصابع قدمَيه على حرف درجة السلّم. ما الذي يفعله لو أنّ روزا لم تستطع أن تتخلّص منه؟ تُرى هل سبق له وأن اغتصبها، هل اغتصب عشيقته العزيزة، في مناسباتٍ أخرى؟

خرجت روزا من المطبخ وهي ترتّب هندامها، وركضت لتخبّئ نفسها خلف بابٍ في نهاية الممرّ. خرج ألفارو بعد برهةٍ من خروجها.

صرخ:

- روزا!

رسم حلقة بقدميه وسار في أعقاب روزا بطريقة مستقيمة على نحوٍ مدهش، كما لو أنّه يرسم بالتراب بالونًا وخيطه.

ظلّ ماريا في المكان برهةً، وقد شلّه الغضب الشديد. ثمّ صعد السلّم مرّة أخرى ليراقب من جديد ما يحدث في الصالة، ولكنّه لم يسمع صوت أحدٍ يتحدّث مع أنّ الموسيقى قد صمتت، فانحنى لينظر ويرى روزا وهي تتوجّه نحو المطبخ، وبين يديها صينية. رآها مرّة ثانية بعد برهةٍ. الآن على صينية روزا أربعة أكواب (وليست خمسة، الأمر الذي جعله يعتقد بأنّ ألفارو قد أقصي من حفلة شرب نخب السيّدة بليندر) وقارورة كونياك. سمع ماريا صوت روزا تخرج من الصالة.

صعد إلى الطابق الثاني، وركض حتّى وصل إلى الجناح الشرقي من المنزل، وتلصّص من بين ستائر إحدى النوافذ التي تطلّ على الحديقة. يجلس الزوجان بليندر وصديقاهما حول طاولة صغيرة بيضاء اللون؛ جاءت روزا ووضعت الأكواب على الطاولة وعادت أدراجها. لم تكن هناك أخبارٌ عن ألفارو.

رآه بعد لحظة بمحض المصادفة. ثم وبينما كان يمرّ من أمام واحدة من غرف النوم في طريقه عائدًا إلى الطابق الأعلى، سمع أصوات شخير. توقّف، قلقًا. قال في نفسه بأنّ الشخص الموجود في الداخل ربّما قد رآه وهو يتوجّه نحو الغرفة: قبل ذلك ببضع دقائق، لم يكن هو نفسه بعيدًا عن المكان. ثمّ نظر إلى الداخل. كان ألفارو ممدّدًا على بطنه على السرير، مرتديًا ثيابه كاملةً، بما فيها الأحذية وربطة العنق. يبدو بأنّه انهار هناك.

قتل ماريا رئيس العمّال من دون غضب. بالأحرى، فعل ذلك وهو يتذكّر الغضب، بعد عدّة ساعات من تجربته، كما لو أنّ الغضب قد تلاشى، ليعيدَه إلى سببٍ جديدٍ نابعٍ منه. فعل القتل متعمّدًا، ولكن لا التفاصيل ولا الطريقة - المتروكة للارتجال، ولدافع اللحظة- كانت كذلك، حتّى وإن كان الغرض النهائي له هو قتله. حين جاءت اللحظة، تجوّل في أطراف ورشة البناء، وابتعد عن المكان، ثمّ عاد وابتعد مرّة أخرى: من دون أن يستعجل. في الساعة السادسة والنصف، وربّما بعد ذلك ببضع دقائق، حينما تأكّد أنّه سيجده وحيدًا - إذ إنّ رئيس العمال دائمًا آخر مَن يغادر- دخل إلى الورشة. كان هادئًا. حتى إنّه لم يفكّر في تدبير ذريعة الغياب عن مكان الجريمة. لم يفكّر في

النتائج. نظر رئيس العمّال إليه، محدّقًا في عينيه، وعرف بأنّ هذا الرجل سيكون آخر مَنْ يراه.

جمَّده الرعب الذي تلا هذا اليقين، حتى إنّه لم يحظَ بالوقت ليبتلع ريقه.

قال ماريا في نفسه إنّ ألفارو، حتى وإن كان نائمًا وثملًا، أو ربّما لهذا السبب بالضبط، سوف يقاوم أكثر ممّا قاوم رئيس العمّال. من جهة أخرى، لم يكن يمسك في يده حجرًا، مثلما كان الحال بعد ظهيرة يومذاك في ورشة البناء. سيكون عليه أن يُمسك به أو... رأى قضيبًا لتحريك النار إلى يمينه. قال في نفسه أنّ ضربتين أو ثلاث ستكون كافية لتهشيم جمجمته. تخيّل في ذهنه كلّ المشهد: الضربة الأولى... يُدير ألفارو رأسه لينظر إليه... الضربة الثانية على جبينه... يسيل الدم... وفجأة أحسّ بأنّه متعبٌ كثيرًا، كما لو أنّه قد فعل ذلك بالفعل لتوّه.

خرج من الغرفة وعبر ببطء الصالة وسط العتمة، متوجّهًا نحو السلّم. في منتصف الطريق، سمع صريرًا. استدار لكي ينظر. كان أحد مصاريع نافذة يُغلَق ويُفتّح من جديد ببطء... إنّها الرياح، ولا شيء سواها، ولكنّه مع ذلك أسرع الخُطى.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

9

بدأ فصل الربيع فعليًّا في أواسط شهر نوفمبر/ تشرين الثاني. يرى ذلك في الخارج، في الشارع، في الحديقة. بدأ على نحوٍ أبكر، ولكنّه استغرق وقتًا حتى يُشعَر به في المنزل أيضًا.

الطابق الأعلى وكذلك الطابق الثالث لا يزالان رطبَين ومعتمين، ولكنّ درجة الحرارة ارتفعت فيهما أثناء الأسابيع الأخيرة بمقدار درجة واحدة كلّ يوم، إلى أن وصلت إلى حدٍّ بات المرء يشعر بأنّها درجة الحرارة نفسها في الخارج.

أحسّ ماريا بأنّه أحسن حالًا: ينام وقتًا أطولَ بقليل، وبات الطعام أكثرَ نكهةً ومذاقًا إليه، وصار يأخذ وقتًا أطولَ تحت رشّاش الماء في الحمّام... حتّى نزهاته داخل المنزل أصبحت أطول وقتًا. وكلّ هذا لأنّ ثقته، هي الأخرى، قد تنامت: إذ لم يظهر ألفارو ولا الشرطة مرّة أخرى، وكان السيّد والسيّدة بليندر يمضيان وقتًا أكثر خارج المنزل، وظهوره في الطابقين الثاني والثالث أصبح شبه كاملٍ بكلّ معنى الكلمة. منذ زمنٍ طويلٍ جدًّا، يتعرّف على صوت وقع خطى سَكَنَة المنزل: والآن بات يعرف إلى أين يذهب كلّ منهم، وما هي اهتماماته، بل وما يفكّر به. يعرف روتين حياتهم اليومية، ونزواتهم، وتنفّسهم، وطريقتهم في فتح الأبواب وإغلاقها، يعرف من جاء ووضع كأسه على الطاولة... مثل رجلٍ أعمى؛ لأنّه لم يرهم قطّ، أو نادرًا جدًّا. دخل مرّتين أو ثلاث مرّات إلى غرفة الزوجين بليندر، كما كونّ عنهما تصوّرًا جسديًّا وذهنيًّا. فقد نبش في أدراج خزانتهما، ورأى في كلّ مرّة عددًا مختلفًا من مجلة ريدرز دايجست على طاولة سرير السيّد بليندر والصحيفة على طاولة سرير السيّدة بليندر، وهناك على الدوام كأسُ ويسكي فارغةٌ فوقها. تشرب ريتا بليندر الويسكي في السرير وعلى الأرجح في أيّ مكانٍ آخر، مثل ابنها. وفي النهاية، اكتشف أنّ رجلًا بدأ يتّصل عبر الهاتف مع روزا.

تزامن هذا الاكتشاف مع اكتشاف آخر، وذلك بسبب شغفه في اعتراض جميع أشكال التواصل مع روزا. مجرّد فكرة أنّ روزا تعانق رجلًا آخر تعذّبه. ذات يومٍ، في فترة ما بعد الظهيرة، حينما تلقّت روزا واحدة من تلك المكالمات، صعِد ماريا، مدفوعًا بالغَيْرة، السلّم راكضًا، ورفع سمّاعة هاتف الطابق الثالث. ولكنّه لم يسمع سوى الطنين. نزل من جديد بأقصى سرعة. لا تزال روزا تتكلّم، الأمر الذي يعني أنّ هناك خطّين هاتفين في المنزل.

لم يعد يهتمّ كثيرًا، في تلك اللحظة، بمتابعة محادثة روزا. ضاحكًا من شدّة السعادة، ظن أنّه قد اكتشف اكتشافًا استثنائيًا. قال في نفسه: « لديّ هاتف!». اكتشافٌ مؤثّرٌ للغاية إلى حدٍّ جعله يضحك فرحًا. في استطاعته أن

يتكلّم معروزا، أن يتّصل بها ويتكلّم معها من دون أن تشكّ في أنّه على بعد بضعةِ أمتارٍ فقط منها.

عاد إلى الطابق الثالث، وأمسك بدليل الهاتف وبحث عن رقم آل بليندر. هناك سبعة أرقام باسم آل بليندر في الدليل.

بدأ بالرقم الأوّل. أدخل الرقم، وبينما يرنُّ الهاتف على الطرف الآخر من الخطّ، اكتشف أنّه لم تكن لديه أيّ فكرة عمّا سيقوله. أغلق السمّاعة. لقد استجاب لدافعٍ الحديث مع روزا، ولكنّه هل فكّر فيه جيّدًا؟ ثم، بذل جهدًا وفكر.

أحسّ بدوخة تجتاح جميع أنحاء جسمه. دوخة - كما يحدث عادة- تبدأ في رأسه. ثمّ رفع السمّاعة وأدخل من جديد الرقم الأوّل في القائمة.

كان الرقم مشغولًا.

أغلق السمّاعة، وأعاد إدخال الرقم. لا يزال الرقم مشغولًا. لم يستطع أن يصدّق ذلك. إنه على بعدِ طابقين من حبيبته، ولم يزلِ الرقمُ مشغولًا!

ظلّ الرقم مشغولًا مدّة نصف ساعة أو أكثر. ماريا مستعدٌّ لأن ينتظرَ (كان لديه كلّ الوقت: لم يكن هناك أيّ شخصٍ لديه الوقت بقدر ما لدى ماريا)، ولكنّه سمع صوت الباب المطلّ على الشارع ينفتح وصوت الزوجين بليندر اللذين همّا بالدخول إلى المنزل (وهما يتشاجران). ولذلك أخذ الدليل والهاتف (كان جهازًا لا سلكيًا، على شكل هلالٍ من الزجاج الإكليريك الشفّاف مع كلّ الأسلاك والقطع الظاهرة أمام عينيه، جهازٌ يبدو أنّه قادمٌ من كوكبٍ آخرَ)، وصعد به إلى غرفته.

أغلق الباب من خلفه، وأدخل الرقم من جديد.

الآن، رنَّ الهاتف.

(رائع).

رنّ الهاتف سبع رنّات قبل أن يُجيب صوتُ امرأةٍ على الطرف الآخر من الخطّ: - مرحبًا!

أغلق ماريا السمّاعة مباشرةً.

يبدو أنّ هذا ليس صوت روزا. قال في نفسه: «حسنًا، ليس لديّ أيُّ دليلٍ على أنّني أتّصل مع المنزل الذي أقيم فيه». في الواقع، ربّما لم يكن هذا الرقم هو رقم منزل الزوجين بليندر الذي يقيم فيه. لن يعلم أنّ الحظّ قد حالفه في

العثور على الرقم الصحيح مع الرقم الأوّل إلّا إذا طلب التحدّث مع روزا وحوِّلت إليه بالفعل. لذلك أدخل الرقم من جديد.

بينما رنّ الهاتف، تساءل عمّا سيقوله لو أنّ السيّدة بليندر هي منْ ردّت عليه...

هذه المرّة، ردّت المرأة على المكالمة الثانية قبل أن يبدأ ماريا بالحديث.

قال برعونة:

- ألو، طاب مساؤكِ. هل يمكنني التحدّث إلى روزا؟

- أيّ روزا؟

أغلق السمّاعة.

لم يكن الرقم صحيحًا.

شعر بالارتياح لأنه كان الرقم الخطأ، الأمر الذي خفّف عنه بصورة غير منطقية بحيث أدخل على نحوٍ متسرّع الرقم التالي، كما لو أنّه أدرك في الحال أنّ هذا التصرّف حيال الهاتف سيكون كافيًا لتعديل تركيبه الجيني نهائيًّا.

ردّت امرأةٌ أخرى عليه.

- طاب مساؤكِ. هل يمكنني التحدّث إلى روزا؟

- مَنِ المتّصل؟

- صديقٌ... صديقٌ لروزا. هل هي موجودة؟

- ليس لدينا أحدٌ باسم روزا هنا...

أغلق السمّاعة.

أدخل الرقم التالي:

- طاب مساؤك، روزا موجودة؟

- أنت مخطِئ في الاتصال.

كانت هي الأخرى امرأة.

فكّر أنّ كلّ الأسر التي كنيتها بليندر كانت، لهذا السبب أو ذاك، بالقرب من هواتفها في ذلك المساء، فأغلق السمّاعة. أدخل الرقم التالي.

بينما رنَّ الهاتف، أحسّ فجأةً بنفسه يغرق في عالم المصادفة. كان قد صالب ساقيه، مثلما كان يفعل في منزله، عندما يجلس من أجل الاستماع إلى نتائج

سحب اليانصيب من المذياع. حتى في هذه اللحظة، صار يُعاني من خفقانٍ...

- مرحبًا!

أيضًا صوت امرأة.

- مرحبًا!

صمت ماريا برهةً. إنّها هي! إنها روزا!

عيل صبرُ روزا، فأغلقت السمّاعة.

أدخل ماريا الرقم من جديد بإصبعٍ صارمة من اليد اليمنى. ولكنّ يده اليسرى (الموضوعة على دليل الهاتف، والسَّبّابة تشير إلى الرقم) ترتجف.

قالت روزا:

- مرحبًا!

سأل ماريا:

- روزا؟

- نعم، أنا روزا. منْ المتّصل؟

نبرة صوت روزا غير مبالية، ورسمية، كما لو أنّ، بعد تحدّثها مع «الرجل الذي اتّصل بها»، أيّ صوت آخر عدا «صوته هو» لا بدّ وأن يكون صوت الزوجين بليندر، الأمر الذي لا يعود يهمّها، كما لا يهمّها أيّ شيءٍ آخر في العالم.

لاحظ ماريا ذلك. حدث وهو مع روزا إذ اتّصل أحدهم ليتحدّث مع الزوجين بليندر، يعرف نغمة صوتها، وصيغته، وأطيافه الدالّة على اللامبالاة التي بالمقابل تمنحها أهمّية. الآن، لم يعد يشعر بالغَيْرة، وإنّما بالألم. فقط الألم.

أجاب بنبرة من طُرِد من العالم مع قطعة نقدية وحيدة في يده، وجهاز هاتفٍ بقربه: - أنا ماريا.

سألت:

- مَنْ؟

- ماريا، يا روزا. هذا أنا. كيف حالكِ؟ ألو! روزا، هل تسمعينني؟

- ماريا؟

- نعم، هذا أنا. هل أنتِ بخير؟

- ماريا؟

- نعم...

- ماريا، هذا أنت؟

- نعم، نعم...

- ماريا، يا إلهي، احلف لي إنّكَ ماريا...

قبّل ماريا أصابعه المضمومةِ على شكل صليب؛ إذ بدا عليه التأثّر.

كرّرت:

- احلف لي.

- أُقسم لكِ على ذلك.

سادت لحظة صمت.

- ماريا...

- أنتِ متفاجئة...

- أين كنتَ؟ ما الذي حدث لك؟

تلعثم ماريا وقد بدا أنّه يُريد القول بأنّ «هذه حكايةٌ يطول سردها»، فقال: - أوه، حسنًا...

صرخت روزا:

- لا أستطيع أن أصدّق!

وسمعها ماريا تبكي.

- اعذريني لأنني لم أتّصل بكِ قبل الآن، ولكن...

ساد البكاء.

- روزا، اسمعي، لقد حدثت الأمور بحيث إنّني...

ساد البكاء.

ساد الصمت.

ثم قالت روزا:

- ما الذي حدث؟

- القصّة طويلة...

- أخبرني بها.
- أردتُ أن أقول إنّني، دائمًا... أنتِ، تفهمينني. أحبّكِ. لا أنساكِ.
- هل أنت في بيتك؟
- روزا...
- أين أنت؟ لماذا تتكلّم بصوتٍ منخفضٍ جدًّا؟
- لا أستطيع أن أخبركِ بذلك...
- هل أنت بخير؟ ما الذي حدث؟ يُقال إنّك قتلتَ رئيس عمّال الورشة التي...
- كلّا.
- لماذا يقولون هذا إذن؟ ما الذي حدث، يا حبيبي؟
- ما أجمل «يا حبيبي» حينما تتفوّهين بها.
- ألفظ هذه الكلمة لا إراديًّا.
- ما أجمل أن تلفظي هذه الكلمة لاإراديًّا إلى الأبد!
- ألفظ هذه الكلمة لا إراديًّا، ولكن لأنّني لم أعد أسمع أيَّ خبرٍ عنك...
- هل تخرجين مع أحد؟
- كلّا! لماذا تقول هذا؟
- أنا أسألكِ...
- كلّا على الإطلاق. أنا وحيدة، مثلما كنتُ دائمًا. وأنت؟ متى ستأتي؟ لماذا رحلتَ بهذه الطريقة؟
- سوف ألتقي بكِ...
- إذن، ما يُقال عنك مجرّد أكاذيب؟
- بأنني قد قتلتُ هذا الرجل؟
- نعم...
- بكلّ تأكيد.
- أين أنتَ، يا ماريا؟
- عليّ أن أقطع الاتّصال، يا روزا، لقد أعارني أحدهم هاتفه...

- ألهذا السبب تتحدّث بصوتٍ خفيضٍ جدًّا؟

- نعم. وأنتِ؟ ألم يُغرَم أحدٌ بكِ؟

- لقد سبق وأن سألتني عن هذا. كلّا.

- هل تتذكّريني؟

- في كلّ لحظة.

- أنا أيضًا.

- انتظر، لا تقطع الاتّصال!

- كيف عرفتِ بأنّني كنتُ سأقطع الاتّصال؟

- أنا أعرفكَ. قل لي شيئًا، يا ماريا... لا أعرف شيئًا...

- سأتركككِ الآن.

- كلّا، انتظر!

- سأتّصل بكِ، غدًا.

- لا تقطع الاتّصال!

- سامحيني، ولكن...

- انتظر!

- أحبّكِ.

- ماريا!

قال ماريا:

- مع السلامة، يا حبيبتي، سأتّصل بكِ غدًا. أعشق التحدّث معكِ.

ثمّ أغلق السمّاعة.

شعر أنّ قلبه ينبض في كلّ جسمه.

انتظر إلى أن التقط أنفاسه، ومن ثمّ نزل، بعد مرور بضع دقائق، فأعاد جهاز الهاتف إلى مكانه. لدى العودة إلى غرفته، استلقى على ظهره، واستعاد في ذهنه كلّ ما قالاه بعضهمالبعض. في لحظة معيّنة، سمع صوت خشخشة خفيفة على يمينه. أدار رأسه نحو الخزانة. توقّف برهةً، ثمّ قال للجرذ: - لقد اتّصلتُ بها.

إنَّه يبتسم.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

10

الطابق الثاني، المريح، هو المكان الذي يقضي فيه وقتَه الأكثرَ صفاءً. لقد اعتاد على أن يجلس عاريًا مثل دودة على الأريكة، ممدّد الساقين وواضعًا كعبَيه على الطاولة الخفيضة ليفكّر في احتمالات مغادرة المنزل من دون أن يذهب إلى السجن. فكّر في «الاحتمالات» بالجملة مع أنّه لم ير قطّ ولو احتمالًا واحدًا. لا مكان لديه يذهب إليه. إضافةً إلى ذلك، فهذا المكان أفضلُ حالًا ممّا لو كان في منزله الخاصّ في حال كان حرًّا. لم يفكّر في عبارة «لو أنّي حرٌّ» بمرارة، وإنّما استمتع بذلك: الشارع يعني الإدانة والحبس. هذا ما قاله في نفسه. من جهةٍ ثانية، ما تحسّر عليه في الخارج كان متوفّرًا هنا، حتى وإن لم يستطع الاقتراب منه. كلّ شيء متوفّرٌ عدا السجائر.

لأكثرَ من عشرين عامًا، دخّن علبة سجائر واحدة يوميًّا، وها هو... في الواقع، ليس لديه رغبة حقيقية في التدخين: لكن ما لم يستطع نسيانه هو صورته وهو يدخّن، وأداء هذه العادة. نوى ألف مرّة أن يُقلِع عن هذه العادة السيّئة، ولكن من دون أن يتجاوز أبدًا حدود الفكرة النظرية؛ لأنّه مقتنعٌ بأنّ هذا غير ممكن، ولأنه أخفق سلفًا، فلماذا عليه أن يتحمّل إذن أعراض الامتناع عن التدخين؟ وإذ لم يعد بوسعه أن يدخّن، لاحظ أنّ شيئًا لم يحدث، ولم يشعر بأيّ معاناة، ولا بأيّ اضطراب، ولا بأيّ تعرّقٍ خاص، ولكنّه أيضًا لم يجنِ أيّ فائدة من ذلك: إذ لم يتغيّر أيّ شيء لديه من قبيل الطاقة، والمذاق، والرائحة، بل ظلّ كلّ شيء تمامًا كسابق عهده. منذ أكثر من عشرين عامًا، وهو ضحيّة إدمانٍ زائف.

كيف ذلك؟

رفع قدمَيه عن الطاولة الخفيضة، وصالب ذراعيه، مطرقًا في التفكير. ما الذي فعله بحياته؟ رحلت أمّه مع رجلٍ آخرَ، وفي الوقت ذاته تقريبًا، تزوّج والده من امرأة أخرى. يكرهها ماريا. ويكره والده أيضًا، ولكنّه لم يحتمل العيش بمفرده. سافر ماريا واستقرّ في كابيلا ديل سنيور، في غرفةٍ صغيرةٍ ملحقة بمنزلِ عمٍّ وعمّة تربطه بهما قرابة بعيدة، ولذلك جعلاه يدفع شيئًا زهيدًا لقاء ذلك. إيجار الغرفة رمزيٌّ، إذ يقوم ماريا بأنواع الأعمال كلّها بدوام كامل، وفي الساعات القليلة التي لم يعمل فيها، يقضي وقته في التنزّه وحيدًا في المناطق المحيطة بمكان إقامته، وذلك، غالبًا، بسبب أنّ العمّ مثليٌّ الجنس ويتحرّش به باستمرار. لماذا لم يرحل قطّ؟ هنا يكمن الجانب الرمزيّ في المسألة: الإيجار رخيص جدًّا الأمر الذي جعل ماريا يتحمّل عمّه. ولكنّه أمضى سنواتٍ دونَ أن يتبادلَ كلمة واحدة مع أحدٍ، عدا الشتائم والجمل النمطية. لم يتذكّر أنّه قد حظي طيلة حياته بنصف حديثٍ مع أحد. حتى مع

صديقه الوحيد كان يتبادل الحديث بالنظرات. لم يشاهد التلفاز قطّ؛ إذ إنّ شاشة التلفاز في غرفة الجلوس طالما يتسمّر العم أمامها؟ قرأ كثيرًا، واشترك في مكتبة الإطفائيين المتطوّعين واستعار منها رواية كلّ أسبوع، كان يختار منها الروايات التي تحمل أجمل الصور على أغلفتها أو أكثر العناوين إثارةً. وحالفه - عامّة- الحظّ في اختياراته. وعلى أنّه «فتى وسيم»، إلّا أنّ هناك شيئًا ما فيه لا يسير سيرًا حسنًا مع النساء. إذ يثرن إعجابه إلى لحظة أن يتكلمن. أمّا هو، فعلى العكس من ذلك، فطالما أثار إعجاب النساء إلى اللحظة التي يدركن فيها بأنّه لن يتكلّم أبدًا. ماريا غيرُ اجتماعيٍّ، وجدّيًا، ومنطويًا على ذاته على نحوٍ مفرط. لديه حظٌّ أفضلُ مع العاهرات. فهنَّ كلّهنّ متشابهات، والفارق يتمثّل في أنّ اللواتي لا يطلبن مالًا مقابل النوم معه لديهنّ على الدوام ما يقلنه.

إذن، هو محرومٌ من العائلة، ومن الأحاديث، ومن الأصدقاء، ومن الحبّ، ومن التلفاز. ما الذي يفعله إذن في حياته؟ لم يعرف ذلك. ولكن ذلك لم يكن سوى سؤالٍ؛ ولم يجد الجواب عنه إلّا عندما طرحه على نفسه كثيرًا، عندما طُرِحت كلّ الأسئلة معًا، متداخلةً، ومتراكمة، جاء الجواب كلمة واحدة: روزا.

هذا ما حدث له بأفضل ما يكون وبصورة فورية؛ فمنذ النظرة الأولى، حدث انقلاب في داخله. جذبته روزا مثل مغناطيس. تذكّر أنّه في عصر ذلك اليوم، لدى الخروج من متجر ديسكو، بينما يعبر الشارع ليذهب إلى لقائها، شعر بأنّه منجذبٌ إليها بمعنى الكلمة الحرفي. عبر الشارع مثل الأموات الأحياء، عاجزًا عن التفكير، وهو يجهل تمامًا ما سيقوله لها. لحُسنِ الحظّ، وبالمصادفة، جرى كلّ شيءٍ على ما يُرام، بل على أفضل ما يُرام: تحدّثا قليلًا عن شاكيرا وعن المتجر، ومنذ تلك اللحظة، بات ماريا شخصًا مختلفًا، فرحًا، طلقًا في الحديث، وواثقًا. في ورشة البناء، لم يعد يستلقي على الأرض بالطريقة نفسها.

في بعض الأحيان، يستيقظ في منتصف الليل ولا يعرف أين هو... لا يعرف أين تكون النافذة، وأين يكون الباب... ولا يعود إلى النوم ثانية، إلّا حينما «يُدرك» أنّه كان نائمًا. ولكن حينما يحلّ الصباح، يُشوّش كلّ شيء ذهنه من جديد. الغرف وكلّ شيءٍ من أشيائه الصغيرة وتفاصيلها (مقبض فنجان القهوة، اتجاه ظلّه، وجهته وهو جالس)، يمتدُّ كلّ شيء نحوها هي...

أجل، روزا الشيء الوحيد الذي يتحسّر عليه في العالم الخارجي، الوحيدة التي بالفعل هو في حاجة إليها. ولكن مَنِ الرجلُ الذي يتّصل بها؟

اتَّصل ماريا بها في العشرين من نوفمبر/ تشرين الثاني. وقد وعدها يومذاك بأن يتّصل بها في اليوم التالي، ولكنّه لم يفعل ذلك. ليس لأنّه لم يرغب في ذلك - لو أنّ الأمر يتعلّق به وحده، لاتّصل بها كلّ صباح، وكلّ فترة ظهيرةٍ،

وكلّ مساء. لقد شعر بأنّ روزا قد سمعت صوته من مسافة «قريبة جدًّا»، ولذلك، وفي ظلّ هذا الشكّ، فضّل ألّا يعود ويتّصل بها ثانية ما لم يتلاشَ هذا الشعور (شعوره حول شعور روزا). ومع ذلك، حتى وإن أعقبت ذلك عدّة أيام من الصمت، فإنّ ظهوره من جديد سبّب برودًا بين روزا و«الرجل». فنتيجة المكالمة الهاتفية واضحةً: تفضِّلُه روزا هو على ذاك الرجل.

ولكن من الواضح - أيضًا- بأنّه إذا ما اختفى من جديد، فسوف تُعيدُ روزا إحياء علاقتها مع ذاك الرجل. وهذا ما حدث بالفعل. أصبحت مكالمات الرجل أكثر عددًا يومًا بعد آخرَ. وانتهى به الأمر أن يتّصل بها في أيّ وقتٍ شاء ليلًا أم نهارًا. روزا في بعض الأحيان وحدها، ولكن في معظم الأحيان، السيّد والسيّدة بليندر موجودَان في المنزل، ممَّا يُجبر ماريا على أن يجول جولاتٍ واسعةً في المنزل ليعثر على مكانٍ يمكنه أن يستمع منه إلى المحادثة بينهما. وانطلاقًا ممّا تقوله روزا، من وتيرة وتردّد صوتها، علم أنّ الملاطفة المتصنّعة قد عادت بينهما.

استنتج ماريا من ذلك أنّه لم يكن للرجل أيُّ عزّة نفسٍ ولذلك فهو منافسٌ قويٌّ له؛ لأنّه، حتى وإن اعترى علاقته بروزا البرود، فقد ألحَّ عليها إلى أن أشعل الحرارة في عَلاقتهما. في اليوم الثالث من ديسمبر/ كانون الأول، اتّصل بها ماريا من جديد.

- روزا...

- ماريا! أين أنتَ؟ ما الذي حدث؟

- دعينا لا نعود إلى البداية، من فضلك. هل أنتِ بخير؟

- نعم. أين أنت؟

- أنا في أحسن حالٍ. أخبرتني عصفورةٌ صغيرةٌ أنّكِ على عَلاقة...

- أيُّ عصفورة صغيرة؟

- عصفورة صغيرة؟

- لا أعرف، أنت قلت عصفورة صغيرة...

- صديقٌ، أحد المعارف. لا أدري إن كنتِ تتذكّرين ذلك، ذات يوم خرجنا من الفندق الصغير في منطقة باجو، صادفناه وعرفّتكِ عليه...

- لا أتذكّر ذلك...

- لا يهمّ. أخبرني بأنّه قد رآكِ أمس مع رجلٍ...

- هذه كذبة.

- ولماذا سيكذب عليّ؟

- وماذا يُدريني، أنا لا أعرفه! ولكن أخبره بأن يكفَّ عن إلقاء الكلام على عواهنه، وأنّ هذا الكلام غيرُ صحيح.

- هل أنتِ متأكّدة؟

- ماريا، حبيبي، ماذا يحدث، أين أنت، لماذا لم تأتِ؟ أرجوك لا تتركني على هذه الحال. قل لي شيئًا، حتى لو كان... ألو، ماريا...

- أنا هنا...

- ألم تعد تحبّني؟

- أنا أعشقكِ.

- أنا أيضًا.

- وأنا كذلك.

- إذن؟

- مَن يكون هذا الرجل؟

- أيُّ رجلٍ؟

- هل يعمل في متجر ديسكو؟

- لماذا تعاملني بهذه الطريقة؟

- قيل لي إنّ بستانيًّا يأتي كلّ أسبوع إلى المنزل. هل هذا هو؟

- هل صديقكَ هو مَن قال لكَ هذا؟ صديقٌ جميلٌ إذ يحشو جمجمتك بهذه الطريقة!

- هل هناك بستانيٌّ يأتي المنزل؟ نعم أم لا؟

- نعم، ولكن ماذا يعني...

- هل هذا هو؟

- هو ماذا؟

- كفاكِ مناورةً، يا روزا، أنتِ تعرفين جيّدًا ما أقوله لكِ...

- يا إلهي...

يتحرَّق ماريا رغبةً في أن يكون واضحًا وصريحًا. إذ إنّ بيت القصيد هو سؤاله «منْ يتّصل بكِ؟»، ولكنّه لم يستطيع أن يطرحه بهذه الطريقة.

سألت روزا فجأةً:

- هل أمسكوا بك؟

- ماذا؟

قالت روزا وهي تبكي:

- لقد ألقوا القبض عليك، أنت مسجون، ولهذا لا تُريد أن تخبرني بأيّ شيء؛ لأنّهم أودعوكَ السجن. آه يا حبيبي، أنت لا تدري ما الذي...

- أنا لستُ في السجن، يا روزا.

- لا يهمّ...

- أنا لستُ في السجن، أنا هنا؟

- أين هنا؟

- أنا حرّ... هنا... أنا حرٌّ طليق...

- لا أصدّقك. لقد فهمت، يا ماريا. لا يهمّ. أخبرني أين أنت، وسآتي للقائكَ. لا يهمّ إن كنتَ في السجن، أقسم لكَ على ذلك برأس أطفالي. ليس لديّ أطفال، ولكنّ الأمر سيّان، أقسم لكَ على ذلك على أكثر ما أحبّ. لا تدري من أنتَ لي، أنت...

قال ماريا:

- روزا...

وأغلق السمّاعة.

لم يستطع أن يتحمّل ذلك. كان متأكّدًا من أنّه، انطلاقًا من هذه المكالمة الجديدة، قد برّد مشاعر روزا تجاه الرجل، أيًّا يكن. ما لم يتحمّله هو أن يسمعها من دون أن يراها، وأن يراها من دون أن تراه هي. وضع جهاز الهاتف واقترب من غرفة روزا.

دخلت روزا من فورها إلى غرفتها. سمع ماريا صوتها وهي تبكي، واحتضن نفسه كما لو أنّه سيحضنها هي. يحملها في قلبه، ولذلك احتضنها جِدّيًّا.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق
متميزون
E-BOOK

11

ذات ليلة، أخذ من المكتبة كتاب الدكتور واين دبليو داير "مَواطن الضعف لديك". ويا لَه من كتاب وما يمثّله له! فقد أحسّ أنّ الكتاب مفيد له (الأمر الذي لم يحدث له قطّ مع الروايات، التي تمثّلُ له قراءتها مجرّد هواية). ومن حيث إنّه لم يعد عليه أن يشعر بالقلق، على الأقلّ الآن وفي المستقبل القريب، بشأن مكالمات الرجل؛ لأنّه لا بدّ وأن العلاقة بين هذا الرجل وروزا قد فترت مرّة أخرى وذلك بسبب المكالمة الأخيرة التي أجراها معها، ولذلك سيكرّس وقتَه للقراءة والمطالعة. قرأ بحماسة وتركيز كبيرَين لم يعهدهما من قبلُ.

كلُّ شيء صحيحٌ. لم تكن هناك حملة، أو فكرة، أو إحصائية، أو تعليق، أو معطى لا يترك فيه أثرًا حقيقيًا. كلّما فتح الكتاب (مرات قليلة جدًّا كلَّ يوم؛ لأنّه لم يغلقه قطّ تقريبًا)، شعر أنّه يشعّ نورًا، نورًا يتسلل إلى رأسه فينبهر. اعترَته الدهشة، وفي الوقت نفسه، أعطاه الكتاب الإحساس بأنّه غبيٌّ تمامًا: لم يستطع أن يُدرك لماذا لم يفطن من قبلُ إلى معرفة أمور الحياة، أو أنّها تجري بهذه الطريقة.

انعكست الطريقة التي نفّذها في الاستيلاء على المنزل (الذي عرف سلفًا أدقَّ تفاصيله، بما في ذلك تقنية الشطف الآلي لحوض أحد الحمّامات في الطابق الثاني، تقنية شطفٍ لا يمكن بعد استخدامها أنّ يجلس المرء لينشّف قدمَيه بمِنشفة، أو أن ينخرط في أيّ تصرّفٍ غريبٍ بعيد عن آليّة عملها الخاصّة، وإلّا فسيسقط وينزلق إلى داخل الحوض كما لو أنّه يريد ابتلاعه)، على دواخله فجأةً، حيث أثرت عليه الاكتشافات المُقدمة في الكتاب على شكل أقراصٍ فوّارة لذيذة، بطريقةٍ خاصّة. راودته رغبةٌ ملحّة في أن يستخلص فائدةً من كلّ شيء في الكتاب إلى درجة باتت القراءة تُرهقه وتعذّبه. يقرأ جملًا مثل «هناك من البشر من يتلاعبون بالنسيان بخبثٍ ومكرٍ، كما لو أنّهم يوجّهون لكماتٍ»، ويتساءل عمّا قد تعنيه بالضبط عبارة يتلاعبون بالنسيان بخبث ومكر»، وإلى ماذا يلمّح الدكتور داير بدقّة، بل ما الذي تعنيه كلمة «تلاعب».

دوّن الجمل التي هي أكثر أهمّية على أوراقٍ بيضاءَ مأخوذةٍ من على طاولة المكتب. عاد إلى الوراء، وتوقّف عند بعض العبارات، ولكنّه تقدّم أيضًا. بعد مرور عشرة أيام، حينما انتهى من قراءة الكتاب، أحسّ بأنّه شخصٌ مختلف، ثريٌّ، وطليق.

في تلك الليلة، قام بفعله الأكثر جرأةً منذ أن بدأ يعيش في منزل آل بليندر: خرج من المطبخ... خرج إلى الهواء الطلق... فقط لحظة واحدة، الوقت

الكافي فقط لإلقاء نظرة سريعة من حوله. ولكن، لمّا نظر أول مرّة منذ زمنٍ طويلٍ جدًّا إلى الشارع (وإلى السماء الخالية من النجوم)، وقدماه موضوعتانً على الأرض، راودته فكرة ضاعفت من جرأته: عبور الباب المقوّى بقضبان حديدية، والقيام سريعًا بصنع نسخة ثانية من المفتاح، ورنّ الجرس، ومعانقة روزا، والنوم معها، والاستئذان منها، والعودة إلى المنزل... يعرف كلّ شيء عن المنزل بكلّ تفاصيله، يعرف أصوات الضجيج فيه، ويعرف الحركات التي تدبّ فيه... لن يمنعه أيّ شيء من القيام بذلك. لدى العودة إلى غرفته، روى الفكرة التي راودته للجرذ.

سمع فجأةً صوت شجارٍ عنيف في الطابق الأرضي؛ لقد تحمَّس أيّما تحمُّس لفكرته المثيرة حتّى إنّه لم ينتبه إلى ذلك من قبلُ. نزل بأقصى سرعةٍ.

كان ألفارو يتحرّش بروزا. يلاحقها من المطبخ إلى الممرّ، ومن الممرّ إلى الصالة. استشاط ماريا غاضبًا حتّى إنّه كاد أن يتجاوز حدود الاختباء ويكشف عن نفسه: ظن لحظةً بأنّه قادرٌ على أن يدافع عن روزا من دون أن يراه ألفارو ولا روزا.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

12

تغلَّب المشهد الذي يتحرّش فيه ألفارو بروزا، على معجزة كتاب مَواطن الضعف لديك، إلى درجة أنّه، منذ أيامٍ، نظر إلى غلاف الكتاب الموضوع على السرير، وهو يشعر بأنّه لم يقرأه قطّ. لم يعد يفكّر بأيّ شيءٍ سوى ألفارو.

ذات صباحٍ، بدأ يقصّ شعره في المرحاض حين سمع صوت ضجيجٍ غريبٍ في الطابق الأرضي. أحسّ بالقلق: علم أنّ الزوجين بليندر وروزا غادرا من فورهما المنزل. تلك إحدى المرّات النادرة التي خلا فيها المنزل ممن فيه. غادر الزوجان بليندر المنزل على عَجَلٍ، تاركَين في الهواء نسمةً من رائحة العطر؛ ورافقتهما روزا حتى مرآب السيّارات، وبعد انطلاق السيّارة، أغلقت مدخل الباب الكبير من جديد، وهي - لا شكَّ- ذاهبة لشراء بعض الحاجيات... سمع ماريا صوت همهمةً وتحطم مكتوم، فوقف شعر رأسه الذي قصّه للتو. تُرى مَنْ عساه أن يكون في البيت؟ التقط سريعًا بعد الخُصلات التي سقطت على الأرض وغلّفها داخل ورقة صحيفةٍ ودسّها في جيبه.

نزل السلّم ببطء، والمقصّ في يده. من الطابق الثاني، استطاع أن يرى روزا: تتراجع نحو الصالة، وألفارو يلحق بها. متى جاءا إلى البيت؟ لماذا لم يسمع صوتهما وهما يدخلان إلى المنزل؟ وصل ألفارو إلى جانب روزا في الرواق.

قالت، متوسّلةً:

- ألفارو، أتوسل إليك...

- دقيقة واحدة...

وأمسك بهندامها كما لو أنّه أمسك بلصّة بعد أن طاردها وقتًا طويلًا في المنزل حتى لهث. نزل ماريا طابقًا آخرَ عبر السلّم الرئيس ليصل إلى قاعة الاستقبال حيث اختبأ خلف جدارٍ بالقرب من الرواق، على بعد بضعة أمتارٍ منهما. مدّ رأسه قليلًا من خلف الجدار، فرأى ألفارو يفلت روزا ويستنشق جرعة كبيرة من الهواء.

- لماذا تهربين منّي هكذا؟

- أرجوك...

- كفانا «أرجوك!». ما الذي اعتراكِ، هل تخافين منّي؟

- نعم، يا سيّدي.

- ناديني ألفارو... حتى وقتٍ قريبٍ جدًّا، كنتِ تناديننني ألفارو... ولماذا تخافين منّي، هل لي أن أعرف السبب؟

- لا أريد...

- لا تريدين أن تخبريني بذلك؟

- لا... نعم... أستطيع أقول ذلك! ولكنّني لا أريد...

- ألا تريدين ما أريده أنا؟

هزّت روزا رأسها موافقة. فرقع ألفارو بلسانه، وأمسكها من خصرها، وحاول أن يقبّلها. أعادت روزا رأسها إلى الخلف، وتحرّكت من طرفٍ إلى آخر وهي تحاول أن تتحرّر منه، ولكنّ ألفارو أمسك بها بشدّة. دسّ رأسه في عنق روزا وأخذ يُقبّلها بطريقة متشنّجة، مثل مصّاص دماء. من دون تفكيرٍ، خرج ماريا من مخبئه؛ وألفارو يدير له ظهره، على بعد أربعة أو خمسة أمتار منه. خطا الخطوة الأولى نحوه، رافعًا المقصّ بيده، حينما استطاعت روزا فجأةً أن تتحرّر منه وأن تستدير وتنطلق جريًا نحو المكتبة.

عاد ماريا إلى الخلف.

استقام ألفارو في وقفته ووضع إحدى يديه على ياقة قميصه. ظلّ برهةً جامدًا في مكانه بلا حراك، يلهثُ على نحوٍ محموم. بدا أنّه مستعدٌّ لأن يدعها تذهب. ثمّ أخرج قارورةً صغيرة من الجيب الداخلي لسترته، قارورة صغيرة مغلّفة بغلافٍ جلديّ، وشرب منها جَرعة كبيرة، ومسح شفتيه بقفا يده، أغلق القارورة وأعادها إلى جيب سترته، وتصفّح أوراقًا موضوعة على خزانة صغيرة. ثمّ سار نحو المكتبة.

لحق به ماريا إلى المكتبة، تلك المكتبة غرفةٌ واسعة مليئة بكتب مجلّدة بأغلفة غامقة اللون تمتدّ رفوفها من الأرضية وتصل إلى السقف. لم تستطع روزا أن تختبئ في أيّ مكان، لكنّ ألفارو دخل وهو يناديها بصوتٍ خفيض، كما لو أنّه يلعب لعبة الغميضة. تقدّم ببطء نحو الباب المطلّ على غرفة الجلوس، ومن هناك، دخل إلى غرفة الطعام.

نادى:

- روزا؟

بحث عنها في المكتب وفي المطبخ، ثمّ انتهى إلى النزول عبر سلّم الخدمة. لا يزال ماريا في الغرفة التالية؛ لم يدخل إلى أيّ مكان إلّا بعد أن يخرج ألفارو منه. كان هادئًا. حرص على ألّا يغيب عن نظره ولكن من دون أن ينكشف له. حرص على ألّا يراه ألفارو؛ لأنّه يعلم أنّه سيضطرّ إلى قتل ألفارو إن رآه هذا الأخير. سيقتله بكلّ سرور، ولكنّه في هذه الحالة سيضع نهاية لنجاته من الموت. تُرى ماذا سيفعل لو عثر ألفارو على روزا واعتدى عليها من جديد؟

من الواضح أنّ ألفارو يبحث عنها ليعتديَ عليها، ولكن ما الذي سيفعله في تلك اللحظة؟ من الممكن ألا يعثر عليها: إذ إنّ روزا تعرف المنزل وزواياه بقدر ما يعرفها هو.

مع ذلك، إذا ما أرادت روزا أن تتجنّب التعرّض للاغتصاب، فالحلّ الأمثل هو خروجها من المنزل؛ إذا كانت ذكيّة، فسوف تخرج من المنزل إلى حين عودة السيّد والسيّدة بليندر.

سمع ماريا حينئذٍ صوت انصفاق بابٍ أعيد إغلاقه. أحسّ برهةً أنّه مضطربٌ وحائر؛ ثمّ أدرك أنّ الصوت صادرٌ عن بابٍ في الطابق الأرضي. تُرى هل فعلت روزا ما عليها أن تفعله، حسب رأيه، لتهرب من ألفارو؟ كلا. لم يكن ذلك صوت إغلاق الباب المؤدّي إلى الشارع. صوت باب غرفتها. كزّ ماريا على أسنانه، حانقًا: وضعت روزا نفسَها في المكان الأسوأ. ولا شكّ أنّ ألفارو أيضًا قد سمع صوت إغلاق الباب. تخيّله ماريا وهو يبتسم فرحًا... توقّف ألفارو علي أول درجة من السلّم؛ أخرج قارورته من جيبه وعبّ منها جَرعتَين متتاليتين. ثمّ ذهب إلى الممرّ.

قرّر ماريا ألّا ينزل من هذا السلّم: فسلّمُ الخدمة ضيّقٌ ومعتمٌ ويمكن لألفارو أن يعود أدراجه مستديرًا إلى الوراء ليلاقي روزا في المطبخ، ويمنعها من الخروج إلى الشارع، ويمكن عندئذٍ أن يجد ماريا نفسه وجهًا لوجه أمام ألفارو من دون أن يتمكّن من الاختباء.

ولذلك، صعد طابقًا، وركض في ممرٍّ له انعطافة مستقيمة، ثم نزل عبر السلّم الرئيس حتّى وصل إلى الطابق الأرضي وعاد وظهر في جناح الخدمة، داخلًا إليه من الطرف الآخر. لكنّ ألفارو لم يعد موجودًا هناك.

اقترب ماريا من باب غرفة روزا. ساد الصمت الغرفة. ألصق إحدى أذنَيه على الباب، فلم يسمع شيئًا، لكنّ شيئًا ما أخبره بأنّ روزا وألفارو داخل الغرفة. انحنى لينظر من ثقب قفل الباب. لم يكن هناك أحدٌ في الداخل.

ابتعد عن الغرفة وتقدّم في الممرّ على أطراف أصابع قدمَيه، متوقّفًا أمام كلّ بابٍ مرّ به قبل أن يصل إلى أسفل السلّم. صعد السلّم، مشوّش الذهن. لم يكونا في أيّ مكانٍ من المنزل. إلى أين قد ذهبا؟ فسمع أصواتًا غير معروفة لامرأة وبعض الأطفال في الطابق الأرضي... دخل الأطفال من فورهم إلى المنزل وأصبحوا يركضون في كلّ اتّجاه. وبّختهم المرأة، ولكنّهم استمرّوا في الركض والصراخ إلى أن تدخّل رجلٌ طلب منه السيّد بليندر أن يهدّئهم. سمعَ حينذاك صوت بكاء طفلٍ. تراجع ماريا، الذي سمعهم يدخلون، إلى الوراء وأسند ظهره إلى الجدار، وتقدّم خطوةً إلى الأمام ونجح في أن يرى امرأة شقراء ورجلًا شابًّا يدخلان وهما يجرّان خلفهما حقيبتين.

سبق له وأنّ رأى هذه السيّدة في صورة من الصور التي شاهدها في المنزل: إنّها ابنة الزوجَين بليندر. أمّا الرجل، فلا شكَّ زوجها والأطفال هم أطفالهما. يبلغ أحد الصبيان من بين الأطفال حوالي الخامسةَ عشرةَ من العمر. أمّا الآخرون، ففتاةٌ صغيرة وصبيٌّ صغير، يبدوان أصغر سنًّا من الصبي نسبيًّا، وأعمارهما بين ستّ سنواتٍ وثمانٍ.

نادت السيّدة بليندر روزا، وهي تزداد غضبًا وحنقًا لكونها لم تظهر. وضع الرجل الحقائب أسفل السلّم: من الواضح أنّهم جاؤوا ليقضوا بضعة أيام في المنزل، وأنّهم ينوون الإقامة في الطابق الأوّل. سمع ماريا حينئذٍ صوت روزا وهي تدخل. لم يستطع أن يراها، ولكنّه يسمعها بوضوح؛ تبدو مرتبكة ومتوتّرة.

- السيّدة لولي، يا لَها من مفاجئة، كم أنا سعيدة بمجيئكِ!

- كيف حالكِ يا روزا؟

- أنا في أحسن حال. يا إلهي، كم كَبُرَ الأطفال! هل ذاك الصبي هو استيبان؟

تدخّلت السيّدة بليندر، وسألت بامتعاض: - أين كنتِ؟

نادت لولي ابنها:

- استيبان، تعال وألقِ التحية على روزا...

- كنتُ في الحديقة، يا سيّدتي، لم أسمعكم تصلون إلى المنزل...

قالت السيّدة بليندر:

- اذهبي وأعدّي غرفة الضيوف.

التفتت نحو ابنتها، وسألتها وهي تتحدّث عن الطابق الأرضي: - هل تريدين أن ينام الأطفال هنا؟

- نعم، هذا أفضل.

قالت روزا وهي تُلقي التحية على زوج لولي: - مساء الخير سيّد ريكاردو.

لم يسمع ماريا أيّ ردّ، ولذلك قال في نفسه إنّ ريكاردو سيردُّ التحيّة بابتسامة أو بحركة.

سمع في الحال استيبان يقول: - طاب نهاركِ روزا.

- كم أنتَ طويل...

- لقد مرّ زمنٌ طويل...

- كم بلغ عمرك؟ خمسةَ عشرَ عامًا؟

- أربعةَ عشرَ عامًا.

قالت روزا بصوتٍ خفيض، متفكّرةً: - إذن، لم أركَ منذ...

أجاب استيبان:

- منذ سنتين.

اقترب الطفلان الأصغران سنًّا أيضًا ليلقيا عليها التحيّة. يتحدّثان باللغة الإنكليزية. لم يفهم ماريا ولا روزا حرفًا واحدًا ممّا قالاه. كان استيبان يترجم: - يريد تومي أن يتناول وجبة إسكالوب بانيه. وتسأل ريتا إن كنتِ ستأخذينها في نزهةٍ.

ساد صمتٌ في المكان. لا بدّ أنّ روزا تنظر إلى والدة أو والد ريتا - كان اسم الطفلة مثل اسم السيّدة بليندر- بحثًا عن الحصول على موافقتهما قبل أن تَعِدَ الطفلة بذلك. أضاف استيبان: - أنا من حدّثتها عن طبق الإسكالوب بانيه الذي تعدّينه.

قالت روزا:

- بالطبع سوف أعدّه لك...

سمع ماريا في تلك اللحظة عبارة «أهلًا، أهلًا، أهلًا» بنبرةٍ مرحة: إنّه ألفارو.

فاجأ وجود ألفارو في المنزل السيّد والسيّدة بليندر. وقد أفصحا عن ذلك وسألاه عن سبب وجوده. لم يُجب ألفارو بأيّ شيء، وراح مباشرةً يُلقي التحية على لولي وريكاردو. لم يظهر عليهما ولا على الأطفال علامات السعادة لرؤيته. سألته لولي إن كان نائمًا: يبدو كما لو أنّه استيقظ للتو، وقال السيّد بليندر بصوتٍ عالٍ، مع أنّه أراد أن يقول همسًا، بأنّه يتمنّى ألّا يكون قد نام في سريره. على ما يبدو فقد اعتاد ألفارو أن ينام - ثملًا- في سرير والديه - فقد رآه ماريا بنفسه في السرير ذات مرّة- الأمر الذي يثير غضب وحنق السيّد بليندر.

ولكنّ ماريا يعلم علم اليقين بأنّ ألفارو لم يكن نائمًا... لماذا قالت له أخته بأنّه يبدو عليه أثر النوم؟ ردّ ألفارو على والده بأنّه لم يكن نائمًا وأنّه في الحقيقة كان... لكنّ ماريا لم يستطع أن يسمع بقية الجواب: صعدت روزا السلّم وهي تجرّ خلفها واحدة من الحقيبتَين، ولذلك اضطرّ ماريا أن يبتعدَ عن المكان. تأكّد من أنّ روزا قد غادرت الصالة لحظة دخول ألفارو إليه.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق
متميزون
E-BOOK

13

جرى هذا المشهد في الحادي والعشرين من ديسمبر/ كانون الأوّل. أثناء الأيام الثلاثة التالية، عرف ماريا الكثير من الأشياء: عرف أنّ لولي وريكاردو يقيمان في لندن، وأنّ لا أحد منهما يدخّن (ولكنّ الصبيّ البالغ خمسةَ عشرَ عامًا، استيبان، كان يدخّن، حتى وإن لم يحمل معه السجائر قطّ)، وأنّ الطفلين الآخرين يتحدّثان الإسبانية بصعوبة، وأنّ استيبان على تفاهمٍ ممتازٍ مع روزا. أثناء رحلة سابقة، بينما باشرت روزا العمل في المنزل قبل بضعة أشهر فقط، ارتبط استيبان بعَلاقة صداقة متينة معها. في تلك الفترة، كان يبلغ من العمر اثني عشرَ عامًا، مع عدم وجود أحدٍ يرتاح له (في أيٍّ من نصفي الكرة الأرضية)، وقد وجد في روزا أوّل مستمعة إليه، وحافظة لأسراره. على ما يبدو قد باح لها بسرٍّ شخصيّ. لم يعرف ماريا قطّ ما هو ذاك السرّ الدفين، ولكنّه قرّب بينهما في علاقة تفوق علاقة الصداقة. ذات يوم، بينما كان استيبان وروزا وحدهما في المطبخ، سألها: - كيف حالكِ؟

- بخير، وأنت؟

- ممتاز! أتعرفين؟ أريد أن تعرفي أنّني لا أكفّ يومًا واحدًا عن التفكير بكِ.

كان أرجنتينيًّا ويُقيم في لندن، ولكنّه أمضى الجزء الأكبر من حياته القصيرة في إسبانيا.

سألت روزا، مهتمّة في الحال:

- أنت؟ بيّ أنا؟

- بالضبط.

- لماذا؟

- لا تضحكي. هذه هي الحقيقة: لقد فكّرتُ بكِ كلَّ يوم.

- أنت تُضحكني...

- وأنتِ، ألم يحصل معكِ الشيء نفسَه؟

- أنت تتكلّم مثل عاشقٍ!

- مثل مُحبّ.

- كلّا، أنا أتحدّث معك بجِدّية! أنت تتكلّم بالضبط مثل عاشقٍ...

- إذا أردتِ...

ساد الصمت.

بعد مرور برهةٍ من الوقت، قال استيبان برزانة وجِدّية: - كما أنّني، بالتأكيد، فكّرت أن أموت. ولكن، لا تقلقي: لستِ أنتِ منْ أنقذتِني؛ أنا بنفسي من فعلتُ ذلك، ولأنني أحسنتُ التفكير بكِ.

علّقت روزا:

- يا لَك من شاعر، لك طريقتكَ في انتقاء الكلمات...

- لقد نشرت.

- آه حقًّا؟

- كلّا، هذه مجرد مزحة. ولكنّني أكتب. أكتب كلّ شيء، كلّ تفصيلٍ صغيرٍ عمّا حدث بيننا، كلّ شاردة و...

قاطعته روزا:

- قل لي إنّ هذا غير صحيح!

ضمّ استيبان أصابعه على شكل صليب وقبّلها.

صرخت روزا غاضبةً:

- سوف تتسبّب بطردي من العمل!

- سوف أجعلكِ مشهورة!

ساد الصمت.

- هذه مزحة، أليس كذلك؟

- أنتِ، أخبريني إن كنتِ قد تذكّرتِني، وأنا، سأقول لكِ إن كانت هذه مزحة أم لا.

ساد الصمت.

وفي النهاية، قالت روزا:

- أنت تعلم أنّ الجواب هو نعم. الآن، أخبرني: هل هذه مزحة؟

ساد الصمت.

- هل هذه مزحة؟

- هل ستصدّقينني إن قلتُ نعم؟

ساد الصمت.

ثمّ ضحكا ضحكات خفيفة.

لم ير ماريا ولم يسمع المشهد، ولكنّه تخيل أنّ استيبان وروزا يتعانقان ويقبّل بعضهما بعضًا. بعد برهةٍ، لا يزال كلاهما يضحكان ويتحدّثان بأقصى سرعة من دون ادّعاء أو مبالغة.

كان ماريا قلقًا وحائرًا على نحوٍ فظيع. ماذا يحدث بينهما؟ استيبان هادئٌ جدًّا وواثقٌ من نفسه للغاية، حتّى إنّ ماريا رأى (ليس فقط بسبب ما يقوله) أنّه طفلٌ ذكيٌّ للغاية مقارنة بسنّه الصغير. وكذلك سيقتنع قريبًا - انطلاقًا من نيّات الصبيّ الحقيقية تجاه روزا- أن مقدار هذه الصداقة ضئيل. الغيرة سوف تأتي فيما بعد، أمّا الآن، فهو يبحث بشكل محموم عن معلومات.

من حيث المبدأ، أصبح التعايش (هكذا يسمّيه ماريا، مع أنّه لم يُدعَ إلى المنزل) في غاية الصعوبة. ينبغي له أن يُزيد من إجراءات الحرص والاحتراس والحذر. وبقدر ما يزداد عدد الأشخاص الآن في المنزل، تتطلبُ أعمال صغيرة جدًّا وأساسية مثل الذهاب إلى المرحاض أو إلى المطبخ المزيدَ من الحذر الاحتراس. حتى إنّه لم يعد يستطيع أن ينام جيّدًا، خشيةً من أن يخطر ببال أحد أصغر الأطفال أن يقوم بالتفتيش والنبش في البيت. تثيرُ العليَّة فيهم الخوف، ومن ثَمَّ تُغريهم أيضًا. حتّى الجرذ بدا قلقًا. عانى من قلّة النوم، وتناول الوجبات خارج المواعيد المعتادة، والحذر والانتباه شبه الدائمين... فشكّل كلّ ذلك ضغطًا كبيرًا للغاية عليه وصعبًا على التحمّل. تمرّ كلّ ساعة كما لو أنّها قرنٌ من الزمان. ويبدو أنّهم سيبقون في المنزل حتى بعد رأس السنة الجديدة! وكما لو أنّ كلّ هذا لم يكن كافيًا، لا يزال لا يعلم ما الذي جرى بين ألفارو وروزا.

لم يعرف ذلك قبل عصر يوم الرابع والعشرين من شهر ديسمبر/ كانون الأوّل. وفي غضون ذلك، نجح في تحقيق بعض الإنجازات التي ستكون مُفرحة ومفيدة له في المستقبل (حيث إن الاستمتاع الآن يعني التغيّب عما هو بالفعل مهمٌّ له): سرق سمّاعات جهاز التسجيل خاصّة استيبان، وتجرّأ على أن يجلب من المطبخ أحد قوارير الشامبانيا التي اشترتها العائلة من أجل الأعياد؛ فقد مرّ وقتٌ طويل من دون أن يشرب، بل ولم يتذكّر أنّه قد تذوّق الشامبانيا من قبل. بعد ظهيرة ذلك اليوم، يوم الرابع والعشرين من ديسمبر/ كانون الأوّل، غادر الزوجان بليندر وضيوفهما جميعهم لشراء هدايا الأعياد، ولذلك شعر ماريا من جديد بأنّه مرتاحٌ، على الأقلّ بضع ساعات، كافية هي ليقترب من روزا. رآها تمرّ من جديد، وترتّب الأسرّة، وتكوي، وتطبخ، أكل

بعض اللقيمات - منذ وصول أقرباء عائلة بليندر، لم تعد تمارس العادة السرّية- وأخيرًا تُدخل رقم هاتفٍ لإجراء اتصالٍ.

- لقد اغتصبني.

- ...

- روزا.

- ...

- أقول إنّه اغتصبني.

- ...

- ألفارو.

- ...

- نعم.

- ...

- نعم، لقد اغتصبني! كيف حدث ذلك، كيف اغتصبني؟ لقد اغتصبني!

- ...

- أنا، أعلم أنّ...

- ...

- لا شيء. لقد دافعتُ عن نفسي، ولكن ما أدراني، أمسك بي و...

- ...

- كلا، لحسن الحظّ. على الأقل لم يفعل ذلك. لقد كمّمني، هذا كلّ شيء و... لقد كان قويًّا، ثملًا، وكلّ شيء. كلّ ما استطعتُ أن أفعله، هو فلنقل...

- ...

- لم أخبر أحدًا، لم أقل شيئًا لسواكِ.

- ...

- بربّك، أيّ شكوى سأقدّمها، مع الأموال التي يملكها هؤلاء. إضافةً إلى ذلك...

- ...

- كلا، لن أتقدّم بشكوى.

- ...

- هذا لأنّ...

- ...

- كلّا!...

- ...

- يلاحقني منذ فترة وأنتِ، أنتِ تعرفين، أنا...

- ...

- هل أنتِ مجنونة؟ كيف سأخبرهم بأمرٍ كهذا؟ لو أخبرتهم بهذا الأمر لطردوني من العمل!

- ...

- وإلى أين سأذهب؟

- ...

- أصغي إليّ يا كلوديا، أقول لكِ إنّ الرجل جاء واغتصبني، وأنتِ، كلّ ما يهمّكِ، هو أن تتحدّثي عن الناحية القانونية؟ ما حدث معي أنا، ألا يهمّكِ إطلاقًا؟

- ...

- إذن، ماذا ستفعلين؟

ارتجفت يدا ماريا غضبًا. لقد اغتصب ابنُ العاهرة ألفارو روزا! تملّكته الرغبة في البكاء، ولكنّه، على الغضب والحنق، فقد استطاع أن يتمالك دموعه. لقد منعه الغضب الشديد من الإصغاء إلى بقية الحديث. أغلقت روزا السمّاعة، وفي الحال رنّ الهاتف. ردّت روزا على الاتّصال. قالت: - نعم!

لا تزال النبرة المرتعشة للمكالمة السابقة تشوب صوتها.

لاحظ الشخص الذي يحدّثُها على الطرف الآخر من الخطّ ذلك الارتعاش في صوتها.

قالت روزا:

- لا شيء، لا شيء.

- ...

- كلا، صدّقني، لا شيء.

- ...

- كلا، كلّ شيء على ما يُرام...

- ...

- حسنًا، أنا هنا...

- ...

- نعم، كنتُ أتساءل إن كان...

- ...

- متى؟

- ...

- لا أدري؛ لأنّ بعض أفراد العائلة جاؤوا في زيارة، ويبدو أنني سوف أُصابُ بالجنون.

- ...

- نعم، أنا مشوّشة وأشعر بالضياع.

- ...

- وأنت كيف حالك، هل أنت بخير؟

- ...

- حسنًا، ولكن ما قلتُه لك صحيح. لا أرفض اللقاء بك، ولكن... ربّما في يومٍ آخر...

كان المتّصل هو «الرجل». شكّ ماريا في ذلك، ولكن الآن مع عبارة «ربّما في يومٍ آخر» بات متأكّدًا من ذلك. وضعته روزا، تحت تأثير المكالمة الأخيرة، في حالة انتظار، ولكن في الوقت نفسه، لم ترفض طلبه رفضًا قاطعًا، الأمر الذي يعني أنّ الرجل لم يكن رجلًا عاديًّا، وإنّما كان «الرجل». ينال إعجابها، وهو بمثابة «الفرصة الثانية» لحياتها. وفي ظلّ الشكّ حيال وضع ماريا - لأنّ ماريا فرصة حياتها الأولى، وإن بدا أنه أضاعها- ولكن يبدو أنّ هذا الرجل - أيضًا- على جانب كبير من الإغراء فيما يبدو، لذا تمنحه مساحة صغيرة في داخلها.

فكّر ماريا أنّ «الشيء الوحيد الذي ينقص حديثهما هو أن تروي له بأنّها قد اغتُصِبَت، وأنّ قصة حب دموية جديدة قد وُلِدَت!». قال ماريا هذه الجملة في

نفسه فجأةً، من دون تعمُّد، بوضوح، من دون أن يشعر بأنّه شعر بذلك، من دون ضغينة أو ضحك. وحينها سمعها تقول: - هناك مشكلة صغيرة...

- ...

- هنا... مسألة شخصية...

أدرك ماريا ما تقصده، وخشي من حدوث الأسوأ. هل لدى روزا تلك الرغبة الجامحة في أن تروي للآخرين بأنّها قد اُغتُصِبَت؟ لطالما نَفرَ من المغتصِبين؛ لم يفكّر في أيّ شيءٍ خاصٍّ عنهم: كلّ ما في الأمر هو أنّه يتقزّز ويشمئزّ منهم. ولكنّه لم يُدرك أنّ الضحية، وروزا أكثر من سواها، غير قادرة على كبح سخطها، وفي إطار رغبتها في حماية نفسها، تجعل هذا السخط واضحًا وصريحًا، بدل أن تلتزم الصمت وتوفّر قواها لتنتقم لنفسها. أمّا هو، فذلك هو الفرق الجوهريّ بين الرجل والمرأة. المرأة تروي ما ستفعله وتنتظر أن يفعله شخصٌ آخر نيابةً عنها.

فكرَّ ماريا أنّ روزا ذكيّة جدًّا، ولكنّه لا يظن أنها تتمتع بالكفاءة العالية في التعامل مع هذه المسألة: عزم أن يتكفّل بنفسه بأمر ألفارو. ولهذا السبب انزعج من أن تروي روزا ما حدث لها لأنّها، انطلاقًا من ذلك، تضع في طريقه منافسًا، وفي الوقت ذاته، تضعه في موقفٍ ليس في صالحه: لقد تركت الأمر له مع خيارات قليلة جدا لانتقام عادل. الرجل في الشارع ويستطيع أن يعترض ألفارو مباشرةً أو بافتعال اصطدام عرضي معه وينهال عليه بوابلٍ من الضربات. أمّا هو، فلم يكنِ ذلك متاحًا له، لقد أجبر على أن ينتظر الفرصة المناسبة. من جهة أخرى، كَرِه أن تتحدّث روزا عن الجنس مع رجلٍ آخر. تُرى مَن هذا الرجل؟ وما الذي يستطيع أن يفعله ليتعرف عليه؟ لديه فرصة مناسبة ليتّصل مع روزا (كان وحده معها في المنزل). صعد ليبحث عن الهاتف اللاسلكي وأدخل رقم المنزل. لكن الرقم مشغول. دُهش لذلك؛ لأنّ روزا أغلقت السمّاعة. أدخل الرقم من جديد. تُرى هل اتّصل الرجل؟ تُرى هل اتّصلت روزا به؟ ربّما تردّ على مكالمة هاتفية عادية...

بانتظار أن تنتهيَ روزا من المحادثة، تفحّص أغراض لولي وريكاردو. لم يكن هناك أيّ شيء يلفت الانتباه: جوازات سفر، ألبسة، والمزيد من الألبسة... في أحد أدراج طاولة السرير، عثر على سكينٍ مطويّة واستولى عليها. وفي مظروف مكتوب عليه «شركة الخطوط الجوّية الأمريكية»، اكتشف رزمة من الأوراق النقدية. بدأ يعدُّها: المبلغ أربعة آلاف وخمسمئة دولارٍ. أخذ يخمّن وزن الرزمة بيده كما لو أنّها قطعة من الطوب. سيحتاج إلى أن يعمل طيلة سنوات لكي يكسبَ مبلغًا كهذا؛ أمرٌ غريبٌ أن يزنَ عمل سنواتٍ عديدة هذا المقدار القليل. ما الذي سيفعله، هل يأخذ المبلغ؟ كيف سيتصرّف آل بليندر،

هل سيشكّون أنّ لصًّا قد دخل أثناء غيابهم، إلى المنزل وسرق المبلغ أم أنّهم سيتبادلون الاتّهام بالسرقة؟ لم يستطع أن يُقدِم على هذه المجازفة ويتحمّل هذا الخطر: هناك احتمالٌ كبيرٌ بأن يتّهموا روزا بالسرقة. قد يدفعهم شكُّهم إلى طردها من العمل. وهو، هل يستطيع أن يعيشَ في المنزل من دون روزا؟ أم سيضطرُّ لأن يُغادر؟ كلّا، سيكون غير قادرٍ على أن يقضيَ يومًا واحدًا في المنزل من دونها. وفي الوقت ذاته، سيكون مجبرًا على أن يبقى؛ إذ لو طردوها من العمل، لخرج هو من المنزل ومن ثَم يتمّ إلقاء القبض عليه، ويُودَعُ السجن، وعندئذٍ لن يراها أيضًا. لا بدّ أنّ السجن أسوأ ألف مرّة من المنزل، وكان مقتنعًا تمام الاقتناع بذلك.

جعله المبلغ الكبير من الدولارات غاضبًا. لم يجد قطّ في جيبه دولارًا واحدًا، والآن حينما امتلك أربعة آلاف وخمسمئة دولارٍ، لم تكن لها أيّ فائدة له. أدخلَ رقم الهاتف من جديد. لكن الرقم لم يزل مشغولًا، فذهب ليرى ما الذي يحدث. نزل بخطى حازمة، غاضبًا من روزا كما لو أنّه يخبرها أن تغلق الخط مرّة واحدة وإلى الأبد. ولكنّ روزا لم تكن في المطبخ. تملكّ الخوف ماريا؛ فقد كان واثقًا من وجودها في المطبخ - وسمح لنفسه أن يقودها افتراضه، أنّ هناك من يستخدم الخط ما دام مشغولًا- وإذ لم يجدها فيه، خشي من أن تقتحمَه فجأةً من خلف ظهره وتُباغته.

ألقى نظرة سريعة على كلّ زوايا المطبخ بعينين أشبه ما تكونان بالكاميرا، وابتعد عنه في قفزة واحدة، فحفظ أثناء انسحابه التفاصيل التي لمحها وأصبح الآن يراها بكلّ وضوح: قوارير الشمبانيا، مناشفَ على طاولة التحضير، الفرن المشتعل (ستاتي روزا بين لحظة وأخرى) وسمّاعة الهاتف التي لم تُغلَق بصورة جيّدة.

- «آه جيّد!». وتنفّس الصعداء.

فكّر لحظة (في أثناء قفزته في الهواء) أن يعود إلى الوراء ويغلق سمّاعة الهاتف بصورة صحيحة. يدلّ الفرن المشتعل على أنّ روزا لم تكن بعيدة كثيرًا عن المطبخ، حتى وإن كان الفرن، في الحقيقة، هو أحد تلك الأجهزة التي تحتوي على ساعة توقيت. من المستحيل معرفة مكان روزا في هذه المرحلة... ولذلك، ظلّ متردّدًا، تغمرُه الشكوكُ. مهما يكن، فقد بقي قريبًا من المطبخ: نوى أن يشاهد اللحظة التي تنتبه فيها روزا إلى أنّها تركت سمّاعة الهاتف غير مغلقة جيّدًا. لقد أصبح لزامًا عليه أن يتحدّث معها اليوم.

دخل إلى أحد الحمّامات في الطابق الأرضي عاريًا، وقعد مباشرة على حوض المرحاض. ظلّ في الحمّام، متّخذًا هيئة ضَجِرة لشخصٍ ينتظر شخصًا آخر

ليُنجز مهمّةً، ولكن بعد مرور بضع دقائق، مدّ إحدى ساقيه، ودفع الباب بإحدى قدمَيه وأغلقه تدريجيًّا.

تذكّر أنّه في طفولته قد لعب دور القائد بين أقرانه. وأدرك بأنّه لا يزال يجهل سبب ذلك. كان طفلًا صموتًا، ومن ثَمّ فهو غامض. هذا كلّ ما في الأمر. لم تكن لديه ميزةٌ أخرى. في تلك المرحلة، لم يكن لديه حتّى ربع رشاقته الحالية. ولكنّ أصدقاءه ومعارفه احترموه وأجلّوه.

الكلام مشكلةٌ ما دام لدى المرء ما يقوله، لكنّ امتلاك كلّ شيء دونما قول فهو أمرٌ يُعدُّ ضربا من ضروب السحر، وينبغي للمرء أن يكون ساحرًا ليتمتّع به. كان ماريا عكس ذلك، فقد وجد نفسه منحرف المزاج وغير مرتاح، فهو يعلم أنّه في حال حصول أدنى شكّ سيُكتَشَف ويُطرَد ويوسَم شتمًا وإهانةً. كان قائدًا زائفًا. كان نصيرًا زائفًا أيضًا. فهل سيكون أيضًا...؟ انتبه فجأةً إلى أنّ أحدهم قد دخل.

خرج ماريا من الحمّام، فوجد نفسه على بُعد جزءٍ من الثانية ليكون وجهًا لوجه مع السيّدة بليندر. لم تره، ولكن حينما تراجع ودخل إلى غرفة النوم، كانت لديه صورة واضحة عن الثياب التي ارتدتها السيّدة، بل لون أحجار الطوق في جِيدِها.

اختبأ خلف الباب. دخلت السيّدة بليندر، وأضاءت المصابيح، ورَفَعَت غطاءَ صندوقٍ بجانب السرير، وأخذت منه شيئًا ما، وخرجت. بعد مرور بضع ثوانٍ، عادت إلى الغرفة. هذه المرّة، جلست على السرير، ووضعت راحتَي يدَيها على فخذيها ونظرت إلى اليسار وإلى اليمين دون سببٍ ظاهرٍ: لم تمدّ رقبتها، ولم تنظر إلى شيءٍ... ثم نهضت، وذهبت إلى النافذة، ثم تفَحَّصت الستائر، وحركّتها كما لو أنّها أرادت أن تنفضها، وانتهت بالجلوس أمام طاولة مكتبٍ حيث ظلّت بضع دقائق ساكنة بلا حراك. قال ماريا في نفسه إنّ الأشخاص الذين شوهِدوا من دون أن يعرفوا ذلك يبدون مثل المجانين. ثمّ دخل السيّد بليندر وعاد كلّ شيء طبيعيًّا.

ذرع السيّد بليندر الغرفة جيئةً وذهابًا، متلهّفًا إلى توجيه إهانةٍ (ولكن متمالكًا نفسه مثل رجلٍ محترم) في حين أدارت السيّدة بليندر وجهها ببطء نحوه.

سألتْ:

- ماذا هناك؟

ردّ:

- وتسألينني ماذا هناك...

رمشت بعينيها. علمت أنّ النبرة عدائية، وعلى أنّها لم تُدرك إلى ماذا يُلمّح بعبارة «وتسألنني ماذا هناك» هذه، إلا أنّها رفعت التحدّي. سألته: - هل أنت منزعج؟

توقّف السيّد بليندر ونظر إليها.

- بالتأكيد أنا منزعج.

سألت السيّدة بليندر فجأةً بنبرة صادقة: - ما الذي تتحدّث عنه؟

أجاب:

- عن الحمّام.

- ماذا يوجد في الحمّام؟

- وتسألينني عن ذلك؟

صمتت السيّدة بليندر برهة. أدارت عينيها جانبًا، ثمّ نظرت إليه من جديد، وقالت: - كفّ عن تكرار هذه العبارة. أسألكَ ما المشكلة مع الحمّام. ماذا هناك؟

أجاب السيّد بليندر، بنبرةٍ نصف ساخرة، ونصف طافحة الكيل: - اذهبي لترَي بنفسكِ إن كان الأمر يهمّكِ.

لم تتذمّر السيّدة بليندر، بل اكتفت فقط بأن أشاحت ببصرها عن وجه زوجها، وحدّقت، غارقة في التفكير، في نقطةٍ من الجدار. ثمّ نهضت، وخرجت من الغرفة.

حينما عادت، بدت وكأنها قد شاهدت جريمة.

سألت:

- هل تظنّ أنني أنا مَن فعلتُ هذا؟

أجاب السيّد بليندر، بسخرية:

- لماذا، هل أنا من فعلتُ ذلك؟

شدّت السيّدة على قبضتيها.

سألته:

- هل جُننت؟

قال لها:

‴

- حسنًا يا ريتا. اذهبي واسحبي مقبض مشطّف المرحاض، وهيا لننام، لقد تأخّر الوقت. قال ذلك وجلس على السرير وبدأ بنزع حذائه.

خطت السيّدة بليندر ثلاث خطوات نحو زوجها.

- أوّلًا، لستُ أنا. ثانيًا، ما معنى «هيّا لننام»؟ إنّها الساعة السابعة والنصف مساءً، ولدينا ضيوف. اذهب واستحمّ وسنتناول الطعام. كيف خطر لك أنّني استطعتُ أن أترك في الحمّام شيئًا كهذا؟

- ريتا، حتّى الآن أتحدّث معكِ بلهجة المُزاح، ولكن إن بقيتِ مصرّة، فسوف تُغضبيني في النهاية. اسحبي مقبض مشطّف المرحاض، ودعينا نتحدّث عن موضوعٍ آخر.

- قلتُ لك إنّني لم أذهب إلى الحمّام.

- حسنًا، أنا منْ ذهب إلى الحمّام. هل يمكنكِ أن تذهبي وتسحبي مقبض مشطّف المرحاض؟

قالت السيّدة بليندر، وهي تُصالب ذراعيها: - كلا!

سأل السيّد بليندر، وقد تشنّج وجهه بالازدراء كما لو أنّه لم يُطيق صوت زوجته: - لماذا تصرخين؟

قالت السيّدة بليندر، وهي تشير إلى الحمّام: - ماركوس، إذا كنت منزعجًا من ريكاردو بسبب ما حدث اليوم، لا تتهجّم عليّ، ليس لك الحقّ في ذلك. لاسيما بذريعة مثل هذه. لقد كبرنا على هكذا أمور.

- لا أريد أن أناقشكِ في هذا...

- أمّا أنا، فأريد أن أناقشك. الآن، أنا أُريد أن أناقشك!

- إذن، هو كذلك. إذا كنتِ تُريدين أن تتناقشي معي، فاذهبي أوّلًا واسحبي مقبض مشطّف المرحاض. أُريد أن أستحمّ.

- غريب!

- هذا بالضبط ما أقوله.

- ما الذي حدث لك مع ريكاردو؟ إنّه زوج ابنتكَ! يعيش معها منذ تسع سنوات. لم يهبط من السماء بمظلّة هبوط. أنت تعرفه، وتعرف طباعه. والرجل الآخر... حسنًا، لقد كان أحمق...

- ولكنّه والد طفلَين...

- والد طفلٍ واحد!

قال السيّد بليندر بصوتٍ خفيض:

- والد أفضلهم...

قالت له زوجته، معاتبةً:

- يا لَك من مجحفٍ! الصبيان أيضًا أحفادك...

- أنا لا أتحدّث عنهم! ما لا أحبّه هو أنّهم يمنعونه من رؤية الصبي بهذه الطريقة! هذا يُزعجني. ماذا تُريدينني أن أفعل في هذا الأمر؟ استيبان يحبّه؛ إنّه والده وهو بحاجة إلى أن يراه... له الحقّ في ذلك...

- إنّه مدمنُ مخدّرات.

صرخ السيّد بليندر:

- هذا كذبٌ! إنّهم يُريدون تلويث سمعته. لا يمكن أن يلمس هانس المخدّرات!

- كُفَّ عن ذلك يا ماركوس... لقد تمّ سجنه، وفي هولندا. لا بدّ أن تكون هناك أدلّة حقيقية ضدّ المرء حتى يتمّ سجنه بسبب المخدّرات في هولندا، أليس كذلك؟

- لقد نُصِبَ له فخٌّ.

- هذا ما يقوله...

- أمَّا أنا، فأصدِّقُه. هذه مسألة سياسيّة. هكذا هي السياسة في كلّ مكان.

صمتت السيّدة بليندر موحيّةً بأنّها تفكّر في الأمر.

قال السيّد بليندر:

- لقد تمّ إطلاقُ سراحه، وهذا - لا شكَّ- ليس عبثًا. أثناء الحكم الديكتاتوري في الأرجنتين، كرّر أفكاره إلى ما لا نهاية استنادًا إلى: «لا بدّ أنّ لديهم أسبابهم»؛ والآن، في عهد الديمقراطية، يقول: «لا بدّ أنّ لديهم أسبابَهم». نكران المسؤولية بوصفها حقيقة فعلية للكمال.

لم تعد لدى السيّدة بليندر الرغبة في المناقشة. خرجت من الغرفة ولم تعد إليها، ولكنّ السيّد بليندر وماريا سمعاها وهي تسحب مقبض مشطّف حوض المرحاض. تأكّد ماريا أنّ السيّدة بليندر قد أسعدت زوجها على مضض، مؤكدة أنّه من المستحيل التعامل مع رجل مثله. وتأكّد - أيضًا- أنّ السيّد بليندر يكرهها بالدرجة نفسها التي تكرهه بها.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق
متميزون
E-BOOK

14

حينما وصل ألفارو، اختبأ ماريا في المكتب، وهو يُصغي إلى ثرثرة استيبان وروزا. أشارت الساعة إلى الحاديةَ عشرةَ مساءً. انتهى آل بليندر من تناول العشاء وبدؤوا يشربون القهوة في غرفة الجلوس، بينما يلعب الأطفال الذين هم أصغر سنًّا لعبة تتريس على حاسوبٍ محمول.

استقرّ استيبان في المطبخ. وكلّما عادت روزا من غرفة الطعام (تروح وتجيء، ناقلةً الأطباق المتّسخة، ومعدّة الطاولة لحفلة الشراب في منتصب الليل)، تبادَلَ استيبان معها بضع كلمات.

تابع ماريا الموقفَين من كثب، منسلًّا من المكتب (الذي سمع فيه الحديث بين استيبان وروزا من دون أن يراهما) إلى الطابق الأوّل (الذي سمع ورأى فيه، على الأقلّ جزئيًّا، مشهد آل بليندر). عرف بأنّ هناك تواطؤًا ما بين استيبان وروزا، نتيجةً لأمرٍ ما حدث في السابق، إذ كان الصبي في الحاديةَ عشرةَ أو الثانيةَ عشرةَ من عمره؛ والمشكلة الآن هي أنّ الطفل قد كبُر ويرغب على ما يبدو في أن يحوّل هذا التواطؤ إلى ارتباط. وتشجّعُه روزا، وهي تضحك حتى تنقطع أنفاسُها، وتُصفّقُ لكلّ تعليقٍ منه.

وعلى الغَيرة التي تنهشه، استمرّ ماريا في مراقبة آل بليندر. يجذب ألفارو كلَّ انتباهه. يكرهه. كان ألفارو صاحيًا وجِدّيًا بطريقة سحرية، وقد شقّ على ماريا، في البداية، التعرّف عليه: بدا كأنّه يسمع صوت رجلٍ آخر.

أوّل ما فعله، هو سكب كأسٍ من الكونياك لنفسه.

سألته أمّه:

- هل تناولت الطعام؟

أجاب:

- مثل خنزير!

قال إنّه تناول العشاء مع مجموعة من المخمورين غيرِ المعروفين، وروى ضاحكًا أنّهم قد لاحقوه حول الطاولة ليصادروا منه قارورته. وقد نجحوا في ذلك. وبدأ الآن على ما يبدو بتعويض ذلك: في أقلّ من عشر دقائق، شرب كأسَين من الكونياك؛ تلا ذلك احتجاجات من والدته وشقيقته قبل أن تتلاشى تمامًا بين الكأسَين. هما تعرفانه جيّدًا، وليس في استطاعتهما فعل أيّ شيء ليصرفاه عن الشرب.

بعد مرور نصف ساعة، استعاد ألفارو نبرة صوته المعتادة وأخذ يتحدّث عن كرة القدم الإنكليزية مطلقًا جمل قصيرة، مع مبالغة في إظهار عواطفه حيال الفريق الذي يشجّعه مثل أحد مشاغبي الملاعب، والذي لم يُضايق قطّ ريكاردو ولكنّه يُزعج والده. صمت السيّد بليندر ولم ينطق بكلمة واحدة، ونظرته تائهة على نقطة تقع بين ابنته وزوجته اللتين تشاهدان ألبوم صورٍ.

عند منتصف الليل، ليلة الميلاد، نهض الجميع وتوجّهوا نحو غرفة الطعام. سار ألفارو مترنّحًا ومتعرّجًا حتى وصل إلى الطاولة؛ فتح ريكاردو قارورة شامبانيا في حين أيقظت زوجته الفتاة الصغيرة التي نامت. وظهر استيبان قبل دقيقة واحدة بالضبط من حلول منتصف الليل، خلف روزا التي تحمل صينية عليها أكواب الشمبانيا. دعتها السيّدة بليندر إلى شرب كأسٍ معهم؛ ومن ثمّ ستستطيع أن تفعل ما يطيب لها.

قالت روزا:

- أنوي أن أذهب لأحتفل قليلًا مع كلوديا...

اقترح السيّد بليندر عليها:

- يمكنك الاتصال هاتفيًّا بوالدتكِ إذا أردتِ ذلك...

- نعم، شكرًا يا سيّدي، سوف أتّصل بها في الحال.

استغلّ ماريا حفلة الشراب ليأخذ عشاءه من المطبخ. كانت وجبة دسمة: بعض قطع الإمبانادا ([2])، وشريحة ظريفة من اللحم المشويّ، وبطاطا مقلية، وقطعة من الخنزير، وخبز وموزة. لم يأكل شيئًا طيلة النهار. قبل أن يغادر بالضبط، رأى على طاولة التحضير قارورتَي نبيذ فارغتَين، وإلى جانبها نصف دزينة من القوارير غير المفتوحة. تُرى هل ستُلاحظ روزا أنّ قارورة قد اختفت من المطبخ؟ بدا له أنّها لن تلاحظ ذلك؛ فأخذ القارورة وتوجّه نحو طابق العلّيَّة، القارورة في يده اليسرى، ويُمسك باليمنى صينية عليها كلُّ ما تبقّى، وكذلك سكينٌ وشوكة.

لمّا وصل إلى الغرفة، نزع سدّادة القارورة مستخدمًا في ذلك السكّين، وشرب جَرعة صغيرة من فوّهة القارورة، وتمضمض بها ثم ابتلعها.

قال للجرذ:

- ميلادٌ سعيد!

وعبّ جَرعةً أكبر.

ثمّ تهيّأ لتناول الطعام. كان في الصحن كميّةٌ كبيرةٌ من الطعام الخليط: استقرّت قطعة الخنزير تحت اللحم، وقطعة من الإمبانادا في الوسط، والبطاطا المقلية متناثرة فوق الموزة، وذلك نتيجةً للاستعجال. أخذ قطعة الخنزير ورفعها إلى فمه. لاقى صعوبة في ابتلاعها. كان جائعًا، ولكنّ حضور ألفارو جعله يغصّ بالطعام. حينما كان في نطاق حقل رؤيته، لم يرفع عينيه عنه؛ وقد نظر إليه بحدّة شديدة حتّى إنّه تعجّب من أنّه لم يُكتَشَف.

وضع الطبق إلى جانبه وتراجع إلى الوراء، ممدًّا قدمَيه على السرير، ومسندًا ظهره إلى الجدار. شعر بالغثيان. سرى وخزٌ كهربائيّ في جسده منطلقًا من كتفَيه ونازلًا إلى بطنه، وانطلق آخرُ من خاصرته صاعدًا إلى الأعلى ليلتقيا عند المريء كما لو أنّه المكان الذي اختاره الغضب والاسترخاء لكي يصطدم بعضهما ببعض فيه. أغمض عينيه نصف إغماضة.

ثمّ سمع صوت بوق سيارة، وأصوات بعض الصبية في الشارع، فأحسّ بأنّ الكثير من الوقت قد مضى منذ أن أغلق عينيه. كان مشوّش الذهن ودائخًا. إن الغضب الذي شعر به على رئيس العمّال يوم ذاك لا يُقارن مع الغضب الذي يشعر به الآن على ألفارو، وتساءل في نفسه كيف استطاع أن ينام. تذكّر بأنّه قد ترك تحت الخزانة قطعة من الخنزير للجرذ... لم يشرب سوى جَرعتين من النبيذ... هزّ رأسه، فنهض، ونزل سريعًا إلى الطابق الأوّل.

لم تكن لديه أيّ فكرة عن التوقيت، ولكن لا بدّ أنّ الوقت متأخرٌ: لم يكن هناك أحد في غرفة الطعام، وكانت أضواء الطابق الأرضي مطفأة. أسرع نحو غرفة روزا. لم يجرؤ على فتح الباب، ولكنّه سمعَ أو ظنّ بأنّه سمعَ صوت أنفاسِها وأدرك بأنّها نائمة.

كان الظلام دامسًا؛ ولم يكن ينسلّ أيّ بصيص من النور من الخارج. ولم يلق ماريا أيّ عناء في الذهاب حتى غرفة نوم الزوجين بليندر اللذين لم يكونا يغلقان بابها أبدًا إغلاقًا تامًّا، ورأى كتلتَين جامدتين بلا حراك في السرير، تبتعد كلّ منهما عن الأخرى كثيرًا.

كانت ساعة الحائط المعلّقة على جدار المطبخ تشير إلى الثالثة وعشرين دقيقة صباحًا. عاد إلى غرفة الجلوس. كان متعبًا، كما لو أنّ ساعات النعاس قد أنهكته. ترك نفسه يسقط في مقعدٍ.

أثناء زيارته الأخيرة، كان ماريا قد سمع ألفارو يقول بأنّه قد مضت ستّة أشهر من دون أن يدخّن. ومع ذلك كانت رائحة السجائر تفوح في الهواء. انحنى بتأنٍّ إلى الأمام وتحسّس العديد من أعقاب السجائر في منفضةٍ موضوعةٍ على طاولةٍ خفيضة. كانت السجائر قد دُخّنت حتى مصافي أعقابها، باستثناء سيجارة واحدة؛ أخذها، وانطلاقا من لمسها بأطراف أصابعه، مثل رجلٍ

أعمى، لاحظ أنّه قد بقي منها سنتمتران أو ثلاثة سنتمترات، وبأنّها لم تكن قد أُطفِئت عمدًا، وإنّما تُركِت في المنفضة؛ ومن ثمَّ كانت السيجارة قد احترقت وانطفأت من تلقائها: كانت ورقة السيجارة سليمة. رفعها إلى شفتَيه. لم تكن لديه النيّة في أن يشعل السيجارة الآن؛ رفعها إلى شفتَيه فقط لكي يشعر بشكلها، ولكنّه شعر بالغثيان: كان لعاب ألفارو لا يزال يبلّل عقب السيجارة.

أحسّ بالقرف، فتركها تسقط من بين شفتيه، مبعدًا أصابعه عنها باشمئزاز حتى لا يكون هناك أي اتصال جسدي بها.

فجأةً، سمع صوت تنفّسٍ عميقٍ، كان شخيرًا. قام، فتجمّد في مكانه. كان هناك من ينام على المقعد المقابل له. على بعد خمسة أمتارٍ منه على الأقلّ، على الجانب الآخر من الطاولة الخفيضة، مباعدًا بين ساقيه، ورأسه مائل نحو الجانب الأيسر. على مسند المقعد، إلى اليمين من رأسه، يوجد معطف؛ وأحد كمّي قميصه موضوعٌ على ساقه. نهض ماريا بتأنٍّ وحذرٍ شديدَين، وتقدّم نحو المقعد؛ كان عقرب الدقائق في ساعة الحائط المعلّقة على جدار المطبخ أسرع منه تقدّمًا.

كان الرجل النائم في المقعد ألفارو. حبس ماريا أنفاسه. بدا له أنّه من البديهي أن يبتعد عن المكان إذا كان الرجل النائم في مقعد هو ألفارو، ولكنّه قرّر أن يمنح نفسه فرصة أخرى، فانحنى إلى الأمام ووضع يديه حول رقبته. هزّ ألفارو كتفَيه كما لو أنّ شيئًا تافهًا، مثل ذبابةٍ أو تيارٍ هوائيّ بارد، يزعجه.

ضغط ماريا على عنقه على نحوٍ أشدّ، ففتح ألفارو عينيه ورأى أنّ رجلًا غريبًا، عاريًا مثل دودة، يضغط على عنقه. انتزع النعاس والكحول والغرابة مجتمعةً ابتسامةً من شفتيه. حاول أن ينهض، ولكنّ ماريا جلس على ركبتيه، مثبّتًا إياه في مكانه، ثمّ شدّد من ضغط يديه على رقبته أكثر.

قال له:

- مرحبًا!

ضغط بشدّة كبيرة بحيث سمع صوت طقطقة العظام الصغيرة تتكسّر.

أوقعته وداعة ألفارو وغياب المقاومة لديه في حيرةٍ، كما لو أنّه، وهو على حافة القبر، يرغب في أن يعتقد بأنّ ذلك ليس سوى حلمٍ. بل، بعد مرور برهةٍ من الوقت، أغمض عينيه واختفى وجهه. قال ماريا في نفسه إنّه لا بدّ وأنّ وجهه قد اتّخذ لونًا بنفسجيًّا امتزج مع الظلام. أفلت رقبته.

كان ينضح عرقًا. سقطت قطرة من العرق من رأس أنفه؛ وارتجفت يداه وذراعها. الآن وقد قتله، ازداد غضبه منه أكثر من قبل.

ظلّ بعض الوقت جالسًا على ركبتَي ألفارو، وهو يعاتب نفسه لأنّه لم يكن على ما يكفي من الصفاء ليخبره بأنّ من قتله هو عشيق روزا. ثمّ نهض أخيرًا، وراح يجلس على الأريكة. كان منهكًا.

قال في نفسه: «حسنًا، والآن؟». يمكنه أن يفتح باب المطبخ، وباب الشارع ويحتفظ بالمفاتيح، الأمر الذي سيجعل آل بليندر يظنون أنّ القاتل، اللصّ، قد دخل إلى المنزل تحت جنح الظلام. ولكن، إذا كانت هذه هي الحالة، فإنّه سيكون من المنطقيّ أنّ شيئًا ثمينًا ما سيكون قد اختفى من المنزل... إمّا دولارات ريكاردو وإمّا مجوهرات السيّدة بليندر... فتخلّى في الحال عن هذه الفكرة: فقد كان الدخول إلى غرفة نوم ريكاردو أو أخذ مجوهرات السيّدة أمرَين محفوفَين بمخاطر شديدة. لم يعرف الكثير عن العَلاقات بين ألفارو وعائلته أو الآخرين لاستدعاء دافعٍ ذي طابعٍ عاطفي، وإضافةً إلى ذلك، لن يصدّق أحدٌ لحظةً واحدة أنّ ريكاردو أو السيّد بليندر (لأنّ الأمر يتعلّق بكلّ تأكيد برجلٍ) قادرَان على قتله، إذ لم يكن ريكاردو ولا السيّد بليندر بهذه القوّة ليستطيعا خنقه، حتى وإن كان ثملًا. على أيّ حال، لم يشكّ أحدٌ بأنّه في المنزل، ومن ثَمَّ لن يبحث أحدٌ عنه. هناك احتمالات قوية بأن تضطرّ الشرطة لأن تصدّق واحدة من الفرضيتين اللتين وضعهما، سواء فتح الأبواب أم لم يفتحها. ولكن، في الحالتين، سوف تفتّش الشرطة على نحوٍ دقيقٍ المنزل، وربّما سوف تمكث فيه بعض الوقت، وعندئذٍ قد يموت جوعًا وعطشًا، إن لم يتم كشفه قبل ذلك؛ وربّما سوف يقرّر آل بليندر مغادرة المنزل للإقامة في فندقٍ أو في منزل أصدقاء لهم، فزعين أو مشمئزين من هول الجريمة. وحينها، ما الذي سيحلّ بهما، روزا... وهو؟

شغل كلّ هذا ذهنه أثناء لحظة عصيبة. في الواقع، بين اللحظة التي خرّ فيها جالسًا في الأريكة واللحظة التي شرع فيها بالحركة، بعد خمس دقائق أو ستّ من ذلك، اكتفى بالتقاط أنفاسه واستعادة قواه: يعرف ما سيفعله، لم يكن بحاجة إلى التفكير في أيّ شيء؛ لديه فكرة، وبالحكم عليها انطلاقًا من السرعة التي جفّ بها عرقه، كانت فكرة عبقريّة.

صعد إلى غرفته.

بينما كان يسمعه قادمًا، قفز الجرذ من السرير، وانتقل بتكاسل وبثقةٍ، نحو خزانة الملابس. أخذ ماريا صحن الطعام الذي وضعه قبل بضع ساعات على السرير، وخرج من جديد من الغرفة.

لا يزال واثقًا ومطمئنًا حتّى إنّه قام بجولةٍ، ودخل إلى المطبخ ليرى كم تكون الساعة. أحسّ بأنّ الشمس كانت تشرق، ومع ذلك أشارت الساعة إلى الخامسة صباحًا، والسماء صافية، ولذلك كان هناك بعض النور، وهذا كلّ ما

في الأمر. لا يزال لديه بعض الوقت قبل أن تشرق الشمس. لذا، جعله هذا الفارق في التوقيت بين تصوّره عن الزمن، والزمن الحقيقي، في حيرةٍ من أمره؛ كان ليراهن على أنّ كلّ شيء قد حدث بالكاد منذ بضع دقائق.

وضع الصحن على الطاولة الخفيضة، ورفع ألفارو عن المقعد ومدّده على بطنه على الأريكة.

كان قد سمع مرارًا في وسائل الإعلام عن ثقل جثة الموتى، ولكنّ ألفارو بدا له خفيفًا مثل ريشةٍ. جلس إلى جانبه، وأخذ قطعةً من اللحم من الطبق ووضعها في فمه. مضغها، ثمّ بصق قطعة اللحم الممضوغة في راحة يده، وأدخلها في فم ألفارو، ودسّها بإصبعيه حتى حشاها في حلقه.

كرّر هذه العملية إلى أن لم يعد هناك لحمٌ في الطبق. ثمّ أضاف قطعة من الإمبانادا، وكذلك القليل من شريحة الخنزير والخبز. لقد حشاه مثل ديكٍ رومي. الشيء الوحيد الذي يأمله، إذا ما حامت الشكوك في اليوم التالي حول موت ألفارو (اختناقٌ بسبب التقيّؤ)، وإذا ما قرّر أحدهم أن يزور مجموعة المخمورين المجهولين الذين تناول ألفارو معهم العشاء في ليلة الميلاد، فإن هذه الوجبة ستفي بالغرض.

بالإضافة إلى ذلك - وكان من حسن المآل- لم يعد ماريا يشعر بالجوع. كان شبعًا. نهض من مكانه، وأخذ الصحن (أفرج عن إشارة من رأسه وهو يرى بأنّ الموزة قد بقيت له)، واختفى وسط الظلام.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

15

أوّل ما فعله عند الاستيقاظ في اليوم التالي هو تناول الموزة بمثابة فطورٍ. ثمّ لعق الصحن بضربةٍ من لسانه، كاشطًا بقايا اللحم، وبقايا صلصةٍ لها طعم البرقوق وانخرط في حديثٍ متخيّلٍ مع روزا.

- ليثير المرء إعجاب الآخرين، لا ينبغي أن يكون جميلًا، بل مرعبًا.

- لماذا؟

- كيف «لماذا»؟ فكّر لحظةً واحدةً. عليك أن تقول ما يريد الآخرون أن يسمعوه، وأن تبتسم لأيٍّ كان، وأن تكون موضوعيًا، وشفّافًا، والكثير من الصفات الأخرى، وهي جميعها مرعبة. وفي النهاية، ماذا؟ تموت. كلنا نموت. ألم تفكّري قطّ بأنّك حينما تموتين، ويموت الذين يعرفونك، فلن يبقى منك أيّ شيء، ولا حتى ذكرى؟

- أنت عميق جدًا...

- كلا، هذه ليست مسألة عمق، هذا عبارة عن ابتذال! ما يحدث هو أنّ الناس لا يريدون رؤيته. بعضهم لأنّهم لا يستطيعون، والآخرون لأنّهم يرون ذلك، ولكن... ماذا حدث بينه وبينكِ؟

كان سيجيب عن نفسه بصوت روزا وهي تقول كما تفعل دائمًا: - ماريا!

ولكن انقطعت أنفاسه.

خرج بحذر من غرفته، وتأكّد أنّ المكان ما به من أحدٍ، وانسلّ إلى المطبخ بأقصى سرعة. أثناء المسافة التي قطعها إلى المطبخ، سمع صوت روزا مرة أخرى وهي تناديه، ولكن هذه المرة من الحديقة الصغيرة التي تقع قبالة باب الخدمة.

لم يكن هناك أحدٌ في المطبخ. وباب المدخل مفتوحٌ على مصراعيه. اقترب ماريا من النافذة ونظر إلى الخارج. الباب المقوّى بقضبانٍ حديدية، هو الآخر، مفتوحٌ، ولكنّه لم ير روزا في أيّ مكان.

وصلت روزا من الشارع بعد مرور دقيقة واحدة، قَلقَة، كما لو أنّها قد ركضت. أغلقت الباب المقوّى بقضبانٍ حديدية بالمفتاح، ودخلت إلى المنزل؛ كئيبة. رآها ماريا تصل، واختبأ خلف جدارٍ ملحق المطبخ. لم يكن المكان آمنًا؛ لأنّه إذا ذهبت روزا للبحث عن شيءٍ ما في الخزانة، فلن تكون أمامه أيّ فرصة في الفرار نحو الممرّ أو السلّم من دون أن يُرى. ولكنّ روزا جلست إلى الطاولة، ووضعت جبينها على ذراعيها، وأجهشت بالبكاء.

راقبها ماريا برهةً. ثمّ تراجع بتأنٍّ نحو السلّم وصعد راكضًا بحثًا عن الهاتف. هناك مليون شيءٍ ليسألها عنها.

سألها حينما ردّت على المكالمة: - روزا؟

قالت روزا دفعةً واحدة، مقطوعة الأنفاس: - لقد رأيتُكَ، لقد ناديتُكَ، وتظاهرتَ بأنّك لم تسمعني! لماذا تفعل هذا بي، ما الذي جرى لك، ما الذي غيّرك بهذه الطريقة؟ لماذا تلعبُ معي هذه الألاعيب؟

أدرك ماريا أنّ روزا رأت في الشارع رجلًا يشبهه. نادته، وجرت خلفه بضعة أمتار - ربّما حتّى زاوية الشارع، ليس أكثر؛ لأنّها تركت المنزل فارغًا ومفتوحَ الباب- وهي تصرخ من دون أن تتلقّى ردًّا.

- لم يكن ذاك الرجل أنا.

- لقد تظاهرتَ بالشرود، رأيتني أناديك وتظاهرتَ بأنّك لم تكن تسمعني!

- لم يكن ذاك الرجل أنا، يا روزا. لقد اختلط عليكِ الأمر وشبّهتِ أحدًا بي.

(ساد البكاء).

سألها ماريا:

- أخبريني ما الذي كنتُ ألبسه؟

في تلك اللحظة، لم يرتدِ سوى قميصِه (لقد نظّف جسمه بعض الشيء هذا الصباح).

- كنتَ ترتدي ثيابًا زرقاء اللون.

- لا أرتدي ثيابًا زرقاء اللون، أرأيتِ؟

- وكيف لي أن أعرفَ أنّك لا تكذب عليّ إن لم أرك؟

فكّر ماريا برهةً.

كان يتهيّأ لأن يقول شيئًا من قبيل «صدّقيني» أو «لماذا سأكذب عليكِ؟» حينما سألته روزا: - من أين تحدّثني؟

- من قمرة هاتفٍ عمومي...

- لماذا لم تأتِ؟ ألن تشرح لي أبدًا ما يحدث؟

- أحبّكِ، هذا هو الشيء الوحيد المهمّ.

- أنا أيضًا أحبّك، ولكن هذا لا علاقة له بما يحدث. أقسم لكَ إنّك تجعلني أصاب بالجنون، يا ماريا... لا أدري ماذا... لا أفهم شيئًا...

- إذن؟

- إذن ماذا؟

- أو ما يزال الرجل يتودّد إليك؟

- أيّ رجل؟

- كُفّي عن هذا، يا روزا، لا تدعيني أعود إلى القصّة من بدايتها... من هذا الرجل؟

- هذا ليس من شأنك.

- آه، أريتِ بأنّني على حقّ، وأنّ هناك رجلًا! من هو؟

- لا أحد.

- أخبريني من هو.

- أنت أخبرني أوّلًا بما يحدث، لماذا تتصرّف بهذه الطريقة، وأنا... أوه، هذا أمرٌ لا أهمّية له، لن تدعني أكشف عن هذا الرجل الضخم في حين أنّني لا أعرف حتّى لماذا غادرتَ بهذه الطريقة. ظننت أنّك كنتَ تحبّني...

- هل قلتِ إنّه ضخم؟

- لا أدري إن كان ضخمًا. إنّه طويل.

- هل أعرفه؟

- سوف أغلق السمّاعة. أنت تزعجني.

- كلا، انتظري، لا تغلقي السمّاعة، يا روزا، هذا أمرٌ مهمّ! أنا أيضًا، أحبّكِ...

- لا أصدّقُكَ.

- أقسم لكِ بالله على ذلك. هل أعرفه؟

- من؟

- الرجل الضخم، الطويل البائس!

ساد الصمت.

- اسمعيني، يا روزا. لا أستطيع أن أشرح لكِ الكثير. عليكِ أن تصدّقيني، أن تثقي بي. أنا أحبّكِ حقًّا. أنا على استعدادٍ لأن أضحّيَ بإحدى يديّ ونصف الأخرى في سبيل قبلةٍ منكِ، ولكنّني لا أستطيع. إصغي إليّ بانتباه وتركيز يا حبيبتي: لا أستطيع... لا أستطيع. عليكِ أن تظلّي صبورة، لأنّه في لحظةٍ أو أخري، سوف أستطيع و... لكن، في الوقت الحالي، هكذا هو الوضع.

- هل أنت في السجن؟

- سبق وأن أخبرتكِ بأنّني لستُ في السجن.

- وماذا إذن؟

- من الرجل الضخم الذي تحدّثتِ عنه؟ هل أعرفه؟

ساد الصمت.

- روزا؟

- كيف يمكنك أنّ تلحّ عليّ بهذه الطريقة؟ أنت تبالغ في الأمر! أمَّا بالنسبة لي، فليس لهذا الأمر أيّ أهمّية. إنّه يُلاحقني، ولكنّني لا أفسح له المجال ولا أتجاوب معه. لا أفعل شيئًا سوى التفكير بكَ. أشعر بوحدة قاسية من دونكَ! والآن أكثر من أيّ وقتٍ مضى... تتذكّر أنّني حدّثتُك عن ألفارو، ابن صاحبَي المنزل، الذي يُفرطُ في شرب الكحول. لقد عُثِرَ عليه هذا الصباح ميّتًا في غرفة الجلوس.

- ما الذي حصل له؟

- حسب رأيي، لقد تمّ قتله.

سأل ماريا بعد برهةٍ من الصمت: - ماذا؟

- لقد تقيّأ بينما كان نائمًا، واختنق. لقد ذهبوا ليدفنوه، لم يرغبوا في أن يسهروا بجانب جثمانه ولم يفعلوا أيّ شيءٍ آخر: لقد وضعوه مباشرة في التابوت! أقصد... قالوا أمامي بأنّهم سيسهرون بجانب جثمانه في مكانٍ آخرَ... لا أدري أين... لكن، بحسب رأيي، ذهبوا ليدفنوه مباشرةً. لا أحد هنا يحبّه.

- لماذا تقولين بأنّه قد قُتِلَ؟

- لا أعرف... إنّه مجرّد حدس.

- ومَنْ عساه يأتي ليقتله في المنزل؟

- لا أدري. ولكن لا تُبالي بما أقوله. على الأرجح أنّه بالفعل قد اختنق، وأنا، أنا كنتُ أقول أنّ... حبيبي؟

- نعم...

- هل أنت بعيد؟

- كلا...

- هل تمرّ أحيانًا من هنا؟

ثمّ، تابعت روزا فجأةً:

- عليّ أن أُغلق السمّاعة. لقد جاء أحدهم! اتّصل بي في وقتٍ لاحق. ولا تشغل بالك، لن أخبر أحدًا بأنّك قد اتّصلتَ بي... سوف أتركك الآن، سوف أذهب، أحبّكَ.

وأغلقت السمّاعة.

دخل استيبان في الحال إلى المطبخ. يرتدي ثيابًا على طريقة رجل دين كاثوليكيّ متشدّد، من سترة زرقاء، وسروالٍ رماديّ، وقميصٍ أبيض، وربطة عنق وزوج أحذية متناسقة في اللون.

قال لروزا:

- جهّزي نفسكِ. جَدّي غاضبٌ جدًّا. كان الخطُّ مشغولًا طيلة الوقت. ولكي يزداد الطين بلّةً، فالخطّ الآخر –أيضًا- مشغول.

-يا إلهي، لا بدّ أنّني لم أغلق السمّاعة على نحوٍ جيّد... حينما كنتُ أنظّفُ وأُرتّب...!

صعدت روزا سريعًا إلى الطابق الأوّل. وكان ماريا، الذي استطاع أن يسمع قسمًا لا بأس به من المحادثة، قد سبقها ببضعة أمتار، ولذلك وصل إلى الهاتف قبل روزا، فرفع سمّاعته، ومن دون تفكيرٍ فيما يفعله، انسلّ إلى خلف الستائر. ولكنّ روزا القلقة كثيرًا بشأن الإهانات والشتائم التي ستتلقّاها من السيّد بليندر ما إن يصل، لم تُلاحظ أنّ الستائر تهتزّ.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

16

لم يشعر بندمٍ، ولكنّه - أيضًا- لم يشعر بالارتياح. على العكس: هو متضايقٌ. يودُّ لو تحدّث مع روزا، ويخبرها بأنّه القاتل، وقد فعل ذلك من أجلها هي، دون أن ينتظر تصفيقًا وثناءً، ولكنّه سيُسعد بأن يرى على وجهها (عدا تعبيرٍ عن الفزع) الارتياحَ الذي لم يشعر هو به. إنّها خيالات غير معقولة أكثر منها جنونية، ناجمة عن ظروف حياته كشبح؛ إذ حُرِمَ من الكلام، ولم يستطيع أن يدع أحدًا يراه، أو أن يثير ضجّةً، لقد اجتاحته الخيالاتُ قبل كل شيء. فكّر لو أنّه لم يعش مختبئًا في المنزل، وقتل مع ذلك ألفارو، لما راودته فكرة أن يقول بأنّه القاتل. والآن، كما لو أنّ مشكلاته لم تكن كافية، كان عليه بذل المزيد من الحذر حينما قرر الاتصال بها هاتفيًا: لم يفكّر في أنّ أحدهم سيستخدم الخطّ الثاني، حينما يكون مشغولا بالخطّ الأوّل.

في الوقت الراهن، لم يكن هناك شيءٌ مهمّ ليفعله. بعد عودتهم من المقبرة، تخلّى آل بليندر أثناء يومين أو ثلاثة أيام عن نزهاتهم في المدينة، وقلّصوا إلى الحدّ الأدنى خروجهم من المنزل.

تُرى هلّ وبّخ السيّد بليندر روزا على إشغالها الخطَّ الهاتفي الأول، وتركها الخطّ الثاني مفتوحًا؟ على الأرجح لم يحصل ذلك، ولكن من الصعب أن يتيقّن من ذلك لأنّ الحضور شبه الدائم لآل بليندر في المنزل أجبره على البقاء بعيدًا عن الطابق الأرضي، وأيضًا، في بعض الأوقات، عن الطابق الأوّل الذي حوّله الأطفال الذين هم أصغر سنًّا إلى ساحة للعبهم ويلعبون فيه على نحوٍ خاصّ لعبة الغمّيضة.

لقد شنَّ غارتين في ساعتين مختلفتين من اليوم ولم يُلاحظ عند آل بليندر أيّ علامة تدلّ على الحزن والألم لفراق ألفارو. بدا أنّ موت ألفارو، بدل أن يؤثّر فيهم، فقد أسهم في تعزيز أواصر لُحمَتِهم: إذ يتنقّلون بصورةٍ جماعيّة، ملتحمين بعضهم مع بعض بصورة دائمة، كما لو أنّ المكان قد ضاق بهم. وطالما أنّ نوعًا من اتّفاقٍ عفويّ ومرتجَلٍ لم يُرجعهم إلى إيقاع حياتهم المعتاد - كما لو أنّ الحداد إجراءٌ صوريٌّ قد أوفوا به- فقد أمضَوا معظم وقتهم، جالسين في مقاعد غرفة الجلوس، في مشاهدة التلفاز، وهم في شرودٍ واستغراقٍ في التفكير. باستثناء الأطفال، لم يكن أحدٌ يتكلّم.

انقضى يومان طويلان من الملل. يمنعه فيهما القلق من القراءة... لماذا قالت روزا إنّها تظنّ بأنّ ألفارو قد قُتِلَ؟ مارس بعض التمارين البدنية... منْ الرجل الطويل الذي يتّصل بها؟ اكتشف أنّ جهاز التسجيل لم يعد يعمل... تملّكته الرغبة في أنّ يضربَه أرضًا ويحطّمه، ولكنّه تركه على السرير، ونهض.

دفع أحد درفتَي النافذة بمقدار سنتيمترين، وألقى نظرة من الفتحة، ونظر إلى الخارج. أحسّ بالطمأنينة. كلّما نظر إلى الخارج، تفاجأ بالقدرة على أن يرى في هذه الجزئية الصغيرة من الواقع، كما كان يسمّي العالم الخارجي، كلّ الواقع. إطلالة لم تتجاوز أكثر من ثلاثين مترًا بين العمارة ذات الشرفات البلاستيكية الصفراء اللون والزاوية الأخرى من الشارع، تكفيه لأن يتصوّر الجوّ العامّ، على الأقلّ جوّ المجتمع الراقي، وأنّ يقدّر نسبة البطالة حسب زيادة أو نقصان عدد جامعي مُخلّفات الورق المقوّى والباعة المتجوّلين، وأن يعرف السيّارات من أحدث طراز، وأن يكون مطّلعًا على أحدث ما في عالم الموضة، وأن يعرف التوقيت ودرجات الحرارة، بل أن يأخذ علمًا ببعض أنشطة الطابق الأرضي: من يدخل إليه، ومن يخرج، وتسليم متجر ديسكو شَحنة جديدة. في الليل، رأى أضواء المطبخ وهي تنعكس على زجاج السيارات المركونة أمام المنزل. كانت درجات الحرارة دائمًا أكثر انخفاضًا في الداخل ممّا هي عليه في الشارع، ولكنّه امتلك فكرة تقريبية عن درجات الحرارة «الحقيقية» حسب طريقة لبس الناس، وعرف التوقيت انطلاقًا من تصرفاتهم أو استعجالهم. رأى روزا في حين لم يتوقّع ذلك: عبرت الحديقة الصغيرة الجانبية وتوجّهت نحو الباب المطلّ على الشارع، فأسعده ذلك. كان يمكن أن يشعر بأنّ الحياة قد عادت إليها: أصبح وجهها أكثر إشراقًا، كما لو أنّها ابتلعت للتوّ فقاعة هواء. ولكن كان هناك شيءٌ ما غير طبيعي في الطريقة التي تظهر فيها الآن... سارت بتأنٍّ وبطء، متفكّرة، وذراعاها متصالبتان...

تلك هي الكلمة الصحيحة: متفكّرة. أسندت روزا جبينها إلى شبكة الباب، وحرّكت بالكاد رأسها، وهي تنظر إلى يمين الرصيف ويساره. لم يبدُ عليها أنّها تنتظر أحدًا، وإنّما تبحث عنه. ربّما، مع الأخذ في الحسبان تفكّرها، ربّما كان هذا ما يوهم ماريا نفسه. هزّت روزا كتفَيها، وطوت هبّة ريحٍ، خفيفة ولكن متواصلة، تنّورتها، من دون أن تحرّكها. لا بدّ أنّ الساعة أشارت إلى السادسة أو السابعة مساءً: لقد جعلت الأشعة الذهبية للغسق من شعرها أكثر سوادًا من أيّ وقتٍ مضى.

وحينئذ، ومن دون مقدّمات التفتت روزا، وسط دهشته الكبيرة، ونظرت إلى الأعلى نحو النافذة. لم يحظَ ماريا بالوقت الكافي ليتراجع عن النافذة. ظلّ ساكنًا في مكانه، وذهنه يعمل بسرعة الضوء. لو أنّه ابتعد عن النافذة، لانتبهت روزا إلى الحركة واكتشفته.

لبضع ثوانٍ، بدت لماريا كما لو أنّها ساعات طويلة، أبقت روزا عينيها مركّزة على الشقّ بين درفتَي النافذة. تُرى هل كانت تراه، هل كانت تنظر إليه؟ انطلاقًا من طريقة تصرّفها، لم يكن الأمر كذلك: فلا تزال ذراعاها متصالبتين.

ولم تكن هناك أيّ علامة دهشة على وجهها. اعتقد ماريا أنّها لم تستطع أن تراه وسط عتمة الغرفة، وأنّها تلوم نفسها على عدم إغلاقها النافذة بصورة جيّدة. ومع ذلك، نظرة روزا منصبّة على عينه... كلا، لم تكن إلى الأعلى أو الأسفل، وإنّما عليه هو بالتحديد.

فتحت روزا شفتَيها، وتركت ذراعيها تُسبلان، كما لو أنّها رأت شيئًا مرعبًا ودخلت بخطوات سريعة إلى المنزل.

ألقى ماريا نظرةً على الغرفة: لم يتغيّر أيّ شيءٍ فيها، كلّ شيء على حاله كما في اليوم الأوّل. أخذ آلة التسجيل، والسمّاعات، وكتاب الدكتور داير، وخرج، وأغلق الباب من خلفه، وركض ليذهب ويختبئ في المستودع.

وصلت روزا إلى العلّيَّة بعد ذلك بدقيقة. صعدت جريًا، لاهثةً. ذهبت مباشرةً إلى غرفة ماريا، ولكنّها لم تدخل إليها بالاستعجال نفسه الذي صعدت به السلّم: خطت الأمتار الأخيرة التي تفصلها عن الباب (طبعًا، لم تكنّ أيّ هبّة رياح تهبّ في الداخل، لكنّ تنوّرتها لا تزال مطويّة) وهي تبطئ من سرعة خطواتها، كما لو أنّها أرادت أن تتوقّف، ولكنّها لم تستطع أن تفعل ذلك.

وضعت إحدى يديها على مقبض الباب وفتحته بهدوءٍ وبطء. توقّفت. أعطت الانطباع برهةً بأنّها تشمّ هواء الغرفة، وهي بالكاد تمدّ رأسها إلى الداخل. ولا تزال في الخارج، نظرت إلى خلفها كما لو أنّ أحدًا قد يراقبها. ثمّ في النهاية، دخلت إلى الغرفة.

سارت خطوة بخطوة حتى وصلت إلى النافذة، وهي تنظر إلى الجانبين، وكذلك إلى الأعلى والأسفل، وأغلقتها. لاحظ ماريا اندفاعة ما، لم تكن مخيفة في شيء، اندفاعة هادئة، عودة إلى الحالة الطبيعية. «لم يكن هناك أيُّ شيء». كانت على وشك أن تغادر الغرفة حينما جعلها شيءٌ ما تصرخ فجأةً. أطلقت صيحة قويّة جدًّا بحيثُ سُمِعَت في الطابق الأرضي.

وصل صوت السيّد بليندر إلى العلّية بعد ثانيةٍ من صوت روزا، قائلًا:

- ماذا هناك؟

خرجت روزا من الغرفة وهي تنطُّ بقفزات صغيرة اعتباطية، كما لو أنّ قدميها تحترقان.

قالت وهي تنزل السلّم مهرولةً:

- إنّه جرذ!

صعد ريكاردو في الحال، خلف الأطفال. تلك هي المرّة الأولى التي يصعدون فيها إلى الطابق الأعلى. بدا ريكاردو حائرًا، إذ لم تكن لديه أيّ فكرة عن

المكان الذي رأت فيه روزا الجرذ ولا عمّا سيفعله لو أنّه هو الآخر رآه لسوء الحظّ، ولكنّ الأطفال، المتحفّزين باشمئزاز البالغين - قبل كلّ شيء باشمئزاز والدهم، والآن السيّد والسيّدة بليندر - أيضًا- يركضون في كلّ الاتجاهات بتلقائية مثل قطيع من العميان.

خشي ماريا من أن يكتشفوا أمر المستودع؛ فإذا ما فعلوا ذلك، فسيكون من الصعب إيقافهم.

لحسن الحظّ، أمرهم ريكاردو بحزم أن يبقوا هادئين، فخضع الأطفال لأمره.

قالت روزا التي سرعان ما عادت:

- كان هنا.

بدت هادئة: فالحادثة لم تعد بذلك التأثير. بعدما مرّ الإحساس الأوّل، عادت إلى الطابق الأعلى، ربّما لأنّ السيّد أو السيّدة قد طلبا منها ذلك، أو لأنّها قرّرت اصطياد الجرذ. على أيّ حال، كانت هناك احتمالات قوية ألا يكون هذا الجرذ هو الأوّل الذي رأته في المنزل.

سأل ريكاردو:

- أين؟

أشارت روزا إلى الغرفة.

قالت بنبرة يائسة:

- ولكنّه هرب... لقد هرب من هناك...

- أيُّها الأطفال، يا أطفال! صرخ ريكاردو في الأطفال الذين ركضوا نحو المكان الذي أشارت إليه روزا بغموض: لقد قدّمتم ذريعة جيدة لفراره.

كان ماريا قد أغلق الباب وتابع المشهد من ثقب القفل. المنظور يعني أنّه كان لديه حقل رؤية واسعٌ، ولكنّه كان قادرًا على تمييز ريكاردو وروزا وهما يتحدّثان بعضهما لبعض.

قال ريكاردو وهو يهزّ كتفَيه:

- حسنًا، إذا كان الأمر هكذا...

قالت روزا:

- سوف يظهر من جديد...

لم يُضف ريكاردو أيّ كلمة أخرى. أعطى إشارةً للأطفال وشرع الثلاثة بنزول السلّم في طابورٍ واحد. في منتصف الطريق، أبرز ريكاردو، الذي نشط فجأةً، مخالبه، وأطلق صوتًا مرعبًا وركض خلف أطفاله الذين وافقوا على اللعب وهربوا منه، رافعين أيديهم فوق رأسهم: لقد فاقوه سرعةً في الجري. أغلقت روزا باب الغرفة من جديد، وأخذت المفتاح، ولحقت بهم.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

17

توجد في الطابق الأعلى سبع غرف على طول ممرٍّ على شكل الحرف L، وغرفة عمل، وغرفة ألعاب (محوّلة إلى مستودع)، وغرفة لكيّ اللباس، وغرفة غسيل، ومرحاضان، إضافة إلى بهوٍ واسع، وغرفة صغيرة خالية من الأثاث. تلك الغرفة أراد ماريا، ذات يوم، أن يسمّيها «أفريقيا». ولذلك لم يُواجه أيّ صعوبة في الإقامة في غرفة نوم أخرى (حتى وإن شعر بأنّه بات يجد نفسه مرميًّا «في الشارع»، حينما قفلت روزا الباب وأخذت معها المفتاح).

اختار آخر غرفة إلى اليسار. ما إن وجد في نفسه القوّة على أن يُعيد فتح الستائر حتّى انتبه إلى أنّه أقرب بكثير من قبل إلى زاوية الشارع؛ اكتفى أوّل وهلة بتفحّص الغرفة: كانت بأبعاد الغرفة الأخرى نفسها، وفيها السرير نفسه في المكان نفسه والحشيّة نفسها. جلس على الحشيّة ليجرّبها، ورفع عينيه... لم تكن هناك خزانة ثياب، ولكن كانت هناك أدراج، عبارة عن قطعة أثاث صغيرة مناسبة، مسندة إلى الجدار، وموضوعة إلى جانب السرير، وكانت ثلاثة أدراج منها فارغة، وكذلك صورة مطبوعة قديمة لشعار أسطوانة فرقة البيتلز، ألصَقتها بالتأكيد سلفًا على الباب خادمة مقيمة...

لو أنّ الجرذ قد تصرّف مع روزا كما تصرّف معه في المرّة الأولى التي رآه فيها (رسم حلقة لكي يُعطي الانطباع بأنّه قد هرب، ثم يقفل عائدًا إلى نقطة انطلاقه)، لكانت هناك احتمالات قوية لأن يبقى من الآنَ فصاعدًا محبوسًا في الغرفة. لماذا أخذت روزا المفتاح معها؟ لم تكن أيّ غرفٍ أخرى مقفلة بالمفتاح. لماذا أقفلت باب هذه الغرفة؟

أقام والداه، أثناء الأشهر الأخيرة من زواجهما، في غرفتَين منفصلتَين، وكلّما خرج أحدهما من المنزل، أغلق باب غرفته وأقفله بالمفتاح.

لم يكن لديهما أيُّ شيء ليُخفياه: يفعلان ذلك فقط ليُظهر كلّ منهما رفضه للآخر. المشكلة هي أنّ في منزلهما لم تكن هناك سوى غرفتَين، غرفة والديه، وغرفته هو، التي تقيم فيها والدته بحيث، إذا خرجت من المنزل، لم يستطع أن يدخل إلى غرفته الخاصّة. يحدث لها أن تعود في وقتٍ متأخّر، فتحمله عن المقعد المصنوع من القصب في المطبخ وتنقله إلى سريره، الأمر الذي يجعل ماريا، عند استيقاظه في الصباح، يجد نفسه في غرفته. في مرّات أخرى، إذا كان الوقت متأخّرًا جدًّا، يشفق والده عليه ويدعوه إلى الانتظار في سريره، ولكن ذلك يحدث نادرًا جدًّا، ثم يوقظه لينصرف حالما يسمع صوت الباب المطلّ على الشارع وهو يُفتَح.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق
متميزون
E-BOOK

18

في الثالث من يناير/ كانون الثاني، بينما كان ريكاردو وريتا يُحضران الحقائب، والأطفال الصغار يشاهدون التلفاز، دخل استيبان إلى غرفة روزا.

دُهشت روزا حينما رأته يدخل. طلبت منه أن يخرج، ولكنّ استيبان قال شيئًا ما بصوتٍ خفيض، جملةٌ طويلة تشبه صفيرًا خفيفًا يسعى انطلاقًا منها، على ما بدا، إلى إقناعها بعكس ما رغبت. أعقب ذلك صمتٌ في الغرفة. ثمّ سُمِعَ صوتُ همساتٍ وضحكةٍ خفيفة واحتكاك نعالٍ بالأرضية، كما لو أنّ استيبان قد جرى خلف روزا في الغرفة وأمسك بها...

تكلّمت روزا برهةً من الوقت وحدها. بدا أنّها تتمنّع: - استيبان!

- كلّا، يا استيبان، يمكن لأحدهم أن يدخل...!

- ابقَ هادئًا...

- ابقَ هادئًا. استيبان...

- لا!

- سبق وقلت لكَ لا!

- انظر إلى نفسك... هاه؟

الآن، استيبان هو منْ يتكلّم، وروزا هي منْ سكتت: - سوف أنصرف.

- لقد ظننتُ أنّه حينما...

- حسنًا. أنا آسف.

ساد الصمت.

استيبان:

- هل أنتِ متضايقة منّي؟

روزا:

- كلّا...

استيبان:

- أكيد؟

وافقت روزا بإشارةٍ من رأسها.

قال استيبان:

- حسنًا، أمّا أنا، فأنا متضايق منك، متضايق جدًّا.

رَفَعَت روزا عينَيها نحوه. فأضاف: - هل تظنّين أنّني لا أعرف أنّكِ عشيقة هذا الطويل البائس الغبيّ، والمليء بالدمامل؟

- ليس لهذا علاقة بالأمر، يا استيبان. إضافةً إلى ذلك...

ساد الصمت.

- إضافة إلى ذلك ماذا؟

- لا شيء.

- هيا، لا تراوغي، قولي ذلك! أنا صغير السنّ جدًّا مقارنةً بك؟ هذا ما كنتِ ستقولينه؟ حسنًا، في العام الماضي، ألم يكن الأمر مشابهًا...

- إنّها مجرّدُ لعبة.

- بالطبع!

- بصدق، قصدت ذلك.

- لا يظنّ طبيبي النفساني أنّ ذلك مجرّد لعبة...

- هل حدّثته عن ذلك؟

- بالطبع. ولا يمكنكِ أن تتصوّري كم توسّلتُ إليه لكيلا يُخبر والديّ بشيءٍ عن ذلك.

- أوه لا...

- أطلعني الرجل على سلسلة من القوانين. أُقسم لكِ إنّني لا زلتُ أشعر بالعرق البارد الذي جرى على طول عمودي الفقري يومها. هذا ما شعرت به مع الطبيب النفساني، صدقيني. هذا لم يحدث معكِ أنتِ. معكِ، كان الأمر...

- لماذا أخبرته بذلك؟

- طبعًا لأنّني أدفع له!

- يا لَه من جنون...!

- لا ترسمي علامة الصليب، فليس هذا ما سيساعدنا. يمكنني أن أؤكّد لكِ أنني أعود هذه السنة إلى لندن في حالةٍ أكثر سوءًا من السنة الماضية. لم أغمض عيني منذ أن جئتُ إلى هنا... اسمعي يا روزا، لا أريد أن أمارس ضغطًا

عليكِ، لا أودّ أن تعتقدي بأنني أروي لكِ هذه الأمور لأقسرك على أيّ شيءٍ كان. الأمر وما فيه أنّني شعرت بسعادة جمّة عندما جعلتني...

- لا تبكِ...

- حسنًا. لننسَ الأمر. هذا ليس خطأكِ. مشكلاتي السلوكية، ونوبات غضبي، وكوابيسي... ما علاقتكِ بكلّ هذا؟ أنا من أهملتُ نفسي. كنتُ غبيًّا...

- استيبان...

- سأنصرف. سوف نلتقي في السنة القادمة. أتمنّى أن أنساكِ أثناء هذا الوقت...

- أين والدكَ ووالدتكَ؟

- إنّهما يعدّان الحقائب...

- هل عاد السيّد والسيّدة؟

- جدّي وجدّتي؟

- نعم.

- كلا، ليس بعد.

- ينبغي أن ننهيَ هذا بسرعة.

- كما تشائين، يا حبيبتي.

- ولكن قبل ذلك، عدني بشيءٍ: في السنة القادمة، سنغيّر الموضوع.

- أعدكِ بذلك.

- أَقسِم لي على ذلك.

- أُقسمُ لكِ على ذلك.

- تعالَ، وقف هنا...

سمع ماريا حينذاك أصوات الطفلين اللذين هما أصغر سنًّا، يقتربان، وبالكاد حظي بالوقت الكافي ليختبئ. دقَّ قلبه بعنف، وتردّد صداه، كما لو لديه قلبان بدل قلبٍ واحد.

ركض الطفلان في الممرّ وهما يطلقان صيحات هستيرية. خرج استيبان في الحال من الغرفة وهو يرفع سحاب سرواله. كان شاحب الوجه، ومرعوبًا. داهمه الطفلان. لم تظهر عليهما الدهشة في الارتطام فجأةً بشقيقهما البكر،

بل كانا راغبَين في التملّص منه والاستمرار في الجري. ولكنّ استيبان أمسك بهما بإحدى ذراعيه وهزّهما بعنف. كان سيأمرهما بأن يُخليا المكان عندما ظهر ريكاردو، فجأةً مُصدِرًا صوت زئيرٍ، ويداه مفتوحتان مثل مخالب، وعلى وجهه تكشيرة وحشٍ.

رآه استيبان وابتسم له. قال بلهجة زائفة: - لقد أمسكتُ بهما!

وقف ريكاردو معتدلًا وترك ذراعيه تسبلان.

سأله:

- وأنتَ، ماذا تفعل هنا؟

ردّ استيبان:

- أليس لديّ الحقّ في أن أقوم بجولةٍ في المنزل؟

فكّر ريكاردو برهةً. ثمّ قال: - تعالوا جميعًا، وكُفّوا عن اللعب، سنغادرُ.

سأل استيبان:

- الآن؟

أجابه والده:

- نعم، الآن.

كان الأب يتحدّث بلهجة آمرة.

لحق استيبان، كئيبًا ومنزعجًا، بأخويه وهو يُطلق تنهيدة امتعاضٍ وتحسُّر.

تابع ريكاردو بنظره الأطفال الثلاثة الذين مرّوا من أمامه، متوجّهين نحو السلّم. ثمّ لحق بهم، وهو يسير خلفهم مثل حيوانٍ يحثّ صغاره.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

19

- روزا، هذا أنا...

- آه، ماريا...

- هل كلّ شيء على ما يُرام؟

- لا أدري...

- ما بكِ؟

- فيَّ كلّ شيء...

- أخبريني...

- كلا، دعك من ذلك...

- هيّا، أخبريني يا حبيبتي، لا تكوني سخيفة! ما الذي جرى؟

- أين أنت؟

- دعينا لا نعود إلى هذا السؤال...

- لقد جاء أطفال أصحاب المنزل مع ذويهم، لا أدري إن كنتُ قد أخبرتك في المرّة الماضية عندما تحدّثنا، ولكن...

توقّفت روزا عن الكلام.

- ولكن ماذا؟

- لا شيء، وهذا كلُّ ما في الأمر. ليس لديّ فكرةٌ عمّا كنت سأقوله لك...

- هل واجهتِ مشكلة؟

- مع مَنْ؟

- معهم؟ أو مع أحدهم، لا أدري.

- كلا...

- ولكن انطلاقًا من الاستماع إليكِ، يبدو أنّه بالفعل هناك مشكلة. لا تخبريني أنّ هناك واحدًا من بينهم قد أقام علاقة جنسية معكِ!

- معي أنا؟

- نعم...

- ومن عساه أن يُقيم علاقةً جنسيّة معي؟

- وما أدراني؟ أنتِ منْ ينبغي لها أن تعرف ذلك...

سكتت روزا.

سأل ماريا مرّة أخرى بإلحاح:

- هذا صحيح؟ أقام أحدهم علاقة جنسية معكِ؟

غيّرت روزا الموضوع.

- هل تعرف ما ودِدتُ قوله لك؟ أردتُ أن أخبرك بأنّني، يوم أمس، كنتُ في الخارج، وقد التفتُّ على نحوٍ مفاجئ و... لن تصدّقني، ستظنّ أنّني مجنونة... بدا لي أنّ هناك شخصًا ما في الأعلى، في غرفةٍ من الطابقِ الأعلى، الطابقِ العلّية من المنزل...

قال ماريا بعد برهةٍ:

- آه حقًّا! على الأرجح أنّه أحد سَكَنَة المنزل...

قالت روزا فجأةً بنبرة مرهقة:

- أجل، هذا ممكن. صعدتُ في الحال إلى الغرفة، ولم يكن هناك أحدٌ... تخيّل أنّ هناك جرذًا في الغرفة! اللعنة، لقد نسيتُ أن أضع بعض السمّ!

- ستضعين سمًّا من أجل جرذٍ؟

- طلبَت منّي سيّدة المنزل ذلك. إنّها محقّة. فإذا كان هناك جرذٌ في المنزل، فهذا يعني أنّ هناك جرذانًا أخرى أيضًا. أمّا أنا، فهذه هي المرّة الأولى التي أرى فيها جرذًا في المنزل. حينما بدأتُ العمل في هذا المنزل، ظننتُ أنّه مليءٌ بالفئران، ولكن الأمر لم يكن كذلك. هذا أوّلُ جرذٍ أراه في المنزل. كلّا، أنا أكذب، رأيتُ جرذًا آخرَ أيضًا ذات مرّة. ولكن ذلك منذ زمنٍ طويل... ألن تأتي لتراني؟ أين أنت؟

هذه المرّة، كان ماريا هو منْ غيّر الموضوع. سألها: - وهذا الرجل الضخم، هذا الذي قلتِ لي عنه في المرّة الماضية بأنّه يلاحقك؟

حان دور روزا لتغيّرِ الموضوع. قالت: - آه، أنت لن تصدّق: في المرّة الماضية، كان الهاتف مشغولًا، صعدتُ إلى الغرفة لأرى إن كنتُ قد تركتُ السمّاعة غير مُحكَمة الغلق، وحينما أمسكتُ بالسمّاعة، وجدتها دافئة! دافئة، كما لو أنّ أحدًا ما قد استخدمها... كما لو أنّ أحدَهم استخدمها تمامًا قبل أن أصل...

سرت قشعريرةٌ في جسد ماريا. ألقى نظرةً سريعة من حوله بحثًا عن خرقةً أو قطعة نسيجٍ ليمُسك بها من الآنَ فصاعدًا سمّاعة الهاتف، كإجراءٍ وقائي، حتّى لا تقول روزا في نفسها، بعد أن يُغلق السمّاعة، إنّه مَن تكلّم معها، ثم تصعد لكي ترى إن كان الهاتف دافئًا أم لا. ولكن لم يكن هناك أيّ شيء ليغلّفه به. بد أنّ المنزل عارٍ مثله هو تمامًا. أول مرّة، منذ أن أقام في المنزل، لاحظ أنّ موادّ المنزلَ الأساسية كانت مكوّنة من الرخام والخشب والمعدن. الألياف النسيجية الوحيدة المرئية في المنزل، ألياف السجاد والستائر. على العكس من بيته، الذي تتناثر الخرق والقطع النسيجية في كلّ أركانه...

اضطرّ لأن يُمسكَ سمّاعة الهاتف بإصبعَين فقط، السبّابة والإبهام، كما لو أنّ سمّاعة الهاتف قد أحرقت فجأةً يدَه أو أثارَت تقزّزه.

- ألا تشعرين بأنّكِ تبالغين في الشكّ بعض الشيء؟

- نعم، هذا ممكن... لا أدري، بدا لي...

- الطقس حارّ جدًّا إذا ما فكّرتِ بذلك...

- ولكن هنا، كلا. هنا، ترتفع الحرارة في فصل الخريف. هل تعرف أنّ البحر... قرأت ذلك سابقًا في مجلّة Selecciones... هل تعرف لماذا مياه البحر باردة في النهار وساخنة في الليل؟

- لماذا؟

- لأنّ الشمس، في النهار، تسخّن الماء. ولكن ذلك يستغرق وقتًا طويلًا. تعمل الشمس طيلة النهار على تسخين المياه وتظهر النتيجة في الليل. وفي الليل، يحدث الشيء نفسه. في الليل، تبرد المياه ببطء، ببطء، ونشعر ببرودة المياه في النهار.

- هل سبق لكِ أن ذهبتِ إلى شاطئ مار ديل بلاتا؟ من غير المعقول أنني لم أسألك عن ذلك قطّ من قبل...

- كلا. وأنت؟ وأنا كذلك، لم أسألك عن ذلكَ قطّ من قبل...

- نعم، لقد زرتها مرّة واحدة، منذ مدّة لا بأس بها. إنّها جميلة.

- أتخيّل أنّه لا بدّ أنّك قد التقطت صورة الدبّين اللذين في مدخل المنتجع...

- إنّهما أسدان. من أسود البحر. كلا، لم ألتقط صورًا، لم تكن لديّ آلة تصوير. لأنّني لم أذهب إليها لقضاء العطلة، وإنّما من أجل العمل. لقد شيّدنا هناك عمارةً من ثلاثين طابقًا، أو ربّما من خمسة وثلاثين طابقًا، لم أعد أتذكّر تمامًا.

كانت عمارة ضخمة. والحر... يا إلهي، لقد كان مستحيلًا! ما كنتُ أراه من الأعلى كان يشبه عشّ نمل!

- ويوم الأحد؟ هل تعمل في يوم الأحد أيضًا؟

- كلّا، يوم الأحد أذهب إلى الشاطئ. ولكن، في الأسفل هناك، يبدو أنّ هناك عددًا أقلّ من الناس. يعتاد المرء على ذلك.

- وهل أنا محقّة، هل المياه باردة أم لا؟

- أحيانًا. في أحد أيام الأحد كانت باردة، وفي أحدٍ آخر، لم تكن كذلك. هل تعرفين مَنْ رأيت هناك ذات يوم؟

- كريستيان كاسترو!

- لا، للأسف! شاهدتُ خوان ليرادو. يعتمر طاقية بيريه، ويضع نظّارة، وله كرش، وينتعل صندلًا، ويرتدي قميصًا رياضيًّا، ولا أعرف ماذا أيضًا، يبدو كأنّه أحد سكّان كوكب المريخ، ولكن مع ذلك، تعرّفتُ عليه. وفي مرّة أخرى، رأيتُ أدولفو بيوي كاساريس، لا أدري إن كنت تعرفين من يكون...

- كلا...

- إنّه كاتب. من الغريب أنّكِ لا تعرفين من يكون، إنّه كاتبٌ شهيرٌ جدًّا. لقد رأيته في كثير من الصور...

- لا أعرفه...

- شعرتُ بالأسى لحاله. حينما تنظرين إلى الرجل، ترين بأنّه شخصٌ جيّد، رجلٌ متأنّق، سيّد. أنا جادٌّ فيما أقول: إنّه رجلٌ مثقّف. إن لم أكن مخطئًا، فهو حاليًا متوفّى... ولكن، في تلك المرّة التي شاهدته فيها، كان جالسًا بمحاذات مصدات هواء قماشية، وينظر إلى الناس، وهو يرتدي كامل ثيابه، ويعتمر قبّعة. من على بعدِ مئة مترٍ، كنت لتظنينه شيء آخر! مررتُ من أمامه، ونظرتُ إليه، فبادلني الرجل النظر، ثم رفع قبّعته، وألقى عليّ التحيّة.

- هل يعرفك؟

- كلا بحقّ الجحيم، كيف سيكون له أن يعرفني! لقد نظر إليّ، ورفع قبّعته، أقسمُ لكِ بالله على ذلك، وانطلاقًا من تلك اللحظة، أحببته. لا أودّ أن أتحدّث بهذه الطريقة، ولكن هذه هي الحقيقة: لقد أحببته، ومن ثمّ فكّرتُ في الأمر... ألا تعتقدين أنّ على الدولة أن تتكفّل برعاية الكتّاب وتأمين مستقبل أطفالهم؟ أنا أقول: ماذا يكلّف الدولة أن تضع مبلغًا زهيدًا في المصرف ليكتب مبدعوها براحةٍ من دون الانشغال بالمستقبل؟ ما قيمة هذا للدولة؟ لا

شيء، قطعة نقدية لا أكثر. تمنحهم الدولة قطعة نقدية وهم يمنحونها عملًا أدبيًّا وفنّيًا. ما رأيكِ بهذا الأمر؟

- وما يدريني أنا في؟ فيما يتعلّق بنا، فنحن نعمل جاهدين طيلة النهار و...

- ولكنّ الأمرَ مختلفٌ هنا يا حبيبتي: أمّا نحن، فنحن عمّال.

- إذن بالأحرى: لماذا ستدفع الحكومة أموالًا للفنّانين ليرقصوا في الليل على حلبة مسرحٍ، ولا تدفع لنا نحن العمّال الذين نرقص منذ طلوع الشمس حتّى غروبها، وإضافة إلى ذلك لا يُصفّق لنا أحدٌ؟

- روزا، لا أُريد أن أتجادل...

ساد الصمت.

قال ماريا:

- أوّد أن أصحبكِ، ذات يوم، إلى مار ديل بلاتا...

ساد الصمت من جديد.

قال ماريا:

- ألو؟

- أين أنتَ؟

- لقد سبق لكِ وأن سألتِني هذا السؤال مئة مرّة، يا روزا. لقد قلتُ لكِ إنّني لا أستطيع أن أُخبركِ بذلك. يكفيكِ أن تعلمي بأنّني في منطقة قريبة منكِ، وأنّني ما زلتُ أُحبُّكِ كثيرًا و... أنتِ تعرفين كيف هي الأمور.

- كلّا، لا أعرف.

- حدّثيني عن الطويل البائس. مَن هو؟

- لا أحد، لا أهمّية لهذا الأمر، هذا يكفي.

- هل أنتِ غاضبة؟

- كلّا.

- أمّا أنا، فيبدو لي أنّكِ غاضبة.

- هل أنتَ في السجن؟

- كلّا.

- لا أستطيع أن أصدّق ما تفعله بي... لقد بدأتُ أشعر بالتعب منه.

- لا تقولي هذا يا حبيبتي!

- ولكن يا خوسيه ماريا، ماذا تُريدني أن أقول، إذا كنتَ لا تقدّم لي أيَّ توضيح!

- لا تُناديني خوسيه ماريا. حينما تنادي هكذا، أشعر أنّكِ لا تعرفينني من قبلُ. إضافةً إلى ذلك، أنتِ أيضًا، لا تعطيني أيَّ توضيح...

- ما الذي لا أوضّحه لك؟

- أسألكِ عن الطويل البائس ولا شيء سوى ذلك، ولا تقولين لي شيئًا. مَن هو؟

- تعال لرؤيتي وأنا سأخبرُك من يكون.

- آه، أنتِ مفاوضة بارعة! عليكِ أن تكوني محامية.

ساد الصمت.

- اسحبي قولك إنّكِ تعبتِ منّي.

- لم أقل إنني تعبتُ منكَ. لقد أسأتَ الفهم. لقد قلتُ لكَ إنّني بدأتُ أتعب من كلّ هذه الرواية التي ترويها لي.

- أنا أيضًا. هل تُريدين أن نُغلق السمّاعة؟

- هل تريد أن تغلق السمّاعة؟

- أنا أطرح عليكِ السؤال...

ردّت روزا بعد لحظة صمت:

- إذا أردتَ أن تغلق السمّاعة، فأغلقها.

وبعد برهةٍ من الصمت، أغلق ماريا السمّاعة، وقد أحسّ بالإهانة.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

20

لم يعاود الاتّصال مع روزا إلّا عند نهاية فصل الصيف. أثناء هذه الأشهر، حبس نفسه (الأمر الذي لا يعني الكثير حينما يتعلّق الأمر برجلٍ منعزلٍ مثله) في عالمٍ من الأنشطة الصغيرة مثل التمارين البدنية، والقراءة، وعلى نحوٍ خاصّ، الغارات الليلية على المطبخ بحثًا عن الطعام كانت من بين الأعمال الترفيهية الرئيسة؛ فقد وضع حدًّا لنزهاته، وتوقّف عن الاهتمام بالتحرّكات في البيت، وتجنّب طواعيةً الإصغاء إلى أحاديث آل بليندر، ووضع كلَّ طاقته في تجاهل حياة روزا، كما لو أنّه يريد أن ينساها.

كان مجروحًا في داخله. كانت الصورة التي كوّنها عن ألفارو وهو يغتصبها تؤلمه وتعذّبه... يؤلمُه أشدَّ الإيلام احتمال أن يكون استيبان قد بلغ غاياته (ربّما للمرّة الثانية)، وأن يكون «الرجل الضخم»، «الطويل السمين» مستمرًّا في الاتّصال بها هاتفيًّا، والأرجح اللقاء بها مباشرةً، ولكنّ الأكثر إيلامًا إليه هو اللهجة التي تحدّثت بها روزا معه في محادثتهما الأخيرة، لهجةٌ جافّة تبعده عنها طواعيةً.

لماذا تكلّمت معه بهذه الطريقة؟

صحيحٌ أنّه لم يخبرها عن مكان وجوده، ولكنّه صحيحٌ - أيضًا- بأنّها تشكّ في أنّه في السجن، وأنّه يتّصل بها ويُقسم لها على حبّه. ألم يلامسها ويؤثّر فيها صوته ووعوده، هل تمّ تجريدُهما من كلّ معنى فقط بسبب غيابه؟ لماذا أحبّت كريستيان كاسترو من دون أن تراه أبدًا؟ تأكّد أنّه لو جاء كريستيان كاسترو فجأةً ليقول لها: «كوني وفيّة لي أثناء عشرين سنةً وسأعود إليكِ بعد أن أنتهيَ من عملي»، لظلّت وفيّةً له على نحوٍ مطلق.

لم يستطع أن يطرح عليها أسئلة واضحة ومباشرة، ولكنّها لم تُظهر أيَّ نيّةٍ في أن تبوحَ له بأسرار حياتها الخاصّة. من وجهة نظرٍ معيّنة، هي تخونه. فعلى قولها إنّها مغرمة به، إلّا أنّها لم تخبره بكلمة واحدة حول اعتداء ألفارو عليها، ولا حول غواية استيبان، ومطالبات «الرجل الطويل البائس». على النقيض من ذلك تمامًا: لم تشعر بالحرج والضيق من التكتّم على كلّ شيء. لو أنّه بالفعل في السجن، كما كانت تفترض، فهل هذا سببٌ كافٍ للترفيه عن ثلاثة أفرادٍ، بينهم مغتَصِب، في غضون ثلاثة أشهر تقريبًا؟

يتألّم لعدم قدرته على البوح لها بأنّه يقيم معها في المنزل نفسه...

ذا مساء، أدرك أخيرًا لماذا تحدّثت معه روزا بهذه اللهجة التي أهانته كثيرًا: تحدّثت معه بهذه الطريقة لأنّها اعتادت تدريجيًّا على مثل هذي الأحاديث الغامضة معه، وليس لأنّها لم تحبّه أو أنّها غير مهتمّة بأمره. ولكن في اللحظة

نفسها التي سيغفر لها انطلاقًا من الاتصال بها هاتفيًّا من جديد، رأى من نافذة الطابق الأوّل روزا مع إسرائيل.

لمّا تعرّفه، أحسّ بحقدٍ كبيرٍ عليه، بحيث، لو لم يرتدِ إسرائيل قميص كرة الركبي، لأجبر ماريا نفسه على الاقتناع بأنّه ليس إسرائيل وإنّما رجلٌ آخر. جعله القميص، بمعنى من المعاني، أن يجفل ويعود إلى أرض الواقع: إسرائيل عدّوه، هذا الغبيّ الاستفزازيّ الذي ضربه أمام روزا قبل مدّة لا بأس بها من الزمن، هو «الرجل الضخم»، «الطويل السمين». سلوكها، بل سلوكهما جامدٌ؛ إذ لا حراك أمام باب الخدمة، لم يترك أيّ مجالٍ للشكّ: هناك حبٌّ عابر. الابتسامات والطريقة الخجولة في النظر بعضهماً إلى بعض وتسبيل عينيهما...

كزّ ماريا على أسنانه وامتلأت عيناه بالدموع.

قبّل إسرائيل روزا على أحد خدّيها وابتعد وهو يقول لها شيئًا ما، لا شكّ أنّه قد قال لها «سوف أتّصل بكِ» أو «سوف نتحدّث لاحقًا»، كما دلّت حركة يده، وهو يضع خنصره وإبهامه على وجهه. وافقت روزا بحركةٍ خفيفةٍ من رأسها. ثمّ أغلقت الباب وقفلته بالمفتاح، وسارت بضعة أمتارٍ وهي تنظر إلى الأرض، مطرقة في التفكير. أراد ماريا أن يقنع نفسه بأنّ روزا تتساءل هل ما تفعله صحيح... ولا بدّ أنّ روزا قد أجابت عن تساؤلها بالإيجاب؛ لأنّها أخذت فجأةً تبتسم وتقطع جريًا المسافة التي تفصلها عن المطبخ بخطواتٍ فتاة مراهقة.

كان ذلك فظيعًا، إنّها أسوأ الخيانات. في حين بات يفهم من الآنَ فصاعدًا كلّ شيء، لم يستطع أن يُصدّق ذلك. قرّر أن يختفيَ، أن يختفي داخل اختفائه حيال روزا. لم يكرهها، ولكنّه لم يستطع قطّ أن يغفر لها علاقتها مع إسرائيل. بدءًا من تلك اللحظة، حبس نفسه بالفعل. لم يعد يرغب أن يعرف أيّ شيءٍ عنها.

قبل عدة أيّام من ذلك، وضعت روزا سمّ الجرذان في الطابق الأعلى. السمّ كريّات، شبيهة بحبّات مِلحٍ ضخمة، زرقاء اللون، تمّ توزيعُها على هيئة أكوام صغيرة في زوايا الغرف. لكنه لملمها ورمى بها عبر شبكة التهوية بعد يومين من وضعها ليتمّ الاستنتاج بأنّ الجرذ تناولها، ولكن أثناء الأيام التي عاش فيها مع سمّ الجرذان في الغرفة، لم يشمّ قطّ رائحتها. الآن بدأ يشمّ الرائحة. لم يكن هناك أثر لحبّة سم واحدة، لكنّ الرائحة تغمر أرجاء المكان.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق
متميزون
E-BOOK

21

عزلته كانت تقريبًا شاملة. هناك، في غرفة الجلوس في الطابق الأرضي، مسجّلة مع راديو، وبطبيعة الحال لا يستطيعُ تشغيلها؛ لم يفده جهاز التسجيل من دون سمّاعات في أيّ شيء، ولم يتلقَّ الزوجان بليندر الصحف. فمجلة Selecciones del Reader’s Digest هي المطبوعة الوحيدة التي تصل إلى البيت بانتظام، والتي يتصفّحها أحيانًا وهو واقفٌ في غرفة الزوجين بليندر من دون أن يثيرَ أيُّ شيءٍ ممّا يقرؤه انتباهَه.

عرف من هو رئيس البلاد، لأنّه سمع باسمه، ولكنّه منذ زمنٍ طويل لم يعلم إن كان الرجل لا يزال في السلطة. هناك ثلاث شاشات تلفاز في البيت: واحدة في غرفة الجلوس في الطابق الأرضي، وواحدة في غرفة نوم السيّدة بليندر، وأخرى في غرفة روزا. يشغّل السيّد بليندر دائمًا الشاشة الموجودة في غرفة الجلوس، ويشاهد الشيء الوحيد مباريات كرة القدم الأرجنتينية والأوربية. وتشاهد السيّدة بليندر أفلامًا في غرفتها، بينما تشاهد روزا مسلسلات تلفزيونية وكلّ أنواع البرامج التي تقضي كلّ أوقاتها في انتقاد الآخرين، أمّا هو، فلم يشعر قطّ بالأمان حينما يستمع إلى التلفاز من خلف الأبواب؛ لأنّ صوت التلفاز يحول بينه وبين سماع صوت روزا أو السيّدة بليندر، إذا ما خرجتا، ولذلك يتلقّى أخبار العالم الخارجي الوحيدة من أخبار شاشة التلفاز الموجودة في غرفة الجلوس.

لم يشاهد السيّد بليندر شيئًا آخر سوى كرة القدم إلّا بصورةٍ استثنائيّة. ذات يوم، عِلِم ماريا أنّ الولايات المتّحدة الأمريكية هاجمت العراق، وأنّ امرأة من الطبقة الاجتماعية الراقية قد قُتِلَت في ريف مقاطعة بوينس أيرس، ربّما من أحد أفراد أسرتها، ولم ينجح المحقّقون في العثور على القاتل. فعلى النقاشات والفرضيّات المطوّلة التي أثيرت فقد كانت الحرب وهذه الجريمة كلتاهما اللتين، منذ زمنٍ طويلٍ جدًّا، أثارتا اهتمام السيّد بليندر أكثر من كرة القدم.

ربّما يعمل السيّد بليندر محاميًّا أو طبيبًا، ويقرأ صحيفته في مكتبه أو عيادته. وإن لم يكن الأمر كذلك، يمكننا القول إنّ السيّد بليندر أدار ظهره للعالم، مختزلًا إيّاه في سلسلة من الملاعب المنقولة تلفزيونيًّا. أمّا هو، فلمن أدار ظهره؟ أدار ظهره للمنزل، ولروزا.

يمضي معظم النهار (والليل كلّه) محبوسًا في غرفته. يستخدم سكين الجيب التي سرقها من ريكاردو في نحت وبناء سفن، وطائرات، وحيوانات مستخدمًا أعواد الثقاب والصابون. كانت عبارة عن تماثيل صغيرة بارتفاع خمسة

سنتمترات إلى عشرة، يعمل عليها أثناء النهار ويخبّئها في المستودع حالما ينتهي من إنجازها.

أطلق لحيته وأطال شعره وأظفر سبّابة يده اليمنى الذي يساعده في نحت تماثيله من الصابون. من وقتٍ إلى آخر، يخرج من الغرفة ليعرّض وجهه للهواء والضوء - هرمٌ من الزجاج في وسط الطابق- ويستلقي هناك برهةً وهو مغمض العينين، وصامت، وعارٍ كما لو أنّه مدهون بواقٍ من الشمس، ومحطّم الأعصاب.

بعد مرور عدّة أشهر من العُري، وبغياب الاحتكاك المتواصل للأنسجة الخشنة وذات النوعية الرديئة التي كان يرتديها طيلة حياته، بات جلده أكثر نعومةً من أيّ وقتٍ مضى. وأصبحت أصابعه في غاية الحساسية. تُرى كم مليونًا من الضربات والشقوق الصغيرة والجروح الخفيفة أصابت يديه كلّ يوم أثناء عمله في مختلف ورشات البناء التي عمل فيها؟ كم كيلوغرامًا من الجير والتراب استنشق أثناء العمل؟ حينما ينتعل حذاءً أو صندلًا، يشعر بطبقة سميكة من الجلد المتيبّس على كعبَيه كما لو أنّها نعلٌ إضافيٌّ؛ ولكن منذ أن بات يسير على الدوام حافي القدمَين على البلاط، والأرضيات المصقولة، والسجاد، اختفت تلك الطبقة السميكة تدريجيًّا.

امتنع عن محادثاته المتخيّلة مع روزا، ولكنّه يحلم بها غالبًا. ذات ليلةٍ، حلم بأنهما يذهبان معًا إلى شاطئ مار ديل بلاتا، وفي ليلةٍ أخرى، حلم بأنّهما يعودان منها، كما لو أنه في عالم الأحلام تكون هناك استمرارية بين الشيء والذي يليه، حلم، ثم حلم آخر يكمل، حتى تتلاشى العطلات لتترك مكانها للرحلات والأسفار. وفي الوقت ذاته، تتقلّص حياته الجنسية إلى أقصى حدّ. ذات ليلةٍ، حلِم بأنّه يمارس الجنس مع روزا، ولكن في الأحلام التالية، تمارس الجنس دائمًا مع إسرائيل. يحمل هذا الأخير وشم نسرٍ ضخمٍ بالحجم الطبيعي على ظهره، تُلامس أطراف جناحيه ردفَيه.

ترك الغضب شيئًا فشيئًا مكانه لليأس والإحباط، وانتهى الأمر بالإحباط إلى أن أطفأ لديه الرغبة الجنسية: فقد توقّف عن ممارسة العادة السرية في النوم مثلما في الخارج. (ذات مرّة، حلِم بأنّه يمارس العادة السرية. الأمر الذي لم يحدث له قطّ من قبل).

بغض النظر عن إرادته، كان من المحتم أن تصل إليه بعض الأمور الصغيرة حول مختلف الأنشطة في المنزل. من قبيل تفاصيل صغيرة لا أهمّية لها - صوت إغلاق الأبواب، ساعات طويلة من الصمت المطلق، مكالمةٌ ما بصوتٍ مرتفع- التي يبني انطلاقا منها، بغير رغبة، رؤيةشاملة عن تطوّر علاقة الزوجين بليندر (من سيِّئ إلى أسوأ) وعن معنويات روزا (المرتفعة). تغيظه

تلك التفاصيل الصغيرة؛ لأنّ أصغر معلومة تثير لديه أسئلة مرعبة: هل تقابل روزا إسرائيل كل يوم؟ هل تعشقه؟ هل الأمر سيّان لديها أن ينتمي إسرائيل إلى الطبقة الراقية، ويرغب، من ثَمَّ، بكلّ وضوح أن ينام معها، وأنّ لا مستقبل للزوجين، وأنّهما سيعانيان الألم؟ ألم تفكّر كذلك بأنّ إسرائيل ربّما يسخر منها في النادي، وهو يسرد بالتفصيل مع غيره من الأوباش عن «اللقمة السائغة التي يلتهمها» في الحيّ؟

وفي الوقت ذاته، انتابه القلق بشأن مستقبلها المهنيّ. ذا صباح، سمع السيّد والسيّدة بليندر ينتقلان من الحديث العادي إلى الصراخ: فهما يعانيان من مشكلات اقتصادية خطيرة. والمنزل معروضٌ للبيع منذ سنوات. ولكن، ما لم يشتره بلدٌ ما ليستخدمه مقرًّا لبعثته الدبلوماسية، لم يكن المنزل قابلًا للبيع عمليًا، وذلك بسبب ثمنه الغالي. تُرى هل تعلم روزا أنّ مكان عملها معروضٌ للبيع؟ ذات مرّة، في حانةٍ، بعد الخروج من السينما، قد تحدّثا عن كلّ البلدان الجديدة التي ظهرت فجأةً على الخارطة. لم تستطع روزا أن تفهم كيف يمكن تأسيسُ بلدٍ جديد انطلاقًا من العدم، مع أرضٍ، وسكّانٍ، وقوانينَ، وعلمٍ، ونشيدٍ وطنيٍّ، ورئيسٍ. وقد أجابها آنذاك: «من العدم، كلّا: إنّهم يأخذون سلطاتهم. الأرض والسكّان موجودان أصلًا، الشيء الوحيد الذي يبقى عليهم أن يفعلوه، هو تأليف نشيدٍ وطني، واختيار رئيسٍ». ألم تنسَ روزا بأنّه في لحظةٍ معيّنة، يمكن لأناسٍ أن يأتوا ويشتروا المنزلَ ليكون سفارةً لبلدٍ جديد؟ ما الذي سيحلّ بها حينئذٍ؟ وما الذي سيحلّ به هو؟

سبق له وطرح على نفسه هذا السؤال. في كلّ مرّةٍ يبدأ بالتفكير بها، ينتهي به الأمر بالتفكير في نفسه. تمتلك روزا من دون شكٍّ فرص جيّدة؛ إذ يمكنها أن تجدَ عملًا في أيّ منزلٍ آخرَ، بل حتّى هنا في سفارة البلد الجديد، حتى وإن كانت، في هذه الحالة، فستصبح مواطنة أجنبية. هل يمكن للأجانب أن يعملوا في سفارة بلدٍ أجنبي؟ وماذا لو أخذها والدا إسرائيل لتعمل في خدمتهما؟ سيكون هذا الأمر فظيعًا: في هذه الحالة قد تحبل روزا من إسرائيل وتكرّر حكايته القديمة...

قبل أربعة عقودٍ من الزمن، كانت والدة ماريا خادمة في منزل المدير المالي للحاكم كاسترو. همس الناس - وقد بلغ الهمس أذنيه هو أيضًا- بأنّ طفلها هو ابن المدير المالي.

كان الرجل الذي طالما ناداه ماريا «بابا» أصهبَ، وجهه مليءٌ بالنمش، وقصير القامة، ولم يشبهه في أيّ شيء. ولم يشبه أمّه أيضًا. حينما بلغت الإشاعة أذنيه، كان قد كَبُر ومات المدير المالي منذ سنوات عديدة، ولذلك من المستحيل عليه أن يُقابله ويُقارنه بنفسه، الأمر الذي أقلق راحته على مدى سنوات، ولكنّه لم يجرؤ على الحديث عنه. في القرية، يحدث له من وقتٍ إلى

آخر أن يُصادف امرأة عجوز أنيقة تنظر إليه بطريقة مختلفة عن الأخريات: تبدو ساهية إلى اللحظة التي تراه فيها، فتبدو حينها أنّها قد استيقظت. تلك أرملة المدير المالي.

في اليوم نفسه الذي رحلت فيه أمّه مع رجلٍ آخر، دخل ماريا إلى غرفة والده وسأله. ليس في الحال: في البداية دخل إلى الغرفة، ثمّ ظلّ ساكنًا في مكانه بلا حراك، من دون أن يتفوّه بكلمة واحدة. بعد قليل، أدار والده - المستلقي على السرير وهو يُشاهد التلفاز- عينيه ونظر إليه. سأله:

- لماذا تبكي؟

يبكي ماريا لأنّ والدته رحلت. ولكنّه أجابه بأنّه يبكي لأنّه قد سمع بأنّه ليس ابنه.

استند والده على مرفقَيه. ثمّ سأله غاضبًا:

- مَن يقول هذا؟

- الأطفال. يقولون بأنني ابن المدير المالي... هل هذا صحيح؟

- كلا.

- إذن، لماذا...؟

قاطعه والده، مُسندًا ظهرَه إلى الجدار:

- قل لهم بأن يكفّوا عن التفوّه بهذه التُرّهات.

ولم يعد يفكّر في ذلك قطّ. تذكّر المشهد فيما يتعلق بروزا، ولكن أيضًا لأنّه عيد ميلاده: لقد بلغ الحاديةَ والأربعين من عمره.

لم يكن متأكّدًا من التاريخ الدقيق. دخل إلى المنزل في السادس والعشرين أو السابع والعشرين من شهر سبتمبر/ أيلول، ولذلك كان اليوم هو التاسع أو العاشر من شهر أبريل/ نيسان. يصادف عيد ميلاده التاسع من شهر أبريل/ نيسان...

فتح قارورة الشامبانيا التي سرقها في يوم الميلاد وخبّأها في مخزن المستودع، ثمّ شرب في جَرعاتٍ صغيرة ما يُقارب ثُلث القارورة من دون أيّ مظاهر احتفالية، ونظرته تائهة على الجدار.

بدأ الجوّ يبرد. تذكّر ما قالته له روزا بشأن درجات حرارة مياه البحر... مضى أسبوعان على مداهمة البرد للمدينة، فيرتدي الناس ثيابًا سميكة ويمشون في الشوارع بسرعة أكبر. بدأت أشجار الحديقة تفقدُ أوراقها، وتوقّف العشب

عن النموّ. وعلى طولِ مسارٍ، يبدو من الأعلى مثل خيطٍ أسودَ، تسير أرتالٌ من النمل العملاق، الأصفر والأحمر، بسرعةٍ مع حمولتها ذات اللون الأزرق السماوي.

لم يرَ أيّ شيءٍ من ذلك، ولكنّه يعلم بأنّ الصورة هكذا بالضبط.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

22

للحبّ وجه امرأة... فيلم المرأة القطّة... فيلم الهارب... برنامج قتال... ومسلسل مشاهدة بيوندي... تلك كانت البرامج التلفزيونية ([3]) التي يتجادل والداه، في مراحل زمنية مختلفة، حول مواضيعها. لم تكن مجرّد مناقشات لمعرفة مَنْ يُشاهد ماذا، وإنّما مشاجرات حقيقية. في البداية، تعلّق الأمر بمناقشات، ومن ثمّ تحوّلت بصورة دائمة إلى صراخ، وغالبًا إلى اشتباكات بالأيدي. يستمع والده إلى أسطوانات بيريز برادو، في حين تستمع والدته إلى أسطوانات ليوناردو فافيو. تدخّن والدته، أمّا والده فلم يكن مدخّنًا. تعمل والدته، أمّا والده فعاطلٌ عن العمل. هناك نقطة إيجابية لدى والده: يحبّ القيام بأعمال الطبخ، في حين تكره والدته الأطباق التي تتطلّب منها جهدًا كبيرًا.

التلفاز، والموسيقى، والعمل، والمطبخ، كلّ شيء باعثٌ على الخصام والشجار. تكمن المشكلة (إن استطعنا أن نقول ذلك) في أنّ المشاجراتِ لم تكن طريقة خاصّة ليكونا معًا، كما هو الحال في العلاقات التي يأخذ الحبّ فيها هيئة تنفيس الضغط بصورةٍ دائمة. مشاجرات والديه محض تعصّب، ناتجُ النفور المتبادل. يكره بعضهما بعضًا، وهذا قرارهما النهائي.

ينام والده كثيرًا، في النهار كما في الليل. أمّا والدته، فتعاني من الأرق بصورةٍ دائمةٍ...

مضت سنوات عديدة لم يرَ أثناءها أيًّا منهما، ولكنّه يعرف على الأقلّ مكان وجود والده... هذا إن تعلّق الأمر فعلًا بوالده. وما أهمّية ذلك الآن؟

جحظت عيناه (بسبب الكراهية، وليس الألم)، فقد رأى الجرذ.

تُرى هل هذا هو الجرذ نفسه، صديقه، رفيقه؟

سكن ماريا بلا حراك كما لو كان مصنوعًا من الهواء والنور، وهو يسند أحد خدّيه على أحد الجدران الزجاجية. فتح عينيه لأنّه أحسّ بأنّ أحدًا ما (شيئًا ما) ينظر إليه ويراه. الجرذ على بعد ثلاثة أمتار أو أربعة منه، وهو على بعدٍ مسافةٍ ما من الجدار وليس ملتصقًا بأسفل الحائط، كما لو أنّ مجرّد فعل النّظر حوّله ونقله إلى حالةٍ وسيطة بين نوعه الحيوانيّ والجنس البشريّ.

في الحقيقة، ينظر الجرذ إليه مثل كلبٍ. حتّى إنّ ماريا ظنّ بأنّه يحرّك ذيله برشاقة. ولكن هل هذا الجرذ هو نفسه؟ تُرى هل نجا من سمّ الجرذان؟ أم أنّه مات وهذه أنثاه جاءت لتشكره على صداقته؟ نظرا بعضهما إلى بعض حينًا

من الوقت، وكلاهما في مكانه بلا حراك. إلى أن خطا الجرذ فجأةً خطوةً نحوه. خطوة صغيرة لجرذٍ أليف. بدا عليه وكأنّه يقول: «نعم، هذا أنا».

فكّر ماريا أنّه من السهل على جرذٍ أن يتعرّف على إنسانٍ أكثر بكثير من أن يتعرّف إنسانٌ على جرذٍ.

أسبل أحد يديه، وأسند بهدوءٍ يدًا على الأرض، مديرًا راحةَ يدِه نحو الأعلى، داعيًا الجرذ إلى الاقتراب منه. لكنّ الجرذ استدار إلى الوراء، وهرب بأقصى سرعة.

أغمض ماريا عينيه من جديد.

نعم، في النهاية كانت ضربة حظّ ألّا ترغبَ والدته في رؤيته مرّة أخرى، لا هو ولا والده الزائف، بل حتّى وإن كان والده الحقيقي بالنسبة إليها.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

23

- روزا؟

ساد الصمت.

أغلق سمّاعة الهاتف.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

24

لم يتخيّل إلى أيّ حدّ قد يكون الشتاء قاسيًا في المنزل. أخرج من حقيبته ثيابَه الخاصّة بالعمل وارتداها، إضافة إلى ما كان يرتديه في ذلك اليوم: قميصَين، وسروالَين، والألبسة الداخلية، فضلًا عن كنزة للسيّد بليندر، سرقها ذا مساء من فوق خزانة الثياب.

تحوَّلت الجدران إلى ما يشبه الجليد بالمعنى الحرفي للكلمة. وبالمقابل، تجاوز معدن الستائر الحّد في برودته بحيث بات يلسع كالجمر. في الصباح، وكذلك في الليل، تصفّر الرياح أحيانًا مثل كائنٍ مسعور، ممرّرًا تيّاراته كنصالٍ حادّة انطلاقًا من الشقوق التي لم يكن الهواء - شقيقها- قادرًا على الولوج منها.

أضواء الطابق الأرضي مشتعلة على الدوام. يمارس ماريا، منعزلًا في غرفته، التمارين البدنية: مئة مرّة تمرين للذراعين، وبعدها مئة مرّة تمرين للمعدة، ببطء، ومخصّصًا لكلّ حركة الطاقة نفسها، والتركيز نفسه الذي تتطلّبه ممارسة الجنس مع روزا مرّة واحدة. لم يعد يتحسّر عليها، ولكنّه مع ذلك لم يقضِ دقيقة واحدة من دون التفكير بها.

لم يعد يريد رؤيتها. في بعض الأحيان، حينما تصعد روزا إلى الطابق لتقوم بتنظيف وترتيب الغرف، وتشطف الحمّامات، وتُشغّل المكنسة الكهربائية، وتمسح الزجاج (وهي الأعمال التي تشرد وتسرح روزا، كأيّ امرأة أخرى، في مكانٍ آخر أثناء القيام بها)، يدير ماريا لها ظهره. يطمح الشبح إلى أن يكون شبحًا. أيًّا كان المكان الذي يختبئ فيه، كلّما عملت روزا في الطابق الأعلى، أدار لها ظهره (كطقسٍ ديني) كما هو في فلسفة فينغ شوي الصينية القديمة. عشقه لها كبير جدًّا لدرجة أنه أصبح روحانيًّا حتّى ينكرَها من دون أن يموت.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

25

هذه «الانتكاسة» (المكالمة الهاتفية التي لم يستطع أن يتفوّه فيها بغير اسمها هي، وبعد صمتٍ لم يقل أكثر من «...؟»، ومن ثمّ إغلاق السمّاعة) حدثت في السابع من يونيو/ حزيران. لم يدفعه أيّ شيء إلى الاتصال بها. عوضًا عن ذلك لن تكون أكثر من إلهاء.

بات، حقيقةً، في حالة مختلفة. وعبّر جسده عن ذلك أكثر من روحه أو حالته النفسية: جسدُه مليءٌ بالألياف كما بالعروق، مغمور في هالةٍ من القوّة الكامنة، مع هذا وذاك، في الأعلى والأسفل، هناك ارتعاشات للحظات قصيرة جدًّا، مثل دفقات عصبية، وانفجارات صغيرة جدًّا. كان التناقض بين مظهره وبعض النشاطات التي يقوم بها (قراءة الكتب التي هي أكثر مبيعًا، المنحوتات التي يصنعها من الصابون) صارخًا. من الناحية الفكرية، بَعُدَ كلّ البُعد عن طفلٍ متوسّط المستوى، ومن ناحية الحكمة: كان مثل قفّاز مقلوب، خارجه في الداخل وداخله إلى الخارج، كان يعيش في أقصى حدوده، على أطراف ما يُلمس وما لا يُلمس (مكانان: بتلة وفراشة). لقد أصبح هذا الرجل الآن، وهو الذي قبل عامٍ مضى، كان باستطاعته أن يتباهى بالخبرة...

تجلّى كلّ فنّه في زورقٍ من الصابون (من دون مجاديف ولا مُجدّفين). ومع ذلك، خلق لنفسه اختفاءين، اختفاءه هو واختفاء الآخرين، وكلّ شيء (الأمر الذي بالكاد يمكن أن يُكتَب) بقوّة الغيظ. أجبرته الجريمة على أن يختبئ، ولكنّ الغيظ جعله ناسكًا.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

26

- مرحبًا، روزا.

منذ متى لم يكن قد تلفّظ بهذا الاسم؟ هو بنفسه لم يصدّق ذلك.

أمّا روزا، فقد صرخت على الطرف الآخر من الخطّ، متفاجئةً مثله.

- ماريا؟

- نعم، هذا أنا...

- يا إلهي...

- كيف حالكِ؟

- أين كنت؟

قال:

- سامحيني على عدم اتّصالي بكِ طيلة هذا الوقت، ولكنني أريدُ أن أقترح عليكِ شيئًا...

توقّف عن الكلام برهةً، ووسط الصمت المخيّم على البيت، وعلى طرفي الخطّ الهاتفي، سمع صوت التنفّس الهائج لروزا، مثل خفق أجنحة الطيور. ثمّ سأل: - هل تودّين مقابلتي؟

سألت روزا:

- ما الذي حدث؟

للحظة لم يدرك ماريا إن كان سؤالها يُشير إلى دعوته، كما لو أنّ رغبته في اللقاء بها تعني بالضرورة أنّ مصيبةً قد حلّت، أو أنّه لم يكن سوى السؤال القديم المقلق نفسه الذي ما فتئت تطرحه عليه منذ البداية.

فكّر وقد سرى في أعماقه حزنٌ شديد: لماذا تبقى روزا تراوح في المكان نفسه على كلّ ما جرى؟ أهو الشيء الوحيد المهمّ لها؟

- قبل كلّ شيء، يا روزا، منذ زمنٍ طويل وأنا أريد أن أخبركِ بأمرٍ، ودائمًا كنتُ أنسى ذلك لسببٍ أو لآخر. هناك كتاب يُدعى مَواطن الضعف لديكِ. أريدُكِ أن تقرئيه. ابحثي عنه في مكتبة المنزل لا بد أن أصحاب البيت يملكون نسخة منه. يُدعى مَواطن الضعف لديك. هناك على الغلاف صورةُ رجلٍ ينحني نصف انحناءة، مرسومةٌ بالكلمات. كنتُ أريد أن أقول لكِ ذلك. يا لَها من نعمة أن

أتذكّره! سيساعدكِ هذا الكتاب في كلّ ما تحتاجين إليه. والآن، دعينا نتحدّث عمّا يعنينا ويهمّنا...

- ماريا، هل أنت بخير؟ أنت لا تتحدّث مثل العادة...

- هل أصغيتِ إلى ما قلته لكِ؟ هل تريدين أن نلتقي؟

- هل أنتَ جادٌّ فيما تقول؟

وافقها ماريا بحركةٍ من رأسه.

ولكنّ روزا لم تستطع أن تراه، ولذلك أعادت سؤالها: - هل أنتَ جادٌّ في ما تقول؟

أجاب ماريا:

- نعم. هل تريدين أن نلتقي؟

- ما الذي حدث؟

عادا إلى المربّع الأوّل. استغلّ ماريا الطابع التعميمي الذي اتّخذه الحوار ليُعيد النظر في خطّته.

وهو ما فعله منذ البداية.

كانت مقاومته لاستيعاب ما يحدث في المنزل كبيرة، لدرجة أنه جهل الأمور التي من المستحيل تجاهلها. ففي بعد ظهيرة أحد الأيام، قبل خمسة أيامٍ خلت، قد سمع السيّدة بليندر تقول: - روزا، يا إلهي!

لسعت هذه الجملة فضوله.

نزل من غرفته. لقد مرّت عدّة أشهر لم ينزل فيها قطّ إلى الطابق الأوّل، في وضح النهار.

بعد مرور عشرِ دقائق، صعد من جديد إلى غرفته. حبس نفسه في الغرفة وظلّ وقتًا طويلًا متقوقعًا على نفسه في ركنٍ منها. يخفق قلبه بكلّ قوّة. هذه الدقائق العشر كافية له ليجمع سلسلةً من المؤشّرات والعناصر (مشاهد بصرية قصيرة وخاطفة، جمل معزولة)، التي بات الآن يبلور انطلاقا من رؤية عامّة للأحداث الرئيسة التي وقعت مؤخّرًا، مثل شخصٍ يغطس يده في المياه ليأخذ حفنة من الطمي أو الرمل ليحلّل فيما بعد تركيبَ التربة. وقد أحدث ما اكتشفه شرخًا مفاجئًا في الجدار الذي أقامه بين نفسه والمنزل: أ) روزا حاملٌ.

ب) لم يُرد إسرائيل الحديث عن ذلك.

ملأته النقطة الثانية بالاشمئزاز. أمّا الأولى، فملأته بالألم. روزا حامل...

وقد شاهد ذلك بأمّ عينيه. تقف السيّدة بليندر أمام روزا. يرى السيّدة بليندر رؤية كاملةً، في حين تظهر روزا بنصف جسمها في حين يحجب إطار الباب نصفها الآخر عن الرؤية، والجزء الوحيد الذي يراه من جسدها هو بطنها؛ تداعبه بإحدى يديها، بحركة تشبه حركة ضيفٍ شبع من الطعام أكثر منها حركة يدِ أمٍّ. ربّما تشعر بالخجل أو الخوف ممّا ستقوله ربّة المنزل... لا يزال البطن في حجمه الأدنى، ولكنّ علامات الحمل بادية عليه بما لا يدع أدنى مجالٍ للشكّ...

استدارت السيّدة بليندر على نفسها، وأدارت لها ظهرها، ثم استدارت من جديد لتتوجّه نحوها بتوتّر. أجهشت روزا بالبكاء. أخذتها السيّدة بليندر بين زراعيها وضمّتها إلى صدرها.

على الأرجح تلك المرّة الأولى التي تضمّها إلى صدرها؛ لأنّ روزا خطت خطوةً إلى الوراء وهي مذهولة أو مرعوبة. أصبحتا خارج حقل رؤيته، فنزل السلّم بضع درجاتٍ إضافية، ومدّ رأسه بحذر. نعم، كانتا تتعانقان. في الحقيقة، فعل الضم كان من طرف السيّدة بليندر فقط؛ فذراعا روزا كانتا مسبلتين إلى جانبيها.

- منْ والد الطفل؟

- لا أستطيع أن أُخبركِ بذلك، يا سيّدتي...

تراجعت السيّدة بليندر قليلًا، ومن دون أن تفلتها، نظرت في عينيها. أصبحت على نحوٍ مفاجئ جدّية جدًّا، كما لو أنّ روزا تخدعها وتتلاعب بها.

قالت لها:

- روزا، بوسعي أن أطلب منكِ أن تجمعي أغراضكِ وأن تذهبي إلى مكانٍ آخر، أليس كذلك؟ ومع ذلك، أنا هنا، وأريد أن أساعدكِ.

- إذا طلبتِ منّي ذلك، فسوف أُسقطه...

قالت السيّدة بليندر، وهي ترسم شارة الصليب: - لا تقولي شيئًا كهذا أمامي مرّة أخرى! هل فهمتِ؟

- نعم سيّدتي، لن أقول ذلك مرّة أخرى...

- ممتاز، فلنبدأ من جديد. منْ الأب؟

- إسرائيل، يا سيّدتي.

- منْ إسرائيل؟

- الرجل الذي يقف في زاوية الشارع، يا سيّدتي... الرجل الذي يقيم في الشارع رقم 1525، العمارة رقم 4.

- من يقيم هناك؟

- إسرائيل، يا سيّدتي. بالتأكيد أنتِ تعرفينه، فقد أخبرني بأنّكما تتبادلان إلقاء التحيّة كلما التقيتما في الشارع، وبأنّه قد تحدّث معكِ ذات مرّة. هل تتذكّرين صديقي ماريا؟

- ماريا؟

- اسمه خوسيه ماريا، أمّا أنا، فأناديه ماريا. وقد أخبرني إسرائيل بأنّه قد تحدّث إليكِ ذات مرّة عن الشرطة التي جاءت لترى إن كان...

- إسرائيل فارغاس!؟

- نعم، سيّدتي.

- أمرٌ لا يُصدّق...

استدارت السيّدة بليندر ومرّت من أمام السلّم، متوجّهةً، متفكّرة، وبخطى سريعة، نحو غرفة الجلوس. تراجع ماريا ونجح بأعجوبة في الفرار من المكان. وبعد مرور ثانية، مرّت روزا. من المؤكّد أنّ السيّدة بليندر قد أشارت لها بأن تقترب.

قالت السيّدة بليندر:

- حسنًا، علينا أن نتحدّث معه. أظنّ أنّه سوف يقوم بواجباته...

كفّ ماريا عن الإصغاء إلى حديثهما. تراجع خطوةً بخطوة، مثل ظلٍّ كثيف، وحبس نفسه في غرفته. أحسّ أنّ الجدار على وشك أن ينهار فوقه.

أحسَّ بدوخة ودار رأسه، ليس لأنّه «تغيّب» زمنًا طويلًا، وإنّما بسبب عودته. روزا حامل... وأدهى من ذلك، حامل من إسرائيل. لو طردتها السيّدة بليندر من الخدمة... بعد كلّ شيء، فقد مر زمن طويل جدًّا منذ أن فكّر بها...يفضّل أن يستيقظ ذا صباح ويعلم بأنّ روزا لم تعد موجودة في المنزل بدل أن يعرف أنّها حامل.

عمل عن وعي لكي ينساها، وأصبح، شيئًا فشيئًا، شخصًا مختلفًا تمامًا. وأصبح أفضل حالًا. احتفظ من ماريا القديم فقط بخفّة الحركة - حتى وإن لم يعد قويًّا ولامتينًا مثلما كان في السابق- لقد تغيّر كلّ ما عدا ذلك فيه، وتحسّنت

أحواله. أصبح أكثر روحانيّةً: أصبح أكثر تحمّلًا. لم يعد الغرض من إقامته في المنزل هو تجنّب السجن. حتى إنّه لم يعد يفكّر في ذلك. أصبحت كلمة التبخّر تعبّرٍ تمامًا عن حالته. ويكفي أن يضع قدمه على قمّة اللامبالاة هذه ليدمّره حملُ امرأة!

سرى الغضب والألم في جسده مثل سلكٍ معدنيّ شائك. أحسّ بأنّه حانقٌ ومشمئزّ، وفي الوقت نفسه، خائف. هل يعلم حقًّا شيئًا ما عن نفسه وعن المنزل الذي يقيم فيه؟

ما الذي يعرفه عن السيّدة بليندر، على سبيل المثال؟ فقط ما يتخيّله ويتصوّره. والدليل على ذلك هو أنّ السيّدة بليندر أظهرت نفسها حنونةً، متفهّمةً، بل ومنصفةً مع روزا، وليست باردة وقاسية. في ذلك المساء، بعد إعلان الخبر لزوجها (البارد والقاسي معها)، وصلت السيّدة بليندر إلى حدّ الدفاع عن روزا، انطلاقا من ذكر سلسلةٍ من الذرائع والحجج القويّة والمؤثّرة، وبوجهٍ صارمٍ جدًّا اضطر زوجها لأن يضعف أمامها: - افعلي ما يحلو لكِ.

في اليوم التالي، ذهبت السيّدة بليندر على ما يبدو لتتكلّم مع إسرائيل وانتظرتها روزا قلقةً. لدى عودتها، مرّرت السيّدة بليندر ذراعها حول خصرها وأخذتها إلى خارج حقل رؤية ماريا وهي تقول لها: - سيكون علينا أن نتدبّر أمرنا. ولكي نبدأ بذلك...

وفي هذه اللحظة بالضبط، اتّخذ ماريا قراره. في الليلة نفسها، ارتدى ثيابه، ونزل وهو يحمل حذاءه في يده، وأخذ مفتاح المطبخ، ففتح الباب، وخرج، ومن ثمّ أغلق الباب من ورائه وأقفله من الخارج، ثمّ ارتدى حذاءه وعبر الحديقة الصغيرة الجانبية حتى وصل إلى الباب المقوّى بقضبان حديدية، وعبر الشارع، وضاع وسط الظلام الدامس. كان متأكّدًا من أنّ لا أحد قد رآه.

لا بدّ أنّ الساعة تشير إلى الثالثة صباحًا، فالطقس بارد جدًّا، والشوارع خالية من المارّة، بينما تمرّ، من حينٍ إلى آخر سيارة من بعيد. أحسّ ماريا أنّه سبق له وسار في هذا المكان نفسه، في يوم سابق... ولكن في وقتٍ مختلف.

لم ينتبه إلى أنّه خارج المنزل إلّا حينما دخل إلى محلٍّ للأقفال. بشكلٍ من الأشكال، لم يعد كونه في الخارج بالأهمّية الكبيرة. لكنّ المهمّ، هو أن يكون في الداخل. بل وجد أنّه من الغريب أن يذهب مباشرةً إلى أقرب محلٍّ للأقفال (في حيّ غير معروفٍ له)، محلٌّ للأقفال يبقى مفتوح الأبواب على مدار أربع وعشرين ساعة، كما لو أنّه انتهى إلى التعرّف على الحي انطلاقًا من داخل المنزل.

لاحظ أنّ رجلًا مسنًّا، يشبه مجرمًا متقاعدًا، ينظر إليه طيلة الوقت من زاوية عينه في حين ينسخ نسخة ثانية من المفتاح. حدّق فيه ماريا (تفصل بينهما الشرارات المتطايرة من المفتاح). وفي النهاية عاد إلى المنزل. بعدما دفع الباب المقوّي بالقضبان الحديدية، نزع حذاءه، وقام ثانية بالحركات الدقيقة نفسها التي قام بها للخروج من المنزل، متوقّفًا برهةً في المطبخ ليقوم باختيار وجبة عشائه.

كان ذلك في 12 أغسطس/ آب. وما أعقب ذلك لا يُذكر. في اليوم التالي، في 13 أغسطس/ آب، سيتّصل بها هاتفيًّا، ويُخبرها بأنّه يُريد أن يلتقي بها. لم يستطع الخروج من المنزل إلّا في الصباح الباكر، ولذلك عليه أن يفعل ذلك في يوم 13 أغسطس/ آب نفسه هذا، ثمّ يقضي الليل في الخارج إلى أن يلتقي مع روزا - في الصباح أو في فترة ما بعد الظهيرة- في مكانٍ متّفقٍ عليه، ويقوم بتوديعها ويعود إلى المنزل في الصباح الباكر ليوم 14 من الشهر. يعرف جيّدًا ما سيقوله لها لحسم المسألة.

- كفّي عن المراوغة، يا روزا. هل تُريدين أن نلتقي أم لا؟ أجيبي بنعم أو لا.

- نعم.

- إذن؟

- إذن، أين تُريد أن نلتقي؟

- في الفندق الصغير في منطقة باجو؟

- هذا ليس أفضل مكانٍ، يا ماريا. الآن الأمور أصبحت...

توقّفت عن الكلام.

أكمل ماريا بنبرةٍ حزينة:

- مختلفة؟

صمتت روزا برهةً، وكما هي عادتها في كلّ مرّة يُطرَح عليها سؤالٌ صعب، غيّرت الموضوع: - هل تُريد أن نلتقي في ملهى لاسيكال؟

- ما الذي يعيب الفندق الصغير، لماذا لا تُريدين أن نلتقي فيه؟ لن أعصّكِ!

ردّت روزا وهي تضحك ضحكةً مكتومةً: - كلا، أعرف أنّك لن تعصّني. ما حدث، هو أنّ...

- لا شيء. سوف أنتظركِ على الباب.

- باب لاسيكال؟

- باب الفندق الصغير.

- ألا تُريد أن تذهب إلى لاسيكال؟

- كلا. ليس في لاسيكال. لا أُريد أن يرانا أحد. سوف أنتظركِ على باب الفندق الصغير في الساعة... حدّدي أنتِ.

- في الساعة الخامسة؟

- في هذا الوقت المتأخّر؟

سألها ماريا ذلك، ولكنّه أدرك في الحال بأنّ جميع الأوقات متماثلة له: في كلّ الأحوال، سيكون عليه أن يقضي ما تبقّى من النهار في الشارع في انتظار حلول المساء. ومن ثم كان توقيت الساعة الخامسة تمامًا مناسبًا له.

أضاف قائلًا:

- سأنتظركِ على الباب. إلى اللقاء غدًا.

- ماريا؟

- نعم؟

- كلا، لا شيء...

ساد الصمت بعض الوقت.

ردّد ماريا:

- إلى اللقاء غدًا.

سألته روزا:

- هل أنت بخير؟

سألها ماريا بدوره:

- أمّا أنا، فأنا بخير، وأنتِ، هل أنتِ بخير؟

- أنا أيضًا بخير.

- جيّد...

ساد الصمت.

- حسنًا، إلى اللقاء غدًا...

- إلى اللقاء غدًا، يا...

وعند هذه الكلمة توقّف ماريا فجأةً عن الكلام.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

27

لم تأتِ روزا.

انتظرها ماريا مدّة عشرين دقيقة أمام باب الفندق الصغير، ثمّ عشر دقائق على الرصيف المقابل للفندق، وأخيرًا عشرين دقيقة أخرى وهو يجول في المكان جيئةً وذهابًا.

انفجر غضبًا وغيظًا في داخله.

كان على وشك أن يغادر المكان حينما رأى فجأةً إسرائيل.

كانت مفاجأة كبيرة جدًّا، وحده غياب روزا عن الموعد كان بإمكانه أن يفسّره. يقف إسرائيل أمام كشكٍ لبيع الصحف وقد انهمك في قراءة غلاف إحدى المجلّات. يدسّ إحدى يديه في جيب سرواله وهو يخشخش بها مفاتيح أو قطعًا نقدية، بينما يده الأخرى تعمل دون توقّف: يحكّ بها رقبته، وأنفه، ويرتّب بها قميصه الرياضي الخاصّ بكرة الركبي، ويمنع غلاف المجلّة من التحرّك كلّما كانت الريح... عبر ماريا الشارع من دون تفكير وأسرع نحوه.

توقّف بجانبه. في تلك اللحظة بالضبط، انتهى إسرائيل من قراءة المجلّة وانتصب في وقفته لينصرف، لكنّ غلاف مجلّة أخرى، معلّقة تحت المجلّة الأولى، استوقفه. المجلّة الأولى متخصّصة في مجال الأسلحة، أمّا الثانية فمتخصّصة في مجال الصيد. شمّ ماريا رائحة عطره - كان مزيجًا قويًّا من رائحة الصنوبر وعرق الإبطين- ونظر إلى خطوط شعره المقصوص حديثًا على عنقه وأذنيه. كانت الرقبة أعرض من الرأس، والأذنان أصغر من العينين. ظهر البائع في الكشك وهو يعدّ الأوراق النقدية. في تلك اللحظة، انتصب إسرائيل وابتعد ببطء.

لحق به ماريا. إنّه يوم الجمعة، ومنطقة باجو الشعبية مليئة بالسيارات المغادرة للمدينة، والناس يذهبون ويجيئون، يُسرع بعضهم الخطى، بينما يسير آخرون بتمهّل، كما لو أنّهم جميعًا تائهون. تقدّم إسرائيل بخطٍّ مستقيم. يُبعد مرفقيه عن خاصرتيه، ويُجبر بذلك القادمين باتجاهه على أن يفتحوا له ممرًّا، ولكنّه بدا واضحًا أنّه لا يذهب إلى مكانٍ محدّد. ربّما يتنزّه في المكان في انتظار أن يحين موعد العشاء. حلّ الليل، ولكن، لحسن الحظّ، واصل إسرائيل الابتعاد عن مجموعة البيوت التي يوجد فيها منزله، حيث لن يكون بمقدور ماريا أن يلحق به من دون أن يتعرّض لخطر أن يُرى من قبل أحد عمّال ورشة البناء، أو من قبل الحارس، أو حتى من قبل روزا... لقد نسي بأنّه سيكون من الصعب التعرّف عليه: فقد بات نحيلًا وشاحبًا، وبات شعره

طويلًا يصل إلى كتفيه، وله لحية كثيفة لم يحلقها منذ أشهرٍ. انتبه إسرائيل إلى تركيز ماريا على رقبته، فالتفت إلى الوراء ونظر إليه.

كانا قد وصلا إلى زاوية أحد الشوارع. حدّق فيه ماريا، وهو يسير خلفه على بعد ستّة أمتار أو سبعة، وذهب لملاقاته بخطى منتظمة تمامًا. كان عاجزًا عن التفكير، ولكنّه تقدّم نحوه كما لو أنّه يعلم ما الذي سيفعله. إسرائيل لم يعرفه، ولكنه أدرك بأنّه ثمّة شيءٌ غير طبيعي يجري.

- إسرائيل.

- هل أعرفك؟

هذا كلّ ما قالاه. أمسكه ماريا فجأةً من رقبته، وجرّه نحو عمارةٍ وضرب رأسه بكلّ قوّة بالجدار. صُعِق إسرائيل. ضغط ماريا بيديه على رقبته وهو ينظر إلى عينيه. مال جسمه إلى الأمام ووضع إحدى قدميه بصلابة على الأرض ليزيد من ضغط يديه على رقبته. انتابته حالة غضبٍ شديد حتّى سال الدم من أنفه وبلّل شفتَيه. نفخ ماريا وتغطّى وجه إسرائيل ببقعٍ صغيرة حمراء اللون تشبه بعضها الدموع.

نظر ماريا إلى اليمين وإلى اليسار، ووجد أنّه من الغريب أن يقتل شخصًا وسط الشارع من دون أن ينتبه إليه أحدٌ. لم يُبدِ إسرائيل أيّ مقاومة، إلا المقاومة الطبيعية لرقبة عريضةٍ وصلبةً جدًّا مثل رقبته؛ إذ كان بالكاد يُصارع لكي يُبقي عينيه مفتوحتين: توسّعت حدقتا عينيه وعامتا في محجريهما، من دون أن تثبتا على أيّ شيء...

سحبه ماريا قليلًا نحوه وضرب رأسه من جديد بالجدار. كانت الضربة أعنفُ بكثير من الضربة السابقة.

أغمض إسرائيل عينيه. ازداد وزن جسمه بمقدار ضعفَين. فأرخى ماريا ضغط يديه.

ثمّ أقلع راكضًا للهروب من المكان. توقّف عندما أحسّ بأنّه يلفظ أنفاسه الأخيرة من شدّة التعب. أحسّ بأنّ كلّ شيء قد جرى بسرعة كبيرة، وأنّه قد فرّ من مكان الجريمة بسرعة كبيرة بحيث انهار إسرائيل وهو بآخر رمق على الأرض، على بعد كيلومترين أو ثلاثة كيلومترات من مكان توقّفه.

جلس على عتبة بابٍ، وسط مجموعةٍ من البيوت، في شارعٍ معتمٍ. مرّ رجلٌ من أمامه وهو يحمل على راحة يده علبة كرتونية فيها قرص بيتزا.

سأله ماريا:

- هل تعرف كم الوقت؟

- كلا.

ابتعد الرجل عنه.

نهض ماريا من مكانه، ووضع إحدى يديه في جيبه، جسّ مفتاح المنزل ومن ثمّ جلس من جديد على العتبة.

اقترب منه «جامع كراتين» وهو يدفع أمامه عربة سوبرماركت، وسأله، من دون أن يتوقّف: - هل تعرف كم الوقت؟

أجابه ماريا:

- كلا.

ثمّ تساءل في نفسه لماذا يُريد «جامع كراتين» أن يعرف كم الساعة.

ربّما فكّر الرجل صاحب البيتزا بالطريقة نفسها حينما سأله عن الوقت. لا بدّ أنّ الساعة الثامنة مساءً، أو ربّما التاسعة.

فُتح الباب الذي جلس أمامه فجأةً وكادت فتاةٌ أن تسقط فوقه. تراجعت الفتاة، مذعورةً، ولجأت إلى وراء شابٍ نحيلٍ وشاحب، يرتدي ثيابًا سوداء اللون، ويعتمر قبّعة صغيرة من الصوف، تصل حتى حاجبيه وقد كُتِبت عليها كلمة Porn بأحرفٍ حمراء اللون.

قال له الشاب:

- من فضلك.

نهض ماريا من مكانه ليدعهما يمرّان.

خرج الشاب والفتاة فرادى، وابتعدا سريعًا متشابكَي الأيدي وهما يتهامسان. لاحظ ماريا نظرة الفتاة: فنظرتها مركّزة على أنفه. مدَّ إصبعًا يتحسسها. هناك قشرة فوق شفته العليا، وهي الدم الذي تخثّر مشكّلًا ما يشبه شارب هتلر. استخدم لعابه وكم قميصه ليُزيل الدم المتخثر، ثم سار حتى وصل إلى زاوية الشارع. حينما سأل مرّة أخرى عن الوقت من بعض المارّة كان بالقرب من المنزل، أجابوه بأنّ الساعة تبلغ الثالثة صباحًا.

كان يهيم على وجهه، ولكن على نحوٍ متعمّد مشى في الشوارع التي هي أكثر اكتظاظًا بالناس، في الشوارع المضاءةً أو غير المضاءة التي شعر فيها أنّه أقلّ عرضةً للانكشاف، بعكس الشوارع المقفرة. إلى الأمام أو إلى الخلف، وكذلك في الشوارع الجانبية، هناك بؤرٌ كبيرة من الضوء، يتحلّق الناس حولها مثل الحشرات: سينما، ومركز تجاري، ومراقص، وأماكن تارة فسيحة جدًّا وتارة أخرى ضيّقة، محاطة بالعتمةِ أو الظلام.

إن لم يكن مخطئًا، فقد تنزّه في هذا المكان، وروزا متشبّثة بذراعه، وهما يتفرّجان على واجهات المحلّات ويُعلّقان على كلّ شيء. تقارن روزا عادةً سعر الألبسة بسعر بعض الخدمات العامّة أو بسعر المنتوجات الغذائية؛ فتغضب وهي تعدّ قائمة الأشياء التي تستطيع أن تشتريها من سوبرماركت بثمن سروال جينز، أو وهي تكتشف ثمن زوجٍ من الجوارب وهو يعادل أجور عشر أو اثنتي عشرة، بل وخمس عشرةَ رحلة بالحافلة (حسب سعر الجوارب) أو قيمة استهلاك الغاز مدّة شهر (حينما تقع على جوارب رخيصة، يبدو لها الغاز غاليًا).

سار وهو يداعب ورقةً في جيبه. أخرجها. ورقة نقدية من فئة عشرة بيزو. كانت الورقة النقدية في جيبه منذ بداية الأمر...

فكّر قبل كلّ شيء في أن يتّصل هاتفيًا بروزا. كانت تلزمه قطع نقدية معدنية. على بعد بضعة أمتار، هناك مطعم ماكدونالدز. دخل إليه، وتوجّه نحو صندوق المحاسبة ووقف في الدور.

حينما جاء دوره، سجّل طلبه وطلب أن تُرجع له قطع نقدية معدنية. ثمّ جلس إلى الطاولة الوحيدة الشاغرة والتهم الهامبرغر والبطاطا المقلية من دون أن يرفع رأسه، دائخًا من جرّاء الضوضاء، ومنزعجًا من الضوء، ومذعورًا من التناقض بينه وبين العشرات من الشباب الذين يدخلون إلى صالة السينما أو يخرجون منها، ومضغوطًا من عائلة كاملة يجول أفرادها بين الطاولات، حاملين الأطباق، بحثًا عن مكانٍ يجلسون فيه.

خرج من المطعم. هناك مقصورة هاتفٍ عمومي إلى جانب الباب. أدخل رقم المنزل، ثمّ رنّ الهاتف ثلاث مرّات، وسمع صوت روزا: - ألو!

- روزا، هذا أنا. ما الذي حدث، لماذا لم تأتِ إلى موعدنا؟

- اعذرني، يا ماريا. لم أستطع المجيء. أردتُ المجيء، وكنتُ على وشك أن أغادر، ولكن حدَّدت سيّدة المنزل موعدًا مع طبيبٍ ولم أستطع أن أرفض طلبها.

- لماذا أخذتكِ إلى الطبيب؟

- لا شيء... زيارة روتينية...

- هل تشعرين بالمرض؟

- كلّا، كلّا، الغثيان و... لا أدري، في الفترة الأخيرة، تراقبني سيّدة المنزل كما لو أنني من الذهب. إذن، هل ذهبتَ إلى مكان الموعد؟

- وكيف لي ألا أذهب إلى مكان الموعد؟ كنتُ أريد أن أتحدّث معكِ. لقد انتظرتكِ.

- وغدًا؟

- لا أدري إن كنتُ أستطيع غدًا... كان موعدنا اليوم.

- أين أنت؟ أسمع ضجيجًا كبيرًا...

- في الشارع.

- الآن انتبهتُ إلى أنّ هذه هي المرّة الأولى التي يوجد فيها ضجيجٌ خلفك حينما تتحدّث معي. من أين كنتَ تتحدّث سابقًا، من منزل؟

- نعم...

قالت روزا من دون أن تكمل جملتها حتى النهاية: - أقسم لك إنّي على وشك أن أعتقد أنّ...

- كنتِ على وشك أن تعتقدي أنّ ماذا؟

ردّت روزا بنبرةٍ مشوبةٍ بخيبة الأمل، كما لو أنّ حبّ ماريا لها أكبر في السجن منه في الشارع: - لا شيء، لا شيء، انس الأمر...

- اسمعي، يا روزا، أنا أتّصلِ بكِ من مقصورة هاتفٍ عمومي، والاتصال سينقطع بين لحظةٍ وأخرى. انتظري لأضع قطعة نقدية أخرى... ولكن ما الذي فعلتُ بها؟ ألو؟

- نعم.

- انتظري ثانية لأنّني لا أدري ماذا فعلتُ بقطعي النقدية... آه ها هي... ماذا كنتِ تقولين؟

- أنت، هل كنتَ ستقول لي شيئًا ما...

- آه نعم. أنا...

صمت برهةً، ثمّ أضاف قائلًا:

- هل أصبحتِ غير مباليةٍ بي أم أنّ هذا مجرّد إحساسٍ يراودني؟ ما الذي يحدث، ألم تعودي تحبّينني؟

- لماذا تسألني هذا السؤال؟

- لأنني أشعر بذلك.

- كلا... حسنًا يا ماريا... لقد مرّ الكثير من الأمور منذ أن...

- ألم يكن يعنيكِ في شيءٍ أن تريني اليوم مثلما كنّا قد اتّفقنا؟

- بالطبع! كنتُ أنظر إلى الساعة في كلّ ثانية، ولكن...

- كم الساعة الآن؟

- لا أستطيع المجيء الآن.

- أعلم ذلك، لكن لا يهمّ، كم الساعة؟

- الحاديةَ عشرةَ وعشرُ دقائق.

- كيف وجد الطبيب حالتكِ؟

- جيّدة، كلّ شيءٍ على ما يُرام.

ثمّ هتفت روزا فجأةً:

- آه يا ماريا، لو أنّك على الأقل أخبرتني بالحقيقة، لماذا اختفيتَ، لماذا كنتَ تستطيع أن تراني اليوم، وليس غدًا... ولماذا لم تستطع قطّ! في الحقيقة، أنت مذنب في كلّ شيء!

- مذنبٌ في ماذا؟

- لقد تركتني بين عشيّةٍ وضحاها... لم تعد تأتي إليّ... لقد تعلقتُ بكَ ومن قلبي! أقسم لكَ على إنني في بعض الأحيان أكرهك! نعم، أقسم لك على إنني أكرهك! واليوم، حيثُ كنتُ سأذهب أخيرًا للقائك، كرهتُكَ أكثر من أيّ وقتٍ مضى، يا ماريا. هل ستغفر لي هذا ذات يوم؟

- تسأليني إن كنت سأغفر لك؟

- نعم...

- ليس لديّ أيّ شيءٍ أغفره لكِ يا روزا! أردتُ أن أقابلكِ اليوم لأخبركِ فقط بأنّ الشيء الوحيد الذي أريده، هو أن أكون بالقرب منكِ، وأن اهتمّ بكِ، و...

ساد صمتٌ.

مرّ طائرٌ محلّقًا. لم يستطع ماريا أن يمنع نفسه من متابعته بالنظر. كان غريبًا جدًّا: طائرٌ أبيض، على ارتفاع أقلّ من خمسة أمتار فوق جادة سانتا فيه، في الساعة الحادية عشرة مساءً، يطير مع اتّجاه السيّارات...

سألت روزا:

- لن تعود أبدًا، هل هذا صحيح؟

- ذات يوم...

- كنتُ أعرف أنّ هذا ما ستقوله...

- افهميني...

- كنتُ أعرف...

- ما الذي قد أغفره لكِ، يا روزا؟

في هذه اللحظة بالضبط، انقطع الاتصال.

في مطبخ المنزل، وهي لا تزال تمسك بيدها سمّاعة الهاتف، قالت روزا، وهي تعلم أنّه لم يكن بوسع ماريا أن يسمعها: - أنا حامل...

قال وقد اغرورقت عيناه بالدموع:

- أغفر لكِ.

وأغلق السمّاعة.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

28

في نهاية المطاف، وقف من جديد أمام المنزل. قبل بضع مجموعات من البيوت، سأل عن الوقت، فقيل له إنّ الساعة تشير إلى الثالثة صباحًا. رأى المنزل غارقًا في الظلام. لم يكن هناك أحدٌ في الشارع. لاحظ من وقتٍ إلى آخر مرور سيارة في الشارع. ثمّ رأى شرطيًّا يتقدّم نحوه.

هزّته رعشةٌ سرت في جسده. وضع يديه في جيوبه، وابتعد عن المكان وقام سريعًا بالالتفاف على مجموعة من البيوت. الدخول إلى المنزل أصعب بكثير من الخروج منه. كيف لم يفكّر في ذلك؟ عند مروره أمام عمارة إسرائيل، لدى العودة إلى المنزل، رأى أنّ مصابيح الطابق الرابع مضاءة... لم يعد الشرطي في زاوية الشارع: كان يسير في الشارع ليقتل الوقت والبرد.

انتابته الرغبة في أن يركض حتى زاوية الشارع، مستفيدًا من غياب الشرطي، ليذهب نحو الباب ويدخل من دون أن يراه أحدٌ؛ فضبط نفسه. المفتاح في يده، وهو على مسافة ما يقارب عشرة أمتار بين زاوية الشارع والباب المقوّى بقضبان حديدية لمدخل الخدمة؛ فقطع تلك المسافة وهو ينظر خلفه، نحو الشارع الذي يبتعد الشرطي فيه، وهو يضع يديه المتشابكتين خلف ظهره.

كان يُدخِل المفتاح في القُفل حينما خرج، على نحوٍ مفاجئ، رجلُ وامرأة متلاصقان من وسط الظلام. كانا يتكلّمان، وينظران إلى الأرض، ولم تظهر عليهما علامات القلق حينما أصبحا أمامه وجهًا لوجه. استعاد ماريا وضعية السائر في الشارع كما كان، قبل أن يتوقّف برهةً قصيرةً أمام الباب ويسلك الاتجاه المعاكس لهما.

توقّف على بعد خمسة عشر مترًا من الباب. يتصبّب عرقًا. عبر الرجل والمرأة... وصل الشرطي إلى زاوية الشارع؛ ربّما سيعود إلى الشارع، بين لحظةٍ وأخرى، ويشرع بالسير باتجاهه. تلك فرصته. وصل إلى الباب، وفي غمضة عين، دسّ المفتاح في القفل وأداره. دفع الباب، ودخل، ومن ثمّ أغلق الباب من ورائه. جرى كلّ شيء ببطءٍ شديد. وانتبه إلى أصوات صرير الباب لحظة صدورها، فكتمها في الحال.

ثمّ اختبأ خلف الحائط. انتظر، جالسًا القرفصاء، أن يصل الشرطي إلى زاوية الشارع، ثم يعود من حيث أتى، لكي يشعر بالأمان عند عبور الحديقة الجانبية الصغيرة، وليدخل أخيرًا إلى المطبخ. هذا هو الجزء الأكثر خطورةً. كانت المصابيح مطفأة، ولكن لم يستطع أن يتحقّق إن كان السيّد أو السيّدة بليندر، أو حتى روزا، على الجانب الآخر من الباب، لأيّ سبب كان لديهم (حتّى في

الظلام) ليكونوا هناك؛ فكان عليه أن يتحاشى إحداث أيّ ضجّة؛ لأنّ المنزل يضاعف من شدّة الصوت لثلاثة أضعاف، وكان هناك خطر أن يسمع أحدٌ ذلك. وفي الوقت ذاته، كان عليه أن يتصرّف بسرعة: كان يمكن لأحدهم أن يمرّ، في تلك اللحظة بالذات، في الشارع، ويراه انطلاقًا من الباب المقوّى بقضبان حديدية. عبرت العشرات من أسباب القلق ذهنه، ولكنّه نجح في أن يطردها جميعًا.

دخل أخيرًا إلى المطبخ، بأمان. أسند ظهره إلى الجدار، وظلّ هناك برهةً من دون أن يتحرّك، منتظرًا أن تعودَ دقّات قلبه إلى حالتها الطبيعية، وأن تعتاد عيناه على العتمة. ثمّ فتح باب الثلّاجة، وشرب جَرعة كبيرة من النبيذ الأبيض، ونزع حذاءه، وتوجّه نحو غرفته. لقد نجح، ولكن باستثناء تفصيلٍ صغير لم ينتبه إليه.

في فترة ما بعد الظهيرة، قلَّم البستاني وسقى نباتات الحديقة. فغرس ماريا إحدى فردتَي حذائه في الوحل، وهو يجلس القرفصاء خلف الحائط لكيلا يراه الشرطي.

انتبه إلى ذلك في اليوم التالي. أقلقه الأمر، فنزل جريًا، واقترب قدر المستطاع من المطبخ.

روزا، وهي جالسةٌ على كرسيٍّ، مستغرقة في التفكير، تمسك بيدها المسّاحة وتنظر إلى آثار الوحل بالقرب من الباب. حينما رأت تلك الآثار، أمسكت قبل كلّ شيء بالممسحة على نحوٍ تلقائي ومنشفة، وتهيّأت لتنظيف الوحل، حينما لفت شيءٌ ما انتباهها. هذا ما كانت تفكّر فيه.

لم تفهم لمن عساها تكون هذه الآثار، ولماذا اتجّهت من الباب نحو الثلّاجة، ثمّ، فجأةً، تتوقّف.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

29

بعد بضع ساعات من ذلك بالضبط، نزلت روزا من غرفة الغسيل في الطابق العلّية، وعلى إحدى ذراعيها كدسٌ من الثياب. بطنها، الذي كبُرَ كثيرًا أثناء الشهرين المنصرمين، والثياب الموضوعة على ذراعها تمنعها من رؤية درجات السلّم، ولذلك تنزل ببطءٍ، وبحذرٍ. تعرّقت اليد التي تمسك بها درابزين السلّم فجأةً وأصدرت صريرًا، فأطلقت صيحةً وتوقّفت. سقطت الثياب على الأرض. أمسكت روزا ببطنها وصرخت وهي تنادي السيّدة بليندر.

كاد ماريا، في لحظةٍ، يهبّ بنفسه لنجدتها. وقد عانى صعوبة في الامتناع عن ذلك. بعد مرور خمس عشرة أو عشرين دقيقة، خرجت روزا والسيّدة بليندر بأقصى سرعة من المنزل.

بات ماريا الآن يجول دون توقّف «ليس من طرفٍ إلى آخر»، وإنّما من «الأعلى إلى الأسفل»... أثناء الأشهر الأخيرة، بقي قريبًا من روزا أكثر من أيّ وقتٍ مضى، بحيث لم يدعها تغيب عن أنظاره تقريبًا. يتّصل بها هاتفيًّا كلّ أسبوع. وجد في المكتبة كتابًا عنوانه طفلي الأوّل، وقرأه من الألف إلى الياء، ونصحها بشأن التمارين التي عليها أن تمارسها، والنظام الذي عليها أن تتّبعه. ولكن لم يستطع قطّ أن يجعلها تعترف بأنّها حامل.

أثناء عدّة مكالمات هاتفية، بدءًا من اليوم الذي دعاها إلى لقائه في الفندق الصغير في منطقة باجو، ألحّت روزا عليه لكي تقابله، ثمّ بدا عليها أنّها لم تعد تفكّر قطّ في هذا الأمر. لم يفت ماريا أنّ روزا أرادت أن تقابله حين لا يزال بطنها مستويًا وأنّها قد كفّت عن الإلحاح بعد ذلك - كما أنّه لاحظ أنّ لديها بعض الخوف من أن يقترح هو عليها لقاءً جديدًا، لقاءً لم تدر كيف سترفضه- حينما أصبح بطنها بارزًا بعد ذلك بشهر تقريبًا. إلى أن فكّر ماريا، بعد ظهيرة أحد الأيام، في تدبير حيلةٍ لم يكن هناك ما هو أكثر وضوحًا وفعاليةً منها: لقد أخبرها بأنّه قد رآها في الشارع مصادفة.

- متى؟

- أوّل أمس.

- يوم الثلاثاء؟ ولكنّني لم أخرج من هنا يوم الثلاثاء.

- إذن، يوم الاثنين. كنتِ تخرجين من...

سكت ماريا طواعيةً، على أن تُكمِل روزا جملته. ولكنها، في تلك الحظة، لم تهتمّ بالمكان الذي رآها فيه.

- ولماذا لم تنادني؟

- لقد فكّرتُ في ذلك، ولكن لم أفعل. كنتِ مع سيّدة المنزل.

كان ماريا يعلم أنّ روزا خرجت مع السيّدة بليندر.

قالت روزا، وهي تخفّض صوتها:

- إذن...

- نعم. أعرف.

ساد الصمت.

أحسّ ماريا أنّ روزا لم تعد تتنفّس.

سألها:

- لماذا لم تخبريني بأيّ شيء؟

أجابت روزا وبدأت تبكي.

- لأنّه... يا ماريا، أنا...

طمأنها قائلًا:

- لا بأس، هذا ليس بالأمر الخطير. كلّ شيء على ما يُرام. منذ متى؟

- منذ خمسة...

- ومن هو الأب؟

أجابت روزا:

- آه، يا إلهي...

ألحّ ماريا عليها بالسؤال:

- منْ هو؟

كان ماريا يعرف منذ زمنٍ طويلٍ جدًّا أنّ ذلك لن يزعجه، بل على العكس أراحه.

أجابت روزا:

- ابن السيّد والسيّدة... لقد اغتصبني ذات يوم...

كان ذلك مفاجأة حقيقية لماريا. لم يفكّر قطّ أن يكون الطفل من ألفارو... ومن ثمّ، بينما روزا تروي له حكاية (الاعتداء، والاغتصاب)، أورد في ذهنه

مليون حقيقة جعلته يقول في نفسه إنّه لم يكن أمام روزا حلّ آخر: لم تستطع أن تكفّ عن الكذب عليه.

لقد أدرك بأنّه من الأسهل له أن يُقال (أن يُقال له هو) إنّ الحمل ثمرة اغتصابٍ، من أن يُقال إنّه ثمرة علاقتها مع إسرائيل. ولكن في كلّ الأحوال، لم يعد هناك ما يمكنه فعله. فمعارضتها ستؤدي إلى أن يكشف نفسه. مع ذلك، بذل قُصارى جهده لكي يبدو غاضبًا: - يا له من ابن عاهرة! سأقتله!

قالت روزا:

- لقد مات.

- أعرف، نعم، لقد أخبرتني بذلك... يا لَه من ابن عاهرة!

- لم يعد هناك داعٍ لأن تغضب... هل أنت غاضب؟

- أقسم لكِ بأنّني كنتُ سأقتله.

- أقصد أنّك غاضبٌ منّي...

قال:

- كيف لي أن أعرف ذلك؟ كلّ هذه الأمور جرت دفعةً واحدة....

قال ذلك ولاحظ بأنّه لم يكن غاضبًا بالفعل، ولكنّه أراد فقط أن يحصل على ردٍّ منها. وقد لاحظ أنّ هناك شيئًا من الامتنان في ردّ فعل روزا. كان إلى حدٍّ ما متأكّدًا من أنّ روزا تلوم نفسها على إخفاء حملها عنه طيلة هذا الوقت. كان عليها أن تثق به (أن تثق بصوته). كان سرّ اختفائه قد تفتَّق فجأةً عن رجلٍ طيّب، غائب ولكنّه سخيّ، رجلٌ بلا جسد، احتضنها صوته لأبعد الحدود.

منذ ذلك الحين، ظلّ ماريا معها أيَّما فعلت. ليس كلّ الوقت، وإنّما عامّة. ظلّ قريبًا جدًّا منها وهي تطبخ، أو تغسل، أو تكوي الثياب، أو تشاهد التلفاز، أو تفعل أيّ شيءٍ كان. في كلّ ليلة، حينما يذهب للبحث عن طعامٍ يتناوله، أو لدى عودته، يقوم بلفّة حول غرفتها ويراقبها وقتًا لا بأس به انطلاقًا من ثقب قفل الباب، مركّزًا بانتباه على حركاتها، وعلى إيقاع تنفّسها.

دأب على عادة النظر إلى تواريخ صلاحية الأطعمة، خشية من أن تتناول روزا أطعمة منتهية الصلاحية، ويتناول الفاكهة والخضار القديمة ليترك لها الطازجة. وكلّما وصل عددٌ من مجلّة Selecciones، وجد طريقةً للحصول عليها ليأخذها معه إلى غرفته. يسلّط الضوء على الكتب التي يستطيع أن تكون مفيدة له مثل طفلي الأوّل، وكلّما استطاع إلى ذلك سبيلًا، يُضيف إلى قائمة المشتريات التي تعدّها السيّدة بليندر قطعًا من الشوكولا، وبعض عبوات

اللبن، مقلّدًا بدقّة خطّها لكي يُرضي الرغبات المحتَمَلة لروزا، التي تُنسِبُ بالتأكيد هذا اللطف الرائع إلى السيّدة بليندر. أدرك ماريا ذلك لأنّهما أصبحتا صديقتين، كما لو أنّهما من أسرة واحدة. ولأنّه جاسوس غير مرئي، لم يعرف قطّ سبب سلوك السيّدة بليندر حيال روزا، ولكنّ النتيجة مذهلة، وأحيانًا مؤثّرة. ويعود الفضل في ذلك إليه هو.

انتهتِ الأحاديث التي لم يهمّ روزا أيّ شيءٍ منها سوى أن تعرف لماذا اختفى بهذه الطريقة، وأين يوجد، ومتى سيعود. وكانت هذه فرصة له (هو الذي يكره تلك الأحاديث). ومع ذلك يُعيد استعراضها في ذهنه. وكلّما فعل ذلك، اصطدم بشظايا (لحظات) حبٍّ كان يتذوّق طعمها بشرطه الثلاثي بوصفه زوجًا، وأبًا، وشبحًا. في الواقع، إذا كان حضوره الجسدي، في علاقته مع روزا، لم يعد الأمر المهمّ فعلًا، فما الذي يمنعه من أن يكون، من الآن فصاعدًا، زوجها؟ وإذا كان زوجها ويحبّها، وتحبّه روزا وتنتظر طفلًا، فلمَ يرفضُ أن يكون والده؟

مثال:

- لقد قرأتُ الكتاب الذي حدّثتني عنه، مواطن الضعف لديك.

- هل أعجبكِ؟

- لم أُكمله.

- لماذا؟

- لقد مللتُ منه. قرأتُ القسم الأوّل فقط. لا أدري، لم أجد نفسي فيه... الشيء الأوّل الذي يقوله... انتظر لحظة، سوف أجلبه، لقد كان هنا... انتظرني، اتّفقنا؟

عادت بعد بضع ثوانٍ.

قالت:

- إنّه يقول: « انظر في أمركَ وفتّش في نفسكَ لتجد رفيقًا ملازمًا لك طيلة الوقت». هذه المقولة من الكتاب هي التي أعجبتني. أتذكّر أنني فكّرتُ بكَ حينما قرأتُ هذه العبارة. هل تعرف ما الذي قلتهُ يوم أمس، قلتُ في نفسي إنّك معي في المنزل. أقسمُ لكَ على ذلك. لقد وجدتُ آثارًا في المطبخ وأقسم لكَ بأمّي بأنني ذهبتُ إلى كلّ مكانٍ في البيت ووقعتُ في النهاية على فراغٍ...

كلامها صحيح، فقد رآها ماريا تفتّش في كلّ غرف المنزل، تدخل إليها وتخرج منها، تذهب من مكانٍ إلى آخر، كما لو أنّها جُنّت على نحوٍ مفاجئ.

- ثمّ يقول: «ولعدم وجود اسم أفضل، أطلق على رفيقك اسم موتك. بالطبعِ قد يُشعرك هذا الزائر بالرهبة أو الوجل، ولكن يمكنك أن تسخره لمنفعتكَ الشخصية». هنا، بدأتُ لا أفهم منه شيئًا...

كانا يتكلّم بعضهما مع بعض مثل زوجين، ثنائي مكوّن من بنّاءٍ وخادمة في عالم المستقبل، يعملان في كوكبَين مختلفين - من دون استياء، بل ومن دون أن يطرحا أسئلةً بعضهما على بعض- في عصرٍ كانت العلاقات بين الطبقات المتواضعة «تحدث هكذا».

لم يتحدّثا قطّ عن إسرائيل. ماريا على يقينٍ تامّ بأنّ السيّدة بليندر لا بدّ وأنّها قد عرفت أنّ إسرائيل قد قُتِلَ، وأنّها، بالطبع، قد أخبرت روزا بذلك (وهي قلقة ومحبطة، بينما تتظاهر روزا بالتأثّر بالخبر مع ابتسامةٍ خفيفة بالكاد تُلاحَظ)، كما في استطاعته أن يُقسِم اليمين بأنّ روزا تعرف (بطريقةٍ ماكرةٍ جدًّا لا يمكن كشفها) بأنّه هو مَنْ قتله.

كان هذا أوجّ التفاهم المضمَر بينهما. وقد بلغا هذه الحالة عندما أصدرت يد روزا صريرًا وتوقّفت على درابزين السلّم.

بين تلك اللحظة واللحظة التي تعرّف فيها ماريا على ابنه، مرّت ثلاثة أعوام كاملة: كانت هذه هي المدّة الحقيقية للأيام الثلاثة التي تلت. في الواقع، دخلت روزا إلى دارٍ للتوليد في أحد أيام الثلاثاء ولم تعد منها إلّا مساء يوم الجمعة. وأوّل شيءٍ قامتا به (كان السيّد بليندر يتحدث عبر الهاتف وهو يشاهد التلفاز)، هو تنويم الطفل الوليد في سرير السيّدة بليندر.

سألها ماريا عبر الهاتف:

- هل أنتِ جادّة فيما تقولين؟ بالنسبة إليّ، يبدو لي أنّه عليكِ أن تغيّري مكانه. لا يمكن للرضيع أن ينام في غرفة سيّدة المنزل، ينبغي أن ينام في غرفتكِ أنتِ، فأنتِ أمّه. اجعليه ينام في سريركِ، ليشمّ رائحتكِ، ليراكِ، لا أدري إن كنتِ تفهمين ما أقوله...

الأمر الثاني، كان إيجاد اسمٍ له. خرجتا من غرفة النوم، وجلستا جنبًا إلى جنب على الأريكة (في حين كان السيّد بليندر، الذي قطع من فوره الاتصال، يتّجه نحو الغرفة ليُلقي نظرةً قاسية على الرضيع) واستعرضتا أول الأسماء.

روزا متعبة على نحوٍ ظاهر، والشيء الوحيد الذي تتمنّاه هو أن تنام - وقدر المستطاع إلى جانب ابنها- ولكنّ أيضًا، بدا واضحًا أنّها تبذل جهودًا تفوق قدرة البشر لتُلبّي رغبات سيّدتها، وهي تحاول في الوقت ذاته أن تحلّ مسألة النوم: تُرى هل ستنام في سرير السيّدة بليندر إلى جانب ابنها، أم أنّ السيّدة

تنتظرها تقول بأنّها بحاجة إلى أن ترتاح وأن تقضي بعض الوقت وحدها مع الطفل، لكي تنهض كلتاهما، فتذهبان لتجلباه وتنقلاه إلى غرفتها؟

بينما تفكّر روزا في كلّ هذه الأمور، عرف ماريا جنس المولود.

سألت السيّدة بليندر:

- ما رأيكِ باسم غونزالو؟

(إنّه صبيٌّ)

كذبت روزا:

- آه كلّا، يا سيّدتي، اعذريني، ولكن لديّ ابن عمّ يُدعى غونزالو، وأفضّل ألا أحدّثكِ عنه...

- وفيديريكو؟ سيكون فيديريكو اسمًا ممتازًا...

سألت ماريا:

- هل تعلمين ما الاسم الذي يعجبني؟

أصاخ ماريا السمع.

خرج السيّد بليندر في هذه اللحظة، من الغرفة وهو في هيئة لامباليةٍ تمامًا حيال ابن روزا إلى درجة أنّه تحدّث بصوتٍ صاخب. لكنّ لم يكلّف ماريا نفسه حتى عناء الإصغاء إليه، إذ كان كلّ انتباهه منصرفًا نحو ما ستقوله روزا.

قالت روزا:

- خوسيه ماريا، أنا أفكّر في هذا الاسم...

انتصبت السيّدة بليندر، وقوّست حاجبيها وتركت يدها، التي كانت، حتى تلك اللحظة، ترفعها في وجه روزا - كما لو أنّها كانت ستقاطعها في أيّ لحظة- تركتها تستقرّ من جديد علىإحدى ركبتيها. ثمّ انتهى الأمر بأن جمدت في مكانها. كانت برهةً، ولكنّها كافية لاختناق ماريا تحت تأثير الانفعال.

هتفت السيّدة بليندر:

- خوسيه ماريا؟ هل تجدين أنّ هذا اسمٌ مناسب؟ ألا تجدينه... اعذريني على أنّني أقول لكِ هذا بهذه الطريقة... مبتذل؟

- كلّا، يا سيّدتي...

- هناك كثير أسماء أجمل من هذا الاسم...

- أمّا أنا، فهذا الاسم يعجبني...

- خوسيه ماريا...

- نعم، هذا هو الاسم الذي كنتُ أفكّر به...

- حسنًا...

- ألا يعجبكِ هذا الاسم؟

- في الحقيقة، كلا.

- إنّه اسمٌ جميل!

- روزا، أنتِ الأمّ، وإذا أردتِ أن تُطلقي عليه هذا الاسم، فأنتِ حرّة في ذلك، ولكن لا تطلبي منّي أن أكذب عليكِ. بالنسبة إليّ، هناك مليون ونصف اسم أجمل من هذا الاسم الذي تختارينه.

لا أدري. فكّري في الأمر.

إنّه صبي! إنّه صبي!

وروزا تُريد له اسمه نفسه! يا إلهي، يا لَها من فرحة، ومهما قالت السيّدة بليندر أنّ...! روزا تفكّر أنّ تسمّيه خوسيه ماريا! لقد قالت ذلك، وقد سمعها تقول «أمّا أنا، فاسم خوسيه ماريا يُعجبني»! كان هذا هو الشيء الوحيد المهمّ بالنسبة إليه، رغبة روزا، نيّتها. أمّا ما تبقّى من القائمة، المليون ونصف المليون من الأسماء المتبقّية والمطروحة... فيُمكن لأيّ اسم من بين هذه الأسماء أن يفرض نفسه الآن، ولكن ما أهمّية ذلك؟

قال في نفسه بعد مرور دقيقة بعد أن مرّت النشوة الأولية: «خوسيه ماريا، يا روزا، نعم، خوسيه ماريا، ينبغي أن يُسمّى خوسيه ماريا، لا تدعي نفسكِ تقعين تحت تأثير السيّدة بليندر».

ذهب ليراه في اليوم التالي، مقدّمًا على الفعل الأكثر جرأةً منذ ولادته. دخل إلى غرفة روزا.

أشارت الساعة إلى السادسة صباحًا. نجحت روزا، عند منتصف الليل، بعد أن أرضعت الطفل تحت العين الساهرة للسيّدة بليندر، في أن تأخذ الرضيع معها إلى غرفتها. ربّما أرضعته مرّة إضافية. ينامان الآن معًا في السرير نفسه. وكان المهد (الذي جلبته السيّدة بليندر من أحد زوايا المنزل قبل بضعة أيام، لا بدّ أنّ ألفارو قد تقيّأ فيه أثناء الأشهر الأولى من عمره) مجهّزًا ومزيّنًا بطريقة جيّدة. لكنّ لم تضعه روزا فيه، وإنّما أنامته مباشرةً إلى جانبها.

أحسّ بنشوة ساحرة بكلّ معنى الكلمة: كان للطفل وجهٌ وأصابع، ويتنفّس. حتى وإن كان حتى اللحظة، لم ير سوى الصرّة، وهي حزمة من الأغطية الصغيرة لونها أزرق سماوي.

الآن وقد بات يتقدّم نحوه شيئًا فشيئًا ويعتاد على عتمة الغرفة، ظهر محيط رأسه، وخدّاه الشبيهان بوردتين لم تتفتّحا بعد، وأنفه، وذقنه، وفمه، كما لو أنّ الملامح لا تزال مستوحاة من العدم الذي قَدِم منه.

اقترب أكثر قليلًا.

تمدَّدت روزا على جنبها، وظهرها ملتصقٌ بالحائط، تاركةً من الناحية العملية كلّ السرير للرضيع، وتغطي قدميه بإحدى يديها... انحنى ماريا ببطءٍ شديد إلى أن لامست شفتاه جبين ابنه.

بعد مرور عدّة أيام، ظلّ يستمتع بتفاصيل هذا الحدث (انفعاله، الصمت المحيط به، النعومة) وهو يتخيّل بصريًّا قدم نيل ارمسترونغ وهي تحطّ على رماد القمر. انتصب، والتفت إلى الوراء، وخرج بسرعة كبيرة جدًّا بحيث ترك ظلّه في أعقابه.

فتحت روزا، قلقةً، عينيها فجأةً. جالت على الغرفة ببصرها كما لو أنّها شعرت بأنّه كان هناك شخصٌ أخر في الغرفة، وبعد جولةٍ من نصف ثانية، توقّفت نظرتها على طفلها الذي فتح، هو أيضًا، عينيه.

كانت مطمئنة.

لم يعرف الطفل الرضيع الابتسام، ولكن عينيه تلتمعان كما لو أنّه يبتسم ويقول لها: «أنا هنا».

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

30

- روزا؟

- ماريا، يا لَه من حظّ جميل أن تتّصل...

- ما الأخبار؟

- لقد حلمتُ حلمًا مروّعًا! استيقظتُ وأنا أقول في نفسي «آمل أن يتّصل، لكي أروي له الحلم»، وها أنت تتّصل! لقد حلمتُ بأنني أخذتُ خوسيه ماريا للتنزّه في ذاك المكان الذي توجد فيه بحيرة باليرمو و...

- هل صحيحٌ أنّكِ سمّيته خوسيه ماريا بسببي أنا؟

- نعم، أنت الذي تطلب منّي ألا أسألك عن مكان وجودكَ! كلّما تحدّث بعضنا مع بعض، تقول لي الشيء نفسه! بالطبع سميّته بهذا الاسم بسببكَ أنت! لماذا لا تصدّقني؟

- أجل، أصدّقكِ! ولكنني مدهوشٌ جدًّا، وهذا لا يعني أنّني لا أصدّقكِ...

- وبهذه المناسبة... هل تعرف أين يوجد مسرح البلانتاريوم؟

- نعم.

- لقد حلمتُ بأنني قد أخذته إلى هناك ليأخذ قليلًا من أشعّة الشمس، وفجأةً، رأيتُكَ تخرج من مسرح البلانتاريوم. جمدتُ في مكاني، فقد مرّت سنوات كثيرة لم أكن قد رأيتُكَ فيها... لقد رأيتُك مرّات كثيرة في الحلم، وقد سبق وأخبرتكَ بذلك، ولكن في هذا الحلم مرّ وقتٌ طويلٌ جدًّا لم أرَكَ أثناءه، وقد جعلني ذلك أن أجمد في مكاني بلا حراك. جئتَ لتحضر جلسة تعليمية حول القمر. وكانت لك لحيةٌ!

- حقًّا؟

- أُقسِمُ لكَ على ذلك. وشعرك طويل.

- ...

- نعم، وقد أمسكتَ بخوسيه ماريا، ورميته عاليًا في الهواء وأمسكتَ به من جديد و... حتى هنا كان كلّ شيء على ما يُرام... ولكن بعد ذلك، أخذت ترميه أعلى وأعلى، وأنا كنتُ أشدّ شعري، وفي النهاية، رميته عاليًا جدًّا بحيث استغرق على الأقل نصف ساعة لينزل من جديد! كنّا ننظر إلى الأعلى، وكنّا لا نراه في أيّ مكان...

- إنّه كابوس...

- كابوسٌ فظيع.

- هل نزل من جديد؟

- نعم، لقد نزل من جديد وأنت التقطته. ولكن بين لحظة صعوده ونزوله، كدتُ أن أموت... يا له من قلق، لا يمكنك تصوّر ذلك! كنتُ محطّمة ومنهارة...

- أنا، لن أفعل أبدًا شيئًا كهذا.

- نعم أعرف...

- هل يأكل جيّدًا؟

- دون توقّف!

- وأنتِ؟ هل تعتنينَ بنفسكِ، وتأكلين جيّدًا؟

- نعم، بشكلٍ طبيعي. هل تحلم؟

- ماذا؟

- هل تحلم؟ لقد لاحظتُ بأنّك لا تروي لي أبدًا أيّ شيء، لا ما تفعله، ولا أحلامك، ولا...

- أنا لا أحلم أبدًا.

- أبدًا؟

- نومي خفيفٌ جدًّا. ربّما هذا هو السبب.

- يُقال بأنّ الحلم يجعل المرء يشعر بالارتياح...

- حلم مسرح البلانتاريوم هذا، كان عليه أن يكون حلمي، لأنني مُصابٌ بدهشةٍ عميقة من الاسم.

- ...

- ...

- لقد أصابني قلقٌ وذعرٌ شديدان...

- هل كان خائفًا حينما نزلَ؟

- كلا على الإطلاق! كان يُقهقه ضحكًا!

- أرأيتِ؟

- ...

- ...

- آه، ماريا...

- نعم، أعرف...

- هل يمكن للأمور أن تتغيّر، ذات يوم؟

- أنتِ اعتني بالطفل. هذه هي مهمتك. وبهذه الطريقة ستتغيّر الأمور...

- ...

- أنا أحدّثكِ جِدّيًا.

- لقد اشترت له سيّدة المنزل كلّ المنتوجات الجديدة الخاصّة بالأطفال...

- أطعمة؟

- نعم.

- دعيه لا يترك الرضاعة الطبيعية، يا روزا. حليب الأم عنصرٌ أساسيٌّ للصحّة. ما الأغذية التي اشترتها له؟

- بعض العلب الزجاجية الصغيرة التي تحتوي على فواكه مهروسة. أخبرني طبيب الأطفال أنه يمكنه البدء في تناول بعض الأغذية الصلبة، والسيدة...

- هذا لا يغيّر أيّ شيء في أهمية حليب الأم. دعيه لا يترك ثديكِ...

- نعم.

- تكلّمي معه عندما يرضع، أو شغّلي الراديو...

- لو تعلم كم هو لطيفٌ ومرِح...! إنّه يضحك من كلّ شيء، ويُضحكني أنا أيضًا... يُضحكه أيّ شيء كان. تداعبه وتدغدغه وهو يضحك، تقبّله سيّدة المنزل من أنفه وهو يضحك...

- لقد ذكّرتني بشيءٍ ما كان مذكورًا في كتاب مَواطن الضعف لديك: «إنّ الأشخاص المرحين هم أجدر الناس ليكونوا بالقرب من المرء»...

- الآن هو نائمٌ مثل إلهٍ...

- إنّه تحت أنظاركِ، أليس كذلك؟

- إنّه إلى جانبي... صه صه، انتظر لحظة...

- ...

- نعم، لقد وصلت سيّدة المنزل... يجب أن أُغلق السمّاعة...

- تحدّثي مع الطفل عنّي، يا روزا. كلميه عنّي.

- نعم، نعم، سأحدّثه عنك... اتّصل بي لاحقًا. قبلاتي.

- قبلاتي.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

31

حينما بلغ عمر خوسيه ماريا عامًا واحدًا، أجرى ماريا مكالمته الهاتفية الأولى إلى الخارج. أراد أن يقدّم شيئًا لابنه.

اتّصل بعمّه في منزله في كابيلا ديل سنيور. كان ذلك في يوم أحدٍ مشمسٍ، وقد خرج السيّد والسيّدة بليندر من البيت. لم تكن لديه أدنى فكرة عن المكان الذي ذهب الزوجين إليه معًا، خاصّة وأنّهما، أثناء الفترة الأخيرة، كانا بالكاد يتبادلان الحديث. غادرت روزا منذ الصباح الباكر مع طفلها خوسيه ماريا لتتناول لحمًا مشويًّا مع صديقتها كلوديا. كان عشيق كلوديا نادلًا في مطعم لشيّ اللحم قبالة النهر، في فيسنتي لوبيز. إنّها نزهة جميلة للطفل الرضيع. فاستفاد ماريا من كونه وحيدًا في البيت، ليرفع صوته حينما يتطلّب الأمر ذلك.

سأل عمّه:

- من المتحدّث؟

- أنا، خوسيه ماريا. أصغِ إليّ لأنّه ليس لدي الكثير من الوقت... هل كلّ شيء على ما يُرام؟

- ...

- هل ترى الطاولة الصغيرة بجانب السرير في غرفتي؟ أسْدِ لي خدمةً: اذهب إلى الغرفة وستجدّ أنّ هناك تحت الطاولة...

قال العمّ:

- انتظر لحظة. عن أيّ خوسيه ماريا تحدّثني؟

- هذا أنا، أنا خوسيه ماريا! ماريا! عن أيّ خوسيه ماريا سوف أحدّثك؟

- أين أنت؟

- سيستغرق وقتًا طويلًا أن...

- أخبرني شيئًا! هل أنت موجودٌ في البلد؟

- كلا.

- هذا ما ظننته. ما الذي حدث؟ لقد جاء رجال الشرطة ثلاث مرّات أو أربع من أجلك. ما الذي جعلك تتّصل هاتفيًا الآن؟

- هل هناك من يتنصّت عليك؟

- ماذا تعني؟

- هل خطّ الهاتف مراقَب؟

- وكيف لي أن أعرف ذلك بحق الجحيم؟ لماذا سيكون خطّ الهاتف مراقَبًا، بسببك أنت؟ يعود هذا الأمر إلى سنوات خلت، ربّما... سنتان أو ثلاث سنوات! ثم لم يعد يأتون إلى هنا، أنت تعرف حال البلاد الآن.

- أصغِ إليّ...

- هل أنت بخير؟

- نعم. أصغِ إليّ جيّدًا. هل تعرف الطاولة الصغيرة إلى جانب السرير في غرفتي، الطاولة التي إلى يمين السرير؟ توقّف قبالة السرير، ستكون هي الطاولة التي إلى اليمين، هل تتابع معي؟

- لأي شيء فتّشوا عنك، عن مخدّرات؟ لم يقولوا لي كلمة واحدة. هل كنت متورّطًا في قصص المخدّرات؟

- كلّا، يا عمي، ليس للأمر أيّ علاقة بالمخدّرات.

- تذكّر فقط أنّ المخدرات، لديَّ، ليست جريمة! أليس كذلك؟ معي أنا، يمكنك أن تتكلّم عن الأمر، وخاصّة الآن وقد مضى زمنٌ طويل على ذلك.

خفّض العمّ صوته الذي علا في نبراتٍ عالية من دون أن يرغب في ذلك، ثم أردف: - ما ستخبرني عنه عن الطاولة الصغيرة إلى جانب السرير، هل له علاقة بالمخدّرات؟

قال له خوسيه ماريا فجأةً بصوتٍ رتيبٍ وصارم: - أصغِ إليّ، أيّها الغبي.

سكت عمّه في الحال.

أكمل خوسيه ماريا:

- تحت الطاولة الصغيرة إلى يمين السرير، سترى لوحًا خشبيًّا فيه مسامير، هو نوعٌ من حرف نافذة. اسحبه. سوف تعثر على 250 دولارًا. وفي درج الطاولة الصغيرة الأخرى، هناك لُعبة تشبه النجمة تمامًا. إنّها خشخيشة أطفال. أريدكَ أن تأخذ الدولارات، والخشخيشة، وأن تذهب إلى عنوانٍ سأعطيكَ إياه في الحال. ستودعها لدى فتاةٍ تعمل هناك. اسمها روزا. ستُقابلها، وتعطيها الأشياء باسمي، وتُخبرها أنني أنا مَن أرسلتها لها. هل هذا واضح؟

سأله عمّه بعد برهةٍ من الصمت:

- لماذا تتكلّم معي بهذه النبرة الغريبة؟

أجابه ماريا:

- لأنني أعرفك. وأريدكَ أن تعرف أمرًا: سأراقبك، سأراقبكَ أنتَ والفتاة. تبحث الشرطة عنّي لأنني قتلتُ رجلًا، وصدّقني، كنتُ أهتمّ لهذا الرجل أكثر منك. إن لم تسلّم غدًا الخشخيشة والدولارات إلى الفتاة، فسآتي بحثًا عنك... وأقسم لكّ إنك سترى كلّ شيء باللون الأسود إلى الأبد.

ثمّ أعطاه العنوان.

في اليوم التالي، دقّ عمّ ماريا باب منزل آل بليندر. ارتدى أجمل ثيابه (قميصُ حطابٍ، وكنزة بطُلَت موضتها، وباهتة، ودون علامة، ويمكننا القول، تقريبًا من دون قماش - خليطٌ من الخيوط التركيبية- وسروال من ماركة أكسفورد بلون القشدة، والذي كان يجعله كما لو أنه رجل شاذّ). رآه ماريا عبر إحدى نوافذ الواجهة.

دقّ الشيطان المَخْزي الباب الرئيس.

راحت السيّدة بليندر لتجيب. كان أوّل ردّ فعلٍ لها المفاجأة؛ فمع شخصٍ كهذا، في ظروفٍ أخرى، ما كانت لتتبادل معه كلمة واحدة، ولكن، في هذه المناسبة، تحدّثت لبرهةٍ.

ثمّ عادت أدراجها. كانت روزا قد انتهت للتوّ، وهي جالسة على أريكة غرفة الطعام، من إرضاع خوسيه ماريا.

توقّفت السيّدة بليندر أمامها، ونظرت إليها من الأعلى، وقالت لها بنبرة جدّية:
- يا له من أمرٍ غريب! هذه أوّل مرّة في حياتي أفتح فيها الباب حينما يدقّ أحدهم، وعرفتُ أنه آخر شيءٍ كنتُ أتمنى أن أعرفه.

ومدّت نحو روزا مغلّفًا من ورق بني، وقد كتب أحدهم بقلم تخطيطٍ بلونٍ ليلكي (بعناية) اسمها وعنوانها.

فتحت روزا المغلّف. أخرجت الدولارات والخشخيشة، وظلّت فاغرة الفاه دهشةً. أخبرتها السيّدة بليندر بأنّ شخصًا جلبها من قبل خوسيه ماريا.

أوحى البطء الذي رفعت به روزا عينيها نحو السيّدة بليندر بأنّها خدعتها وأنّها مذنبة. ولكنّ السيّدة بليندر كانت مشغولة للغاية بدهشتها الخاصة بحيث لم تُلاحظ دهشة روزا.

- لقد ثرثرتُ بعض الوقت مع هذا... «السيّد». وقد أخبرني أنّ خوسيه ماريا ابن أخيه، هذا البنّاء الذي قيل بأنّه قد قتل شخصًا... لا بدّ أنّكِ تتذكّرينه أفضل منّي. وأخبرني بأنّه قد أرسل لك هذا المغلّف.

قالت روزا:

- نعم، أتذكّره.

كان عمر الطفل خوسيه ماريا قد بلغ عامًا كاملًا في ذلك اليوم، ولكنّه لمَّا يزل يرضع من ثدي أمّه، ولم يكن قد تعلّم المشي بعد. في حين كانت أمّه والسيّدة بليندر تتكلّمان مع بعضهما، التفّ خوسيه ماريا حول الأريكة وعبر غرفة الجلوس حبوًا على يديه وقدميه وبكلّ سرعته.

سألت السيّدة بليندر:

- بدا وكأنّ الأرض انشقّت وابتلعته، أليس كذلك؟

أجابت روزا:

- بالضبط هي كذلك...

- إذن، كيف حدث أن جاء هذا الرجل ليسلم هذه الأشياء بناء على طلبه؟

- لا أدري، يا سيّدتي...

كانتا منشغلتين جدًّا بشكوكهما وتوتّرهما، بحيث لم تنتبها إلى أنّ خوسيه ماريا بدأ يصعد السلّم.

- روزا، ألا تخفين عنّي شيئًا؟

- كلّا!

- هل أنتِ على تواصلٍ مع هذا الرجل؟

- كلّا، يا سيّدتي. أُقسم لكِ على أنّني لا أعرف أي شيء عن هذا... أنا أيضًا دهشتُ لهذا الأمر... منذ سنوات عديدة لم أعد أرى هذا الرجل!

نظرت إليها السيّدة بليندر لبرهةٍ من دون أن تقول شيئًا.

- إذن، لماذا سمّيتِ الطفل باسم خوسيه ماريا؟

- لقد أعجبني الاسم، هذه صدفة. والدي أيضًا يُدعى خوسيه ماريا. خوسيه ماريا فيرغا.

ثمّ أضافت روزا متظاهرةً بالخجل:

- لا تدعيني أكرّر ذلك، فأنتِ تعرفين جيّدًا أنني لا أحبّ هذه الكنية...

- وما كُنيَة هذا الرجل؟

- نيغرو.

- نيغرو؟

- نعم...

قالت السيّدة بليندر بعد أن فكّرت في الأمر برهةٍ: - هل تعلمين لو أنّكِ بقيتِ معه، كان اسمكِ سيصبح روزا فيرغا دي نيغرو... روزا القضيب الأسود؟

ساد صمتٌ بينهما. نظرت روزا والسيّدة بليندر للحظةٍ بجدّية في عيني بعضهما، وانفجرتا ضاحكتين معًا في نفس اللحظة. ثمّ اغرورقت عيونهما بالدموع. كانتا تعرفان تمام المعرفة بأنّ هذا لا شيء، ولكن، بطريقةٍ ما، كانتا تخفّفان الضغط عن نفسيهما من خلال المداعبة. وقد أحسّتا في الحال بأنّهما أحسن حالًا.

جلست السيّدة بليندر إلى جانب روزا.

- برأيكِ، لماذا أرسل لكِ هذا البنّاء هذه الأشياء بعد كلّ هذا الوقت؟

- لا أدري يا سيّدتي... من جلبها إلى هنا؟

- عمّه.

- ألم يقل لماذا؟

- لم يكن يعرف. أو أنّه لم يشأ أن يخبرني بذلك. لقد قال بأنّه ليس لديه أيّة أخبار عن ابن أخيه منذ سنوات عديدة....

هتفت روزا:

- إذن، هي الحقيقة!

سألتها السيّدة بليندر وهي تنظر إليها في هيئة محقّقة: - أي حقيقة؟

أجابت روزا:

- بأنّ الأرض انشقت وابتلعته. لا أحد يعرف شيئًا عنه... أنا أيضًا، لا أعرف...

صدّقتها السيّدة بليندر. لم يكن لديها أيّ سبب لكي لا تصدّقها.

- يُحيّرني ويُقلقني أن يرسل إليكِ هذا...

- يبدو كما لو أنّه ينوي أن يُغادر البلاد...

- سيكون عليّ أن أُبلِّغ الشرطة...

- ربّما لم يعد يتذكّرونه.

- ربّما يكون هذا الرجل خطيرًا...

- لا تصدّقي ذلك، يا سيّدتي، فقد كان في غاية الطيبة واللطف.

نظرت إليها السيّدة بليندر من دون أن تتفوّه بكلمة واحدة. بدت لها روزا فجأةً حزينةً أو منهكة، وربّما حزينة ومنهكة في آنٍ واحد. مرّرت يدها حول كتفيها وقالت لها: - عليكِ أن تعديني بأمرٍ... ما إن تحصلي على أدنى دليلٍ على مكان وجود هذا الرجل، سوف تخبرينني بذلك.

وافقتها روزا بإشارة خفيفةٍ من رأسها، وقبّلت أصابعها المضمومة على شكل صليب، وهي تمسك بيدٍ الدولارات، وبالأخرى الخشخيشة.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

32

في فترة ما بعد الظهيرة، تسلّق الطفل خوسيه ماريا اثنتي عشرة درجةٍ. أحصى ماريا، من أعلى السلّم، الدرجات، وهو فخورٌ ومذعورٌ في آنٍ واحدٍ (فخورٌ بإنجاز الطفل، مذعورٌ لأنّه يخشى أن يسقط). لوّح له بحركات محاولًا إخافته، لكنّ الطفل ازداد نشاطًا وتحفّزًا، إلى أن لاحظت روزا أخيرًا غيابه. نهضت من الأريكة متوثّبةً مثل نابضٍ، رأته، وأسرعت نحوه، وأنزلته من السلّم وهي توبّخه.

عامّة، لم تكن روزا مهمِلة. حتى وإن كانت السيّدة بليندر (بطريقة غامضة على مرأى ماريا) تساعدها في تربية الطفل، فروزا لا تزال خادمة: عليها أن تقوم بالمهام المنزلية وابنها على ظهرها، وأحيانًا يفلتُ بين يديها أو هي تغفل عنه. كان خوسيليتو - مثلما بدأت تسمّيه- مضطربًا جدًّا، وفي الوقت ذاته، كسولًا جدًّا. لم يُجازف بالمشي قبل أن يبلغ أربعة عشر شهرًا من عمره. يشبه روزا تمام الشبه...

اتّصل بها ماريا هاتفيًّا كلّ يوم تقريبًا طيلة السنة. يتحدّثان عن خوسيليتو، وتروي روزا له عن حركاته وأفعاله الشقيّة، وينصحها ماريا بالانتباه إلى زوايا الطاولة، وإلى المقابس الكهربائية، وخاصّة إلى السلالم التي يبدو أنّ خوسيليتو يحبّها كثيرًا. على فترات متباعدة (فقط على فترات متباعدة)، تسأله روزا أين يكون، ومتى سيعود.

لم يكن خوسيليتو يقول شيئًا (لم يكن يتكلّم)، لكنّه من الواضح أنّه يحبّ ماريا كثيرًا. ويبادله ماريا هذا الحبّ. في كلّ لحظة من لحظات انشغال روزا عن الطفل (كلمّا يجد خوسيليتو نفسه وحيدًا في غرفة الجلوس أو في غرفتها أو في المطبخ، وخاصّة حينما تتركه روزا في غرفة الألعاب في الطابق الثاني وتبتعد عنه في الممرّات مع المكنسة الكهربائية)، كان ماريا يقترب منه، ويرفعه بين ذراعيه، ويحضنه ويُلاطفه، أو كان يعطيه لعبة صغيرة صنعها له بنفسه من أعواد الثقاب، والتي يكسرها خوسيليتو في الحال تقريبًا وهو يبتسم ابتسامةً عريضة.

يحبّ رائحته التي تفوح مثل لهبٍ لا إطار له ولا شكل، وثغثغته ونعومة بشرته الفائقة... ولكن لم يكن هناك ما يُسعده أكثر من الضحكات المصحوبة بالشهقات التي يحتفل خوسيليتو بها في لحظات ظهوره القصيرة أمامه.

علّمه أن يقول «خوسيليتو» (كان يقول «ليتا»)، «أوتو» بدل «توتو»، ولأنّه لم يستطع أن يجعله يقول ماريا خشيةً من أن يردّد خوسيليتو اسمه فيما بعد أمام الآخرين، اختار لنفسه أيضًا اسم «ماما».

قال له في المرّة الأولى، وهو يجلس القرفصاء أمامه: - ما... ما...

قال خوسيليتو:

- ام...

- ما... ما...

- ام... ام.

- ممتاز! مرّة أخرى... ماما...

- ا... ام...

- صحيح! يا إلهي، يا له من طفلٍ ذكيّ...

هنّأه بمداعبة رأسه، واستأنف قائلًا: - ما... ما...

- اما...

كانت روزا تظن أنّ خوسيليتو يمتلك خيالًا واسعًا، لأنّه كان يبحث دائمًا عن شيءٍ ما خلف الأبواب أو أسفل السلّم. قالت لماريا، ذات مرّة: - لا أدري ما الذي يحدث له، أكون إلى جانبه بينما ينطلق باتجاهٍ آخر وينادني. أنا قلقة.

- قلقةٌ من ماذا؟ إنّه يلعب!

- كلا، لا يلعب. أكون إلى جانبه وهو يبحث عنّي في مكانٍ آخر... الأطفال الذين يكونون في هذا العمر لا يمزحون هذا النوع من المُزاح. أخشى أنّ تكون لديه مشكلة عقلية...

- كلّا، يا روزا، أيّ مشكلة عقلية ستكون لديه... هذا هو حال الصبيان...

- كم أودّ لو أنّك تعرّفت عليه... كنت ستتفاهم معه كثيرًا...!

أحسّ ماريا أنّ قلبه يتحطّم: حان الوقت (العمر) ليمتنع عن رؤية ابنه بعد الآن.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

33

بعد ظهيرة أحد الأيام، كانت روزا على وشك أن تمرّر خرقةً لمسح الغبار في أحد غرف الطابق الأعلى، حينما سمعها ماريا فجأةً تتفوّه بشتائم. ثم أطلقت ما يشبه صرخةً، صرخةٌ متبوعة بحبس الأنفاس. لقد رأت، من دون أدنى شكّ، الجرذ.

خرجت روزا من الغرفة راجعةً إلى الوراء، وأخذت المكنسة وعادت. سمع ماريا، صوت ضربات عصا المكنسة على الأرض بعنفٍ مفرط. بعد برهةٍ من الوقت، توقّفت الضربات؛ وخرجت روزا ونزلت السلّم هرولةً. ترى هل قتلته؟ على الأرجح لم تنجح في ذلك، لأنّها عادت في الحال مع علبة سمّ الجرذان. دخلت إلى الغرفة وخرجت منها بعد مرور دقيقة واحدة. نظرت بخشيةٍ إلى عصا المكنسة: على الأقل كانت قد أصابت الجرذ.

قالت:

- وحش بغيض...

فانصرفت، وهي تمتم بالشتائم.

انتظر ماريا حتى تأكد من أن روزا لن تعود، ثم دخل إلى غرفة العلّية. وُزِّع سمّ الجرذان في زوايا الغرفة في أكوام صغيرةٍ على عجلٍ. التقطه من الأرض، ووضعه فوق الطاولة الصغيرة بجانب السرير، وجثا على أربع وأخذ ينظر إلى أسفل السرير وخزانة الثياب. فرأى كرةً سوداء، جامدة في مكانها، ولكنّها ترتعش. ربّما قد صُدِم أو جُرِحَ.

ضرب ضربة خفيفة براحة يده على الأرض، ولكنّ الجرذ لم يتحرّك.

همس:

- تعالَ... دعني أراك...

مدّ ذراعه نحوه بقصد الإمساك به، بل وقلّد حركة العنكبوت بأصابعه الممدودة نحوه... إلى أن لمسه. فأحّس آنذاك بحرقةٍ حادّة في يده. لقد عضّه الجرذ.

قال له غير مصدق:

- أنا؟ تعضّني أنا؟

تدلّت قطعة من الجلد واللحم بين سبابته وإبهامه. كان الجرح الذي بدأ ينزف يشبه ابتسامةً.

أخذ سمّ الجرذان، وذهب إلى المغاسل، ورماه في حوض المرحاض، ونظّف جرحه باستخدام الكحول. حينما خرج من المغاسل، رأى الجرذ، دائخًا، وهو يسير متعرّجًا في الممرّ. لم يكن يعرف إلى أين يذهب. توقّف ماريا وانتظر أن يتّخذ قرارًا. حينما فعل ذلك في النهاية، بدأ بالتحرّك من جديد.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

34

- يا لَها من حظٍّ جميل أن تتّصل بي، يا لَها من مصادفة جميلة! سنسافر إلى مار ديل بلاتا!

علم ماريا أنّ الزوجين بليندر ينويان مغادرة المدينة (كانا يغلقان الأبواب والنوافذ)، ولكنّه لم يكن يعلم إلى أين سيذهبان. لم يحظَ ماريا بفرصة الاتصال بها قبل مغادرتهم، وفي الحقيقة، كانت الحركة محفوفة بالخطر: كان الزوجان بليندر قريبين جدًّا.

سألها بصوتٍ منخفض:

- وأنتِ، هل ستذهبين إلى هناك؟

- نعم! ظننتُ في البداية بأنني سوف أظلّ هنا، ولكن...

- ستكتشفين البحر...

- نعم.

- وخوسيليتو؟

- سيأتي معي، طبعًا.

- اشتري له سطلًا... علّميه أن يبني قصورًا من الرمل...

- نعم.

- هذا رائع...

- لا السيّد ولا السيّدة ليست لديهما رغبة كبيرة في السفر، يبدو أنّ مار ديل بلاتا لا تعجبهما، لكن زوجين صديقين لهما دعياهما، ولم يستطيعا أن يرفضا دعوتهما.

- كم من الوقت سيبقيان هناك؟

- أسبوعٌ واحدٌ، يبدو لي...

- وسيتركان البيت فارغًا؟

- سيكون هناك حارسٌ، شرطيّ. لقد سمعتهما يكلّفان أحدًا ما بذلك...

- هل سيكون داخل المنزل؟

- مَنْ؟

- الحارس...

- هل جُننت؟ في الخارج! لقد وظّفا شخصًا ليجول على الرصيف ليلًا ونهارًا لكي يحرس المنزل. هل سبق وأخبرتك بأنّ وضعهما المادي، حسبما أعلم، ليس على ما يُرام كثيرًا؟

- نعم.

- حسنًا. يبدو أنّ الوضع يزدادُ سوءًا، أيضًا...

- كيف حال خوسيليتو؟

- رائع!

- هل لا يزال يقوم بتصرفاته الغريبة التي حدّثتني عنها، أقصد أن تكوني إلى جانبه ويذهب يبحث عنكِ في مكانٍ آخر...؟

- في هذه الفترة، تقريبًا لم يعد يفعل ذلك أبدًا.

أُصيب بالدهشة.

ماذا كان بوسعه أن يتوقّع غير هذا؟ الأطفال ينسون كلّ شيء بسرعة كبيرة... بالنسبة إلى طفلٍ في عمر خوسيليتو، لا بدّ أنّ أسبوعًا من الوقت يساوي عقدًا من الزمن بالنسبة إلى رجلٍ مثله...

- قولي لسيّدة المنزل أن تشتري له سطلًا...

- أنا بنفسي سأشتري له سطلًا!

- ممتاز، هذا أفضل. وأشتري له أيضًا مجرفة. أتعلمين ما الشيء الجيّد؟ اصنعي له قصرًا على الرمل قريبًا من الماء مع قناة صغيرة وسوف ترين، حينما تأتي الموجة، وتدخل إلى القناة الصغيرة، ولو صنعتِ بابًا، فسوف تدخل الموجة إلى القصر وتزيله. يُمكنكِ أن تضعي بعض القطع من الخشب فوق السقف... انتبهي لكي لا تُضّيعيه، يا روزا! لا تدعيه يغيب عن أنظاركِ، قولي في نفسكِ أنّ هذا الشاطئ هو عشّ نمل، إن أهملتِه للحظة واحدة، لن تعودي ترينه.

- لا تجعلني أخاف...

- أجل، أجل، أُريدُ أن أُخيفكِ. هناك، لا يكون المرء أبدًا حذرًا بما فيه الكفاية. والأمر ذاته بالنسبة إلى البحر: الموجة جميلة، ولكن يوجد تحتها تيارٌ خطير.

- لا يمكنك أن تعرف كم أودّ أن أذهب برفقتكَ إلى هناك...

- ذات يوم، سنذهب نحن الثلاثة معًا.

سمع ماريا فجأةً على الطرف الآخر من الخطّ صوت السيّدة بليندر التي تقف خلف روزا: - هيّا بنا يا روزا، من فضلك، حمّلي الحقائب. مع منْ تتحدّثين؟

أجابتها روزا:

- مع كلوديا، يا سيّدتي. أودّعها.

قالت له، متظاهرةً أنّها تُخاطب كلوديا: - حسنًا، يا كلوديا، اتّصلي بي لدى عودتي...

كانت تلك زلّة لسان صحّحتها في الحال: - أقصد أنا من سأتّصل بكِ. قبلاتي.

وأغلقت السمّاعة.

غادروا بعد نصف ساعة من ذلك. ولم يعودوا إلّا بعد عشرة أيام، وليس أسبوعًا.

وجد ماريا نفسه أول مرة وحيدًا في المنزل. وذلك باعث على الإحباط؛ لأنّه يشتاق إلى خوسيليتو وروزا (حتّى إلى السيّد والسيّدة بليندر!). ولكن أيضًا لأنّهم تركوا القليل جدًّا من الأغذية، فلم يكن يتبق، بالطبع، نوعٌ واحدٌ من الطعام قابل للتلف. في خزانة المطبخ، هناك علب سردين وتونا، وبعض علب الكستناء المطبوخ بالسكّر، والمربّى، وكيسان من الرزّ، وكيسان من الشعيرية، وعلبة بسكويت، وبعض الشاي، والمتّه، والقهوة، ولا شيء غير ذلك. عثر على بعض الخبز في كيسٍ معلّقٍ على الجدار. وتحت طاولة التحضير في المطبخ، كان هناك صندوقٌ يحوي ستّ قوارير من النبيذ. باب الثلّاجةِ مفتوح، ومفصولة عن الكهرباء وفارغة (باستثناء نصف دزينة من البيض ومكعّبين لصنع الحساء). إذا ما استهلك كلّ ما في الثلاجة أثناء الأسبوع، ستكتشف روزا الأمر.

ولكنّ، لم يكن هذا مصدر قلقه الوحيد. انطلاقا من إحدى نوافذ الطابق الأوّل، رأى الحارس وهو يقبع في زاوية الشارع، مديرًا ظهره للمنزل. يرتدي الزيّ الرسمي، حليق الشاربين. لم يفكّر ماريا في الخروج من المنزل، ولكن، في كلّ الأحوال، لم يكن بوسعه أن يفعل ذلك... كان لدى الشرطي توقيتٌ ثابت للحراسة: من الساعة الثامنة مساءً حتى الساعة السادسة صباحًا. لم يكن بوسع ماريا أن يخرج من المنزل إلا في النهار. وذلك مستحيل.

كانت المصابيح الخارجية مضاءة على مدار أربع وعشرين ساعة، وكذلك مصباح المطبخ؛ في حين يغرق ما تبقّى من المنزل في الظلام. لم يكن ماريا متأكّدًا من أنّ لا أحد سوف يراه من الخارج فيما لو أشعل ضوء غرفة

الجلوس أو إحدى الغرف الأخرى، ولذلك لم يفعل ذلك. ولكنّه يجلس في مقعدٍ في غرفة المكتبة مع مصباحٍ مشتعلٍ ليقوم بقراءة كتابٍ، أو يتفحّص أدراجًا، وأوراقًا، ومن المحتمل أيضًا، أن يشاهد التلفاز.

في المرّة الأولى التي شاهد فيها التلفاز، أحسّ بالاستغراب بعض الشيء لأنّ الأمور التي تمّ التحدّث عنها، كانت الأمور نفسها التي تمّ الحديث عنها قبل سنواتٍ خلت، ولكن من بين الأشخاص الذين كانوا يظهرون على الشاشة، لم يعرف أحدًا منهم تقريبًا. والأشخاص الذين لا يزالون يظهرون منذ سنوات، والذين على ما يبدو سيظلّون يظهرون على الشاشةِ زمنًا طويلًا، شاخوا على نحوٍ غير عادي، كما لو أنّ الكثير من الوقت قد مضى منذ آخر مرّة رآهم فيها.

أمضى ثلاث ليال أو أربع في غرفة روزا. وقد كفّ عن فعل ذلك حينما شمّ رائحته الشخصية على الوسادة. في الليلة الأولى، عانى من الحمّى، وأحسّ بوخزٍ في جسمه وبشيءٍ من الخدر في يده التي عضّها الجرذ. ولاحظ أنّ بعض عضلاته تنقبض على نحوٍ مؤلم، انقباضات لا إرادية، في واحدٍ من الألياف وواحدٍ من الأوتار في آنٍ واحدٍ، أحيانًا في عضلةِ ذراعٍ، وأحيانًا في عضلةِ فخذٍ... في فترة الصباح، فتّش الغرفة. لم يكن لدى روزا أيّ سرٍّ فيها (لم تكن هناك أيّ رسالة مكتوبة بيدها أو تلقّتها من أحدٍ). عثر في درج الطاولة الصغيرة المجاورة للسرير الخشخيشة التي على شكل نجمةٍ والتي أرسلها هدية عيد ميلاد إلى خوسيليتو. على أحد جوانب الجدار، شاهد خربشة بالحبر الأزرق، ربّما خربشتها روزا بيدها.

فتح باب خزانة ثيابها، فوجد أنّها تملك القليل من الثياب. ولد خوسيليتو، ومن فوره حصل ثيابًا أكثر منها. يكبر الأطفال بسرعة، وهذا لا يمنعهم من أن يمتلكوا من الثياب عامّة أكثر مما يستطيعون أن يرتدوها. ولكن في سنّ البلوغ، حينما يبلغ الجسد سقفه، إذا ما جاز التعبير، يضطرّ المرء أن يرتدي دائمًا الثياب نفسها تقريبًا.

ولكنّ الأمر مختلف فيما يتعلق بالسيّد والسيّدة بليندر. فقد كانت خزانة ثيابهما مليئة. ومع ذلك لاحظ بأنّهما أيضًا لم يخفيا أسرارًا في غرفتهما، على الأقلّ على الورق. لم يثر أيّ شيءٍ مما وجده في البيت طيلة الأيام الثلاث أو الأربع انتباهه، إمّا لأنّهما أخفيا الأشياء جيّدًا، وإمّا لأنّ ماريا يعرف كلّ ما بإمكانه أن يعرفه عن الزوجين بليندر. الأمر مثير للإحباط: حياةٌ كاملة، حياةٌ طويلة قضاها شخصان معًا لم تكن قد أنتجت أكثر ممّا يمكن لشبحٍ (يعتمد فقط على أذنه) أن يعرفه أثناء بضع سنوات.

مع ذلك، تحقّق من بعض المعلومات المتعلّقة بهما، أو أكمل معلوماته عنهما: كان السيّد بليندر محاميًا متوتّرًا، واستحواذيًا، وسيّئ الحظ. وكانت السيّدة

بليندر افتتحت في أحد مراحل حياتها صالةً للعروض الفنّية، وكانت مدمنة كحول «من الطبقة الراقية» (لم تكن لها أيّ صورة لا تظهر فيها إلى جانب أحدٍ وفي يدها كأس مشروبٍ، ولكن، في المنزل، لم تشرب إلا في الليل، وفي سريرها)؛ تستخدم الكثير من المراهم، وتعشق ألوان الباستيل، وعلى الأرجح على علاقة غرامية سرّية، وذلك نظرًا إلى بعض الثياب ذات الألوان الصارخة المخبّأة في قعر الخزانة. الأكثر إثارةً من بين ما وجده في غرفة الزوجين بليندر، ومثيرًا للقلق والاضطراب في آنٍ واحد: إحدى طائراته الصغيرة التي صنعها للطفل خوسيه ماريا من أعواد القُنّاب.

كانت الطائرة الصغيرة موجودة في الدرج العلوي لخزانة مقابل السرير. لا شكّ أن خوسيليتو نسيها هناك، وعثرت عليها السيّدة بليندر وصّبتها في الخزانة. أو ربّما تكون روزا هي من وجدتها على وصَّبتها، معتقدةً أنّها قد جُلِبَت من قبل السيّد أو السيّدة بليندر... لم يكن أحدٌ قد قال أيّ شيء على الإطلاق بشأنها: لو أنّ أحدًا تحدّث عنها، لعلِم بذلك. الأشياء التي لم يجلبها أحدٌ إلى مكانٍ محدّد، والتي مع ذلك تكون موجودة، تشكّل على الأقل موضوعًا للحديث عنه، ومن وجهة النظر هذه، تكون فيها إمكانات هائلة، حتى وإن كانت، عامّةً، تجد نفسها في حاوية القمامة من دون أن يعيرها أحد دقيقةً واحدة من الانتباه. العالم والكوكب كلاهما مليئان بالأشياء التي لم يودعها أحدٌ فيهما. ترك الطائرة الصغيرة في مكانها وأغلق الدرج من جديد.

ذات ليلة، (كان ينام في سرير الزوجين بليندر)، أيقظه ضجيجٌ غريب. خرج بسرعة لكي يرى ما الأمر. قال في نفسه لحظة إنّ لصًّا يحاول الدخول إلى المنزل. ذهب نحو نافذةً، وفتحها قليلًا: كان الشرطي موجودًا في مكانه، وهو لا يزال يدير ظهره للمنزل. ثمّ توجّه نحو المطبخ. وجد قارورة نبيذ فارغة وقد انقلبت بجانب غطاء سلّة القمامة الذي كان هو الآخر قد سقط وقَلَبها. هذا كان مصدر الضجيج. كانت روزا قد نسيت أن تُخرج سلّة القمامة... نظر إلى الكيس: كان مربوطًا، ولكن كانت فيه خدوش، كما لو أنّ أحدهم قد خدشه أو عضّه.

أحدهم؟

الجرذ.

بعد أن ارتاح، مرّر يده بين شعره وعلى وجهه وعاد يستلقي على السرير.

شعر بالجوع. سمح له كيس سلّة القمامة المنسي في أن يستخدم بقايا الأشياء القليلة التي وجد نفسه مجبرًا على استهلاكها: علبة تونا، وأخرى من السردين، وقشور ثلاث بيضات، وكيس كرز، والعلبة الكرتونية لمكعّبات الحساء... فتح كيس سلّة القمامة ورمى البقايا فيه وأغلقه من جديد. كان

يتحايل على جوعه في بعض الأحيان بجرعةٍ من الكونياك. أو يعدّ لنفسه كوب شاي أو فنجان قهوة. أكثر ما يحبّه، كان المتّه، ولكن لم يستطع أن يُنهي علبة روزا الوحيدة منها بغيابها. وأيضًا، بعد استهلاك كمّية معقولة منها، جفّف أعشابها المستخدمة بجانب زجاج النافذة، في الهواء الطلق، وتحت الضوء.

بدأ ماريا يعاني صعوبة في ابتلاع الطعام. تساءل إن كان يعاني من التهابٍ في اللوزتين أو من الأنفلونزا، ولكنّه لم يعانِ من أيّ ألمٍ في الحلق. يتعلق الأمر بالأحرى بتشنّجات في عضلات رقبته وحتى حلقه، كما لو أنّ يدًا تضغط بقوّة على حلقه وتمنعه من ابتلاع الطعام بشكلٍ طبيعي وأحيانًا حتى من التنفّس. كانت الحمى تأتيه وتزول، ترتفع شدّة وتنزل مثل مدٍّ وجزرٍ، وفي كلّ مرّة، تنحسر الحمّى، تترك له شيئًا جديدًا: قلقا، ضيقا، نوباتٍ جديدة من الوخز...

بات متوتّرًا وسريع الغضب. ذا مساء، حطّم بقبضة يده صورة ألفارو وإطارها. ألقاها أرضًا، وجثا على ركبتيه وانهال ضربًا على زجاج الصورة. وفي يومٍ آخر، بدأ يصعد السلّم وينزله حتى انهار منهكًا. يضغط على فكّيه بقوّة شديدة حتى يؤلمه وجهه.

شعر في بعض الأحيان بالخوف. لم يشعر قطّ في حياته بأنّه على هذه الدرجة من الوحدة والعزلة. وصفُ الدكتور داير حول الرجل المتحرّر من مواطن الضعف، الذي يتعرّف على نفسه انطلاقًا من (درجة من الطاقة المرتفعة على نحوٍ خاصّ، واستخدام العقل في الهذيان الخلّاق الذي يتيح تجنّب الشلل الناجم عن نقص الاهتمام)، كان هذا الوصف سينهار بكلّ هدوء ومن دون ضجيج. كان صمت قدميه العاريتين الشاردتين في المنزل هو الضجيج الوحيد الذي يسمعه.

بعد مرور أسبوع على مغادرة روزا وخوسيليتو والزوجين بليندر، أقام بالقرب من المرآب، راغبًا في أن يسمع صوت هدير محرّك السيارة التي ستقلّ العائلة. كان ضعيفًا، ونحيلًا، ويشعر بحرقةٍ في صدره. استلقى على سجّادة على الأرض، وشعر بضيقٍ شديدٍ في حلقه وبصعوبةٍ في التنفّس. وكان يبتلع الطعام بمشقّة، وتتوتّر عضلاته وترتعش في أنحاء متفرّقة في جسمه وتبرق مثل الإشارات العصبية للضوء في الظلام الدامس للمنزل.

في صباح اليوم التالي، استيقظ على وقع خفقان أجنحة العصافير التي حطّت على النافذة: عصافير تتعارك. لاحظ في الحال أنّ ضجيج حركة السير أقوى بكثير من زقزقة العصافير وفوجئ بنفسه من سماع أصواتها أوّلًا. تُرى هل وصل آل بليندر؟ بعدما يئس من عدم وصولهم، أحسّ أن الحرقة في صدره تستعر وأنّ الغصّة في حلقه تشتدّ. أمضى أسبوعًا كاملًا في الطابق الأرضي، وكان بحاجة إلى أن يصعد إلى الطوابق العليا.

بعد بضع ساعاتٍ أمضاها في الطابق العلّية، أحسّ بأنّه قد أصبح أفضل حالًا، كما لو أنّ الزمن الذي أمضاه على مستوى الأرض قد أصابه بالاضطراب. في المساء، نزل ليعدّ لنفسه طبقًا من الحساء. ثمّ صعد من جديد، ولكن فقط حتى الطابق الثالث. جلس براحةٍ في مقعدٍ، وبدأ بتناول الحساء. كان عاجزًا عن التفكير ونظرته تائهة. بدأ جهاز الهاتف يرنّ في تلك اللحظة. سقط الطبق من يده على الأرض وتحطّم متناثرًا.

تلك هي المرّة الأولى أثناء ثمانية أيام التي يتّصل فيها أحدهم مع المنزل؛ هناك احتمالات قويّة بأن يكون الأصدقاء القلائل للزوجين بليندر قد علموا بأنّهما لم يكونا في البيت وبأنّهما قد عادا إليه في هذا اليوم. ثمّ رنّ الهاتف عدّة مرّات، ودائمًا هاتف الطابق الثالث هو الذي يرنّ، في حين لم يرنّ هاتف المطبخ قطّ. لم يتذكّر بأنّه قد سبق له وسمعه يرنّ... حينما كان المجيب الآلي يبدأ بالعمل، تغلق السمّاعة على الطرف الآخر من الخطّ. هل كانت روزا هي التي تتّصل؟ هل من المنطقي التفكير، أن تتخيّله روزا في المنزل، وأنّها تتّصل به من وقتٍ إلى آخر، من دون أيّ أملٍ في أن يردّ عليها، كوسيلةٍ لإلقاء التحية عليه؟

التقط شظايا الطبق المتكسّر، ودسّ يده في سلّة القمامة، حفر حفرة وسط القمامة وطمر الزجاج المتكسّر في قاع الكيس... وذلك لكيلا ينتبه أحد إلى الطبق المكسور. فاحت الرائحة من سلّة القمامة مثيرة للغثيان. حينما أعاد ربط فتحة الكيس، لاحظ أنّه تضخّم كثيرًا بمحتوياته: على أحد جوانب الكيس فتحةٌ بمقدار قبضة يد. كانت اليد والذراع اللتان دسّهما في جوف سلّة القمامة، واللتان لا تزالان متّحدتين بأعجوبةٍ مع جسده، تفوحان برائحة الموت.

استحمّ، غاطسًا في حوض الاستحمام. في لحظةٍ محدّدة، غطس رأسه في الماء وسمع صوت قطرات الماء وهي تتساقط برتابة... تك... تك... تك... ظلّ تحت الماء إلى أن احتاج إلى أن يتنفّس. فرأى في السقف شقًّا صغيرًا تسقط انطلاقا منه، بإيقاعٍ يتزايد سرعةً، قطرات ضخمة من سائلٍ أسودٍ وكثيفٍ يلمع عند ملامستهً للماء، منتشرًا فيه ومضفيًا عليه لونًا مائلًا إلى الأحمر. إنّه دمٌ. هل هذه هلوسة؟

أغمض عينيه، وحينما فتحهما، لم يزل الشقّ موجودًا، ولكنّه أكبر حجمًا، ويتساقط الدم منه في عدّة نقاطٍ، في آنٍ واحد... ظلّ ينظر إليه بثبات إلى أن اختفى الشقّ وعادت المياه نظيفةً. حينما أراد أن يخرج من مغطس الحمّام، لاحظ بأنّه قد فقد خفّة الحركة والرشاقة تمامًا؛ وأحسّ بأنّه قد شاخ خمسين سنةً أثناء خمسين دقيقة. تطلّب منه النهوض والتنشيف وارتداء الثياب جهودًا جبّارةً.

ولكن، وبعد انقضاء نصف ساعة، وعلى نحوٍ مفاجئ، لم يعد يحدث أيّ شيء.

كان منهكًا ويعاني من الحمّى. توجّه نحو الهواء والضوء وجلس على الأرض، وهو يمدّ إحدى ذراعيه على الواجهة الزجاجية. أغمض عينيه، ونام. بدأ الهاتف يرنّ... حينما توقّف عن الرنين، شعر بأنّه قد سها عن فكرةٍ، عن ذكرى، عن رأيٍ، لم يعرف بالضبط عن ماذا. ولكنّه يعلم أنّ شيئًا يراوده غالبًا: تتعاقب اضطرابات طفيفة أو ميول ذهنية، إلى ما لا نهاية. أمضى وقتًا طويلًا في تفحّص شكل هذه الأفكار المعزولة والمستقلّة حينما تنبثق وتهبط. كانت الفكرة الأولى دائمًا غير قادرة على الوصول إلى الأخرى أو الارتباط بها: كان يفكر في الفقاعات.

شيءٌ ما جعله يفتح عينيه. حلّ الليل، ولكن لم يكن هذا ما أيقظه. كانت هناك سبعة أو ثمانية، وربّما عشرة جرذان على بعد بضعة أمتار من السلّم، بعضها ملتصق بالجدار، وأخرى تجول بعيدة عن الجدار مسافة قصيرة... أراد أن ينهض، ولكنّه لم يستطع: جسده ثقيلٌ جدًّا كما لو أنّه لا يزال نائمًا. انقلب على جانبه، تحرّكت الجرذان بالكاد من مكانها. فقط حينما ضرب الواجهة الزجاجية براحة يده، اختفت الجرذان وكأنّ الأرض قد انشقّت وابتلعتها. في النهاية، نجح في النهوض من مكانه. توجّه نحو غرفته، وصل إليها، وأغلق الباب من خلفه، وتمدّد على السرير، وعلى أنّه يعاني من غصّةٍ شديدة في حلقه، وجسمه مليءٌ بالتشنجات، إلا أنّه نام.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

35

- روزا...

- ماريا حبيبي!

- ما أجمل هذه...

- اشتقتُ إليك!

أكمل ماريا بصوتٍ خافت: - ... أن تقولي لي...

- لقد قمنا برحلةٍ جميلة... رائعة...!

- وخوسيليتو...؟

- إنّه مجنون! يذهب يمينًا ويسارًا مثل لعبة تعمل بالبطارية، لم تكن هناك وسيلة لإيقافه! لم نذهب كثيرًا إلى الشاطئ. أربع مرّات أو خمس، كلّ يومين، كنّا نذهب مرّة واحدة، لأنّني أبقى في بيت المستضيفين لأساعد إستيلا، وهي فتاة لطيفة جدًّا تعمل في بيتهم. لقد أصبحت صداقتي معها متينة جدًّا، سأروي لك ذلك... أمّا خوسيليتو، فنعم، يقضي طيلة النهار على الشاطئ. حينما لم يكن يذهب معي، يذهب مع سيّدة المنزل. لو ترى كم اسمرّت بشرته!

- هل صنعتِ له القصر...؟

- صنعتُ له ألف قصر!

ابتلع ريقه.

- و... القناة...؟

- نعم، والقناة أيضًا. ولكنّه يمضي وقته في اللعب بالكرة. لو أنّك رأيت كم كان يستمتع بذلك! أقسم لك بمجرّد النظر إليه... كنتَ محقًّا حينما قلتَ بأنّ هذا سيعجبني.

- هل رأيتِ...؟

- لماذا تتكلّم هكذا؟

- كيف هكذا؟

- بهذه الطريقة. هل أصابك مكروه؟

- كلّا... أعاني من بعض الألم في حلقي...

- هل راجعت طبيبًا؟

- كلّا، هذه مسألة هيِّنة، ستمرّ في الحال... اروي لي...

- لقد فكّرت بكَ يوميًّا. من الأفضل لو كنّا نعرف رقم هاتف المنزل هناك لتستطيع أن تتّصل بي... أو لو أنا أعرف رقم هاتفك... لقد تحدّثتُ كثيرًا مع إستيلا هذه... أريد أن أحدّثها طيلة الوقت عنكَ و... أنت لا تعرف بشاعة الإحساس بأنك لا تستطيع التحدّث مع أحدٍ حول ما يجول بخاطرك، لأنّه إضافة إلى كلّ شيء... حسنًا، كما قلتُ لك، لقد اشتقتُ إليك، لا أدري... ربّما لأننا تحدّثنا كثيرًا عن الذهاب معًا إلى مار ديل بلاتا ولذلك...

- سوف نذهب...

- كان لديهم منزل رائع هناك، وسط غابةٍ، لا يمكنك أن تتخيّل! والمركز، يا إلهي! لم أرَ قطّ مركزًا كهذا. إنّه كما قلت لي: إنّه عش نمل. على الشاطئ، في المركز، هناك حيث تضع قدمًا، تجد مليون قدمٍ إلى جانبِ قدمكَ. ماريا؟

- نعم...

- لقد جلبتُ لكَ شيئًا.

- ماذا...؟

- هديّة، لقد جلبتُ لكَ هديّة.

- شكرًا، روزا.

- هديّتان.

- لم يكن من داعٍ لذلك...

- لقد جلبتُ لكَ علبة من بسكويت هافانا وقلادة جميلة جدًّا، عبارة عن أحجار صغيرة ملوّنة. أعرف جيّدًا أنني لستُ متأكّدة من أنّني سأستطيع أن أعطيَها لك، ولكن مع ذلك القلادة معي، وسأحتفظ بها إلى حين أن نستطيع ذات يوم أن نلتقي. ستعجبكَ، سترى...

- شكرًا...

- لقد تذكّرتُ أنّك أخبرتني ذات يوم بأنّك تحبّ الأثر الذي تتركه القلائد على الرجال، ذات مرّة حينما رأينا صبيانًا كانوا... ما هذا السعال الشديد، يا ماريا؟ هل تدخّن كثيرًا؟

- أنا لا أدخّن...

- هل أقلعت عن التدخين؟

- منذ زمنٍ طويل... حدّثيني عن خوسيليتو... هل ينام إلى جانبكِ؟

- دائمًا. المشكلة الوحيدة هي أنّه لم يُرد أن يتكلّم. إنّه كسولٌ! لا يقول سوى كلمةٍ واحدة، «ماما». يقولها لي وللرجال، ولا يقول شيئًا للنساء الأخريات. وأنت؟ حدّثني قليلًا عنك...

- لا شيء...

- أليس لديك شيءٌ تقوله لي؟

- أحبّكِ يا روزا...

- هل اشتقتَ إليّ؟

- اشتقتُ إليكِ، وأحبّكِ... الأمران معًا...

بينما يقول هذا لروزا، رأى السيّد بليندر يصعد السلّم.

لثانيةٍ واحدة: في اللحظة التي رآه فيها، صرخ السيّد بليندر نحو الأسفل من دون أن يتوقّف عن الصعود (ومن دون أن يمنحه الفرصة ليفعل أيّ شيءٍ): - هيّا، يا ريتا، أسرعي من فضلك!

أغلق ماريا السمّاعة مباشرةً.

وضع جهاز الهاتف، وأسرع، بما تبقى لديه من طاقة، إلى الطابق الأعلى. كانت ساقاه تستجيبان له بصعوبة... صعود درجة واحدة من السلّم بمثابة تسلّق جبلٍ... دخل إلى غرفته، وأغلق الباب، وجلس على الأرض، مسندًا ظهره إلى الجدار. تصبّب عرقًا وارتعشن يداه. كان متأكّدًا من أنّ روزا قد سمعت بوضوح صوت السيّد بليندر.

لذا، اضطجع على السرير وانتظر...

أحسّ بأنّه ضعيف ويُعاني من الألم في القلب. يعرف أنّ الجوّ حارٌّ جدًّا، ومع ذلك، يرتدي سروالًا وقميصين، ويرتجف بردًا، ويعاني من صعوبة في التنفّس... لم يعد في استطاعته أن يتنفّس... أدار رأسه ببطء ونظر إلى النافذة... نظر إلى النور... سمع ضجيج الشارع... خمّن أنّ الساعة تشير إلى السادسة أو السابعة مساءً. سيحلّ الليل بين لحظةٍ وأخرى.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق
متميزون
E-BOOK

36

كانت بشرة روزا قد اسمرّت كثيرًا، وقد قصّت شعرها قصيرًا إلى حدّ الكتفين، وتضع في أذنيها قرطين من الحجر بلونٍ أزرقَ فاتحٍ جدًّا، يجعلانها أكثر شبابًا وسعادةً، حتى وإن كانت، في تلك اللحظة، مصدومة ومذهولة. عيناها أكثر سوادًا وبريقًا، وأنفها قد تقشّر قليلًا، ورموشها تبدو رطبة، كما لو أنّها احتفظت بشيءٍ ما أثناء غطستها الأخيرة في البحر.

حتى وإن مرّ أكثر من يوم على عودتها، لم تكن قد ارتدت بعد زيّ العمل، وإنّما ثوب أزرق من لون القرطين كليهما اللذين تضعهما في أذنيها، وكانت حافية القدمين، مثله.

أشارت الساعة إلى التاسعة صباحًا، ووقفت روزا ساكنة بلا حراك بالقرب من الباب، جامدة في تعبيرٍ من الدهشة، وهي تضع يديها على فمها. كان على ماريا أن ينظر إليها فقط، ليعرف أنّها نظرت إليه فترة طويلة قبل أن يفتح عينيه. ولم تكن قد استطاعت بعد أن تصدّق ذلك.

فتح ماريا شفتَيه قليلًا ليقول شيئًا ما، ولكنّه لم يمتلك القوّة لفعل ذلك: فأطبق شفتيه وابتسم لها.

غمغمت روزا، ولازالت يداها على فمها: - يا إلهي...

اسمرَّت يداها أيضًا كثيرًا، وأظافرها مقصوصةٌ قصيرةٌ جدًّا ومصبوغةٌ بطلاء الأظافر، وتلمع مثل اللؤلؤ، وترتدي قلادة من الأحجار الصغيرة الملوّنة. أدرك ماريا أنّها القلادة التي حدّثته عنها، ليلة أمس، هديّته. كان تبادل النظرات هو أوّل اتصالٍ مباشرٍ بينهما منذ سنوات، عدا التواصل الصوتي؛ والقلادة هي الاتصال الثّاني، وربّما الأكثر أهمية من الأوّل؛ لأنّها كانت تقيم صلةً أبعد من النظر بينهما.

خطت روزا خطوة نحو الأمام، ثمّ توقّفت. قالت: - ماريا...

ثمّ خطت خمس خطوات أخرى، خطوة بعد أخرى، كما لو أنّها تُحصي خطواتها، حتى وصلت إلى جانبه. مدّت يدًا، ولكن قبل أن تلمسه، تراجعت فجأةً وتوقّفت من جديد بجانب الباب. بكت من دون أن تثير ضجيجًا. دخل خوسيليتو وهو يركض برعونة وتشبّث بثوب أمّه، كما لو أنّه قد هبط سالمًا وبأمان بعد أن قفز من فوق منحدر.

رأى ماريا ولم يبدُ متفاجئًا، وإنّما سعيدٌ. قال له: - ماما!

غمغم:

- صباح الخير...

لم يكن خوسيليتو قد نسيه.

فأسرعت روزا فجأةً نحو السرير واحتضنته بين ذراعيها. قالت: - كنتُ أعرف... كنتُ أعرف! كنتُ أعرف! يا إلهي، منذ متى أنت هنا؟

- منذ الأزل...

- وكيف حدث ولم تخبرني بذلك؟

ابتسم لها ماريا.

لمست روزا جبينه:

- إنّه ساخن جدًّا!

نظرت وراءها إلى خوسيليتو الذي شرع في تصفّح أحد الكتب الأكثر مبيعًا، كما لو أنّه يستطيع أن يفعل شيئًا من أجل مساعدتها.

قال ماريا وهو يشير إلى المستودع: - في الغرفة المقابلة... في حقيبتي... اذهبي واجلبيها، لقد صنعتُ له الكثير من الأشياء الصغيرة... هناك من بينها بعض الأشياء التي صنعتُها بإتقان...

في تلك اللحظة، استجمعت روزا نفسها. نهضت من مكانها. انتقلت من الذهول إلى الاضطراب وأخذت تذرع الغرفة جيئةً وذهابًا وهي تتساءل عمّا عليها أن تفعله.

قالت وهي تهزّ رأسها:

- البارحة مساءً، فهمتُ كلّ شيء حينما كنتُ أتكلّم معك وسمعتُ سيّد المنزل يتحدّث مع سيّدة المنزل... ولكنّني لم أمتلك الشجاعة في الصعود إلى هنا... سيكون الخروج من هنا أسهل أثناء الليل... سوف أجلب لك شيئًا تأكله، وقليلًا من الماء، وسوف أعيد إغلاق الباب، وهذه الليلة، سنرى ماذا سنفعل لنخرج من هنا...

كانت سذاجتها مثيرة ومؤثّرة. لقد أخبرها من فوره بأنّه موجودٌ هنا منذ الأزل وهي تطلب منه أن يصمد لليلةٍ إضافية. كان طلبها في الجوهر منطقيًّا تمامًا: الآن وقد اكتشفته، الآن وهو لم يعد شبحًا أو شكًّا أو احتمالًا أو ظلًّا، يمكن لأيّ أحدٍ أن يكتشفه أيضًا.

خرجت روزا من الغرفة، وأغلقت الباب تاركةً خوسيليتو في الداخل، ونزلت السلّم بأقصى سرعة.

جلس خوسيليتو على الأرض، محاطًا بأوراق ممزّقة ومجعّدة.

ناداه ماريا بصوتٍ ضئيل: - خوسيليتو...

رفع خوسيليتو عينيه وابتسم له.

قال له ماريا:

- كفّ عن تمزيق الكتاب... تعالَ... تعالَ أليّ، يا خوسيليتو... تعالَ دقيقة إلى بابا...

نهض خوسيليتو. لاقى صعوبةً، ولكنّه نهض. ومع ذلك، لم يتحرّك قبل أن يقول له ماريا بأنّه سيبوح له بسرّ. فأسرع حينئذٍ نحوه.

قال له ماريا وهو يربّت على صدره: - اصعد إلى هنا، يا خوسيليتو... تعال إلى حضني...

تشبّث خوسيليتو بقميص ماريا. وقد ساعده هذا على أن يُصعده واضعًا إحدى يديه تحت ردفيه، ورافعًا إياه إلى أن سقط خوسيليتو على بطنه فوق صدره. فضمّه بين ذراعيه، بلطفٍ لا يُصدّق، حتى وإن وضع كلّ قوته في ذلك. ومن ثمّ، وهو يخترع سرًّا لكيلا يُخيّب أمله، أغمض عينيه وفكّر في روزا. اكتشف بأنّه يكاد لا يعرف شيئًا عنها. تُرى هل لديها أخوة وأخوات؟ ما اسم أوّل حبيبٍ لها؟ أو ما يزال والداها على قيد الحياة؟ يجهل إن كان لديها اسمٌ ثانٍ... لم يعرف تاريخ ميلادها... لم تكن لديه أدنى فكرة عمّا تخاف منه أو ما تنتظره من الحياة... أو منه. لم يسألها قطّ عن مشاريعها... بل ولم يكن متأكّدًا من أنّها قد قامت بمشاريعَ... تُرى هل وقع في حبّ روزا في اليوم الذي رآها في متجر ديسكو؟ أم بعد أن دخل إلى المنزل... وُلد من سرِّه، من استحالة أن يكون معها؟

هل سبق له وأن قدّم لها شيئًا ما؟

هل يعرف من تكون روزا؟ كلا. لقد اخترعها، بطريقةٍ ما. وآلمه ذلك. شعر بهذا الألم وفكّر بأنّه نعم، بأنّه على الأرجح قد اخترعها. ولكنّه مات وابنها بين ذراعَيه.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

(تمت بحمد الله وتوفيقه) ∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق
متميزون
E-BOOK

متميزون
للكتب النصية
E-Book

Group Link – لينك الانضمام الى الجروب

Link – لينك القنـــــاة

فهرس المحتويات

عن الرواية
1
2
3
4
5
6
7
8
9
10
11
12
13
14
15
16
17
18
19
20
21
22
23
24
25
26
27
28
29
30
31

32
33
34
35
36

Notes

[←1] (2) المصراع هو الجزء المسؤول في الكاميرا عن تعريض فيلم فوتوغرافي إلى الضوء المنعكس من المشهد عبر العدسة فترة محدّدة بغية تكوين الصورة بمستوى الإضاءة المطلوبة. (مترجم الطبعة الفرنسية)

(1) الإمبانادا: أكلةٌ شهيرةٌ في أمريكا اللاتينية وإسبانيا وهى رقائقُ عجينٍ محشوّة باللحم والجبن والذرة ومقلية. مترجم الطبعة الفرنسية. [←2]

[←3]

(3) للحبّ وجه امرأة: مسلسل تلفزيوني أرجنتيني أسبوعي، يتحدّث عن حياة أربع نساء، عُرِضَ في أعوام 1964- 1972. المرأة القطّة: فيلم من بطولة هال بيري، أُنتج في عام 2004، تدور أحداثه حول الفتاة المسكينة التي تتحوّل إلى المرأة القطّة بعد أن كادت تفقد حياتها. الهارب: هو فيلم إثارة وتشويق أمريكي، ظهر في صالات العرض السينمائية عام 1993. قتال: (Combat!) هو برنامج تلفزيوني على شبكة أيه بي سي، عُرضت الحلقة الأولى منه في 2 من أكتوبر/ تشرين الأول 1962، والحلقة الأخيرة منه في 14 من مارس/ آذار 1967. مشاهدة بيوندي: مسلسل تلفزيوني أرجنتيني من تمثيل بيب بيوندي وأنخل باسو، عُرِض في أعوام 1961- 1969. (مُترجم الطبعة الفرنسية).